{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ } [النحل : 70] بقبض أرواحكم من أبدانكم { وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } [النحل : 70] إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة أو ثمانون أو تسعون { لِكَىْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا } [النحل : 70] لينسى ما يعلم أو لئلا يعلم زيادة علم على علمه { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ } [آل عمران : 119] بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل أو إلى الإفناء من الإحياء { قَدِيرٌ } على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ } [النحل : 71] أي جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا } [النحل : 71] في الرزق يعني الملاك { بِرَآدِّى } بمعطي { رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } [النحل : 71] فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم { فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ } [النحل : 71] جملة اسمية وقعت في موضع جملة فعلية في موضع النصب لأنه جواب النفي بالفاء وتقديره فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا مع عبيدهم في الرزق وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم : أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تجعلونهم فيه شركاء ولا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [النحل : 71] وبالتاء أبو بكر فجعل ذلك من جملة جحود النعمة

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } [النحل : 72] أي من جنسكم { وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً } [النحل : 72] جمع حافد وهو الذي يحفد أي يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القانت : وإليك نسعى ونحفد

واختلف فيه فقيل : هم الأختان على البنات وقيل : أولاد الأولاد والمعنى وجعل لكم حفدة أي خدماً يحفدون

في مصالحكم ويعينونكم { وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ } [النحل : 72] أي بعضها لأن كل الطيبات في الجنة وطيبات الدنيا أنموذج منها { أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ } [النحل : 72] هو ما يعتقدونه من منفعة الأصنام وشفاعتها { وَاللَّهُ جَعَلَ } [النحل : 72] أي الإسلام { هُمْ يَكْفُرُونَ } [النحل : 72] أو الباطل الشيطان والنعمة محمد صلى الله عليه وسلّم أو الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ شيئا } [النحل : 73] أي الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيئاً فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فإن أردت المصدر نصبت به شيئاً أي لا يملك أن يرزق شيئاً وإن أردت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه أي قليلاً ومن السماوات والأرض صلة للرزق إن كان مصدراً أي لا يرزق من السماوات مطراً ولا من الأرض نباتاً ، وصفة إن كان اسماً لما يرزق والضمير في { لا يَسْتَطِيعُونَ } [النساء : 98] لما لأنه في معنى الآلهة بعدما قال لا يملك على اللفظ والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ولا يتأتى ذلك فيهم

جزء : 2 رقم الصفحة : 422
{ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الامْثَالَ } [النحل : 74] فلا تجعلوا لله مثلا فإنه لا مثل له أي فلا تجعلوا له شركاء { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ } [التوبة : 78] أنه لا مثل له من الخلق { وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [البقرة : 216] ذلك أو إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك والوجه الأول ثم ضرب المثل فقال : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا } [النحل : 75] هو بدل من مثلا { مَّمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا } [النحل : 75] مصدران في موضع الحال أي مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء وقيد
423

(244/2)

بالمملوك ليميزه من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً إذ هما من عباد الله وبلا يقدر على شيء ليمتاز من المكاتب والمأذون فيهما يقدران على التصرف ومن موصوفة أي وحراً زرقناه ليطابق عبداً أو موصولة { هَلْ يَسْتَوُانَ } [النحل : 75] جمع الضمير لإرادة الجمع أي لا يستوي القبيلان { الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [النحل : 75] بأن الحمد والعبادة لله ثم زاد في البيان فقال :
جزء : 2 رقم الصفحة : 422
{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ } [النحل : 76] الأبكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم { وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ } [النحل : 76] أي ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله { أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ } [النحل : 76] حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية منهم لم ينفع ولم يأت بنجح { هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } [النحل : 76] أي ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير { وَهُوَ } في نفسه { عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [الأنعام : 39] على سيرة صالحة ودين قويم وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [هود : 123] أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه أو أراد بغيب السماوات والأرض يوم القيامة على أن علمه غائب عن أهل السماوات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم { وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ } [النحل : 77] في قرب كونها وسرعة قيامها { إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ } [النحل : 77] كرجع طرف وإنما ضرب به المثل لأنه لا يعرف زمان أقل منه { أَوْ هُوَ } [النحل : 77] أي الأمر { أَقْرَبُ } وليس هذا لشك المخاطب ولكن المعنى كونوا في كونها على هذا الاعتبار وقيل بل هو أقرب { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة : 20] فهو يقدر على أن يقيم الساعة

ويبعث الخلق لأنه بعض المقدورات ثم
424
دل على قدرته بما بعده فقال :
جزء : 2 رقم الصفحة : 424
{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ } [النحل : 78] وبكسر الألف وفتح الميم عليّ اتباعاً لكسرة النون وبكسرهما حمزة والهاء مزيدة في أمهات للتوكيد كما زيدت في أراق فقيل أهراق وشذت زيادتها في الواحدة { لا تَعْلَمُونَ شيئا } [النحل : 78] حال أي غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون { وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالابْصَارَ وَالافْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] أي وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة لعدم السماع في غيرها { أَلَمْ يَرَوْا } [النمل : 86] وبالتاء شامي وحمزة { إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ } [النحل : 79] مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك { فِى جَوِّ السَّمَآءِ } [النحل : 79] هو الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو { مَا يُمْسِكُهُنَّ } [النحل : 79] في قبضهن وبسطهن ووقوفهن { إِلا اللَّهُ } [النحل : 79] بقدرته وفيه نفي لما يصوره الوهم من خاصية القوى الطبيعية { إِنَّ فِى ذَالِكَ لاياتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النحل : 79] بأن الخلق لا غنى به عن الخالق { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا } [النحل : 80] هو فعل بمعنى مفعول أي ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف { وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الانْعَامِ بُيُوتًا } [النحل : 80] هي قباب الأدم { تَسْتَخِفُّونَهَا } ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل { يَوْمَ ظَعْنِكُمْ } [النحل : 80] بسكون العين كوفي وشامي وبفتح العين وغيرهم والظعن بفتح العين وسكونها الارتحال { وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ } [النحل : 80] قراركم في منازلكم والمعنى أنها خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر على أن اليوم بمعنى الوقت { وَمِنْ أَصْوَافِهَا } [النحل : 80] أي أصواف
425

الضأن { وَأَوْبَارِهَا } وأوبار الإبل { وَأَشْعَارِهَآ } وأشعار المعز { أَثَاثًا } متاع البيت { وَمَتَاعًا } وشيئاً ينتفع به { إِلَى حِينٍ } [البقرة : 36] مدة من الزمان
جزء : 2 رقم الصفحة : 425
{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالا } [النحل : 81] كالأشجار والسقوف { وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا } [النحل : 81] جمع كن وهو ما سترك من كهف أو غار { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ } [النحل : 81] هي

القمصان والثياب من الصوف والكتاب والقطن تَقِيكُمُ الْحَرَّ } وهي تقي البرد أيضاً إلا أنه اكتفى بأحد الضدين ولأن الوقاية من الحر أهم عندهم لكون البرد يسيراً محتملاً { وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ } [النحل : 81] ودروعاً من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم في قتالكم ، والبأس : شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد أو غيره { كَذَالِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } [النحل : 81] أي تنظرون في نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له { فَإِن تَوَلَّوْا } [المائدة : 49] أعرضوا عن الإسلام { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـاغُ الْمُبِينُ } [النحل : 82] أي فلا تبعة عليك في ذلك لأن الذي عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ } [النحل : 83] التي عددناها بأقوالهم فإنهم يقولون إنها من الله { ثُمَّ يُنكِرُونَهَا } [النحل : 83] بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم أو في الشدة ثم في الرخاء { وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } [النحل : 83] أي الجاحدون غير المعترفين أو نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلّم كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم وثم يدل على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر { وَيَوْمَ } انتصابه باذكر { نَبْعَثُ } نَحشر { مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا } [النحل : 84] نبياً يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والإيمان والكفر

426

{ ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [النحل : 84] في الاعتذار والمعنى لا حجة لهم فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر { وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [النحل : 84] ولا هم يسترضون أي لا يقال لهم أرضوا ربكم لأن الآخرة ليست بدار عمل ومعنى ثم أنهم يمنون أي يبتلون بعد شهادة الأنبياء عليهم السلام بما هو أطم وأغلب منها وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة

جزء : 2 رقم الصفحة : 426

{ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا } [النحل : 85] كفروا { الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ } [النحل : 85] أي العذاب بعد الدخول { وَلا هُمْ يُنظَرُونَ } [البقرة : 162] يمهلون قبله { وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ } [النحل : 86] أوثانهم التي عبدوها { قَالُوا رَبَّنَا هؤلاء شُرَكَآؤُنَا } [النحل : 86] أي آلهتنا التي جعلناها شركاء { الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ } [النحل : 86] أي نعبد { فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } [النحل : 86] أي أجابوهم بالتكذيب لأنها كانت جماداً لا تعرف من عبدها ويحتمل أنهم كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهاً لله عن الشرك { وَأَلْقَوْا } يعني الذين ظلموا { إِلَى اللَّهِ يَوْمَاإِذِ السَّلَمَ } [النحل : 87] إلقاء السلم الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا { وَضَلَّ عَنْهُم } [فصلت : 48] وبطل عنهم { مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [آل عمران : 24] من أن لله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم { الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] في أنفسهم { وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [محمد : 1] وحملوا غيرهم على الكفر { زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ } [النحل : 88] أي عذاباً بكفرهم وعذاباً بصدهم عن سبيل الله { بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [النحل : 88] بكونهم

مفسدين الناس بالصد
427
جزء : 2 رقم الصفحة : 427

(246/2)

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ } [النحل : 89] يعني نبيهم لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم { وَجِئْنَا بِكَ } [النحل : 89] يا محمد { شَهِيدًا عَلَى هؤلاء } [النحل : 89] على أمتك { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا } [النحل : 89] بيانا بليغاً { لِّكُلِّ شَىْءٍ } [الأعراف : 145] من أمور الدين أما في الأحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة أو بالإجماع أو بقول الصحابة أو بالقياس لأن مرجع الكل إلى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله : { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } [النور : 54] وحثنا على الإجماع فيه بقوله : { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ } [النساء : 115].

وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأمته باتباع أصحابه بقوله : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " وقد اجتهدوا وقاسوا ووطّؤوا طرق الاجتهاد والقياس مع أنه أمرنا به بقوله فاعتبروا يا أولي الأبصار فكانت السنة والإجماع وقول الصحابي والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب فتبين أنه كان تبياناً لكل شيء { وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل : 89] ودلالة إلى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة لهم
428
جزء : 2 رقم الصفحة : 428

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } [النحل : 90] بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وترك الظلم وإيصال كل ذي حق إلى حقه { وَالاحْسَانِ } إلى من أساء إليكم أو هما الفرض والندب لأن الفرض لا بد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب { وَإِيتَآىِ ذِى الْقُرْبَى } [النحل : 90] وإعطاء ذي القرابة وهو صلة الرحم { وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ } [النحل : 90] عن الذنوب المفرطة في القبح { وَالْمُنْكَرِ } ما تنكره العقول { وَالْبَغْىِ } طلب التطاول بالظلم والكبر { يَعِظُكُمْ } حال أو مستأنف { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [الأنعام : 152] تتعظون بمواعظ الله وهذه الآية سبب إسلام عثمان بن مظعون فإنه قال : ما كنت أسلمت إلا حياء منه عليه السلام لكثرة ما كان يعرض على الإسلام ولم يستقر الإيمان في قلبي حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان في قلبي فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر وقال أبو جهل : إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق وهي أجمع آية في القرآن للخير والشر ولهذا يقرأها كل خطيب على المنبر في آخر

كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهي { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ } [النحل : 91] هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم على الإسلام { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } [الفتح : 10] { وَلا تَنقُضُوا الايْمَانَ } [النحل : 91] أيمان البيعة { بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } [النحل : 91] بعد توثيقها باسم الله وأكد ووكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل منها { وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا } [النحل : 91] شاهداً ورقيباً لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } [النحل : 91] من البر والحنث فيجازيكم به

(247/2)

{ وَلا تَكُونُوا } [البقرة : 41] في نقض الأيمان { كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ } [النحل : 92] كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته { أَنكَاثًا } جمع نكث وهو ما ينكث فتله قيل : هي ريطة وكانت حمقاء تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن { تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ } [النحل : 92] حال كأنكاثاً { دَخَ } أحد مفعولي تتخذ أي ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً { بَيْنَكُمْ } أي مفسدة وخيانة { أَن تَكُونَ أُمَّةٌ } [النحل : 92] بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش { هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ } [النحل : 92] هي أزيد عدداً وأوفر مالاً من أمة من جماعة المؤمنين.

هي أربى مبتدأ وخبر ، في موضع الرفع صفة لأمة وأمة فاعل تكون وهي تامة وهي ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين { إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ } [النحل : 92] الضمير للمصدر أي إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من أيمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم { وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [النحل : 92] إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب وفيه تحذير عن مخالفة ملة الإسلام { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [المائدة : 48] حنيفة مسلمة { وَلَاكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ } [النحل : 93] من علم منه اختيار الضلالة { وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ } [فاطر : 8] من علم منه اختيار الهداية { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ } [النحل : 93] يوم القيامة فتجزون به { وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَ بَيْنَكُمْ } [النحل : 94] كرر النهي عن اتخاذ الإيمان دخلاً بينهم تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظمه فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا } فتزل أقدامكم عن محجة

الإسلام بعد ثبوتها عليها وإنما وحدت القدم ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد

أن تثبت عليه فكيف بأقدام كثيرة { وَتَذُوقُوا السُّواءَ } [النحل : 94] في الدنيا { بِمَا صَدَدتُّمْ } [النحل : 94] بصدودكم { عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [محمد : 1]

جزء : 2 رقم الصفحة : 430

وخروجكم عن الدين أو بصدكم غيركم لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها { وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل : 94] في الآخرة

جزء : 2 رقم الصفحة : 430

{ وَلا تَشْتَرُوا } [المائدة : 44] ولا تستبدلوا { بِعَهْدِ اللَّهِ } [النحل : 91] وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم { ثَمَنًا قَلِيلا } [النحل : 95] عرضاً من الدنيا يسيراً كأن قوماً ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم فثبتهم الله { إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ } [النحل : 95] من ثواب الآخرة { هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ } من أعراض الدنيا { يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ } [النحل : 96] من خزائن رحمته { بَاقٍ } لا ينفد { وَلَنَجْزِيَنَّ } وبالنون مكي وعاصم { الَّذِينَ صَبَرُوا } [النحل : 96] على أذى المشركين ومشاق الإسلام { أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل : 96] { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى } [النحل : 97] من مبهم يتناول النوعين إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم الموعد النوعين { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } [الإسراء : 19] شرط الإيمان لأن أعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على أن العمل ليس من الإيمان { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوَاةً طَيِّبَةً } [النحل : 97] أي في الدنيا لقوله { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل : 97] وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الاخِرَةِ } [آل عمران : 148] وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا

431

(248/2)

بقسمة الله تعالى وأما الفاجر فأمره بالعكس إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والإعراض عما سوى الله

جزء : 2 رقم الصفحة : 431

{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ } [النحل : 98] فإذا أردت قراءة القرآن { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } [الأعراف : 200] فعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل لأنها سبب له والفاء للتعقيب إذ القراءة المصدرة بالاستعاذة من العمل

الصالح المذكور { مِنَ الشَّيْطَانِ } [الأعراف : 201] يعني إبليس { الرَّجِيمِ } المطرود أو الملعون.
قال ابن مسعود رضي الله عنه : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقلت : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لي : " قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام " { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ } [النحل : 99] لإبليس { سُلْطَانٍ } تسلط وولاية { عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [النحل : 99] فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ } [النحل : 100] يتخذونه ولياً ويتبعون وساوسه { وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل : 100] الضمير يعود إلى ربهم أو إلى الشيطان أي بسببه { وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ } [النحل : 101] تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ } [النحل : 101] وبالتخفيف مكي وأبو عمرو { قَالُوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ } [النحل : 101] هو جواب إذاً.
وقوله : والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون إن محمداً يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [النحل : 75] الحكمة في ذلك

{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ } [النحل : 102] أي جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم { مِن رَّبِّكَ } [الأحزاب : 2] من عنده وأمره { بِالْحَقِّ } حال أي نزله ملتبساً بالحكمة { لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا } [النحل : 102] ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا والحكمة لأنه حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب { وَهُدًى وَبُشْرَى } [البقرة : 97] مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت والتقدير تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارة { لِلْمُسْلِمِينَ } وفيه تعريضا بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [النحل : 103] أرادوا به غلاماً كان لحويطب قد أسلم وحسن إسلامه ، اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب أو هو جبر غلام رومي لعامر بن الحضرمي أو عبدان : جبر ، ويسار كانا يقرآن التوراة والإنجيل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يسمع ما يقرآن أو سلمان الفارسي { لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ } [النحل : 103] وبفتح الياء والحاء حمزة وعلي { أَعْجَمِىٌّ وَهَاذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103] أي لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمي غير بين وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة رداً لقولهم وإبطالاً لطعنهم وهذه الجملة أعني لسان الذي يلحدون إليه أعجمي لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة ويقال : ألحد القبر ولحده وهو ملحد وملحود

إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا : ألحد فلان في قوله وألحد في دينه ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها
جزء : 2 رقم الصفحة : 433

(249/2)

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاَايَاتِ اللَّهِ } [النحل : 104] أي القرآن { لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ } [النحل : 104] ما داموا مختارين الكفر { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة : 174] في الآخرة على كفرهم { إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ } [النحل : 105] على الله { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاَايَاتِ اللَّهِ } [النحل : 104] أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لأنه لا يترقب عقاباً عليه وهو رد لقولهم إنما أنت مفتر { وَأُوالَائكَ } إشارة إلى الذين لايؤمنون أي وأولئك { هُمُ الْكَاذِبُونَ } [النحل : 105] على الحقيقة الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب أو وأولئك هم الكاذبون في قولهم إنما أنت مفتر جوزوا أن يكون { مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ } [النحل : 106] شرطاً مبتدأ وحذف جوابه لأن جواب من شرح دال عليه كأنه قيل من كفر بالله فعليهم غضب { إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَاانٌّ بِالايمَانِ } [النحل : 106] ساكن به { وَلَاكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا } [النحل : 106] أي طاب به نفساً واعتقده { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل : 106] وأن يكون بدلاً من الذين لا يؤمنون بآيات الله على أن يجعل وأولئك هم الكاذبون اعتراضاً بين البدل والمبدل منه والمعنى إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون أو من خبر الذي هو الكاذبون أي أولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الإفتراء ثم قال : ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله وأن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو أولئك أي ومن كفر بالله من بعد إيمانه وأن ينتصب على الذم روى أنَّ ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة
434
الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان منهم عمار وأما أبواه ياسر وسمية فقد قتلا وهما أول قتيلين في الإسلام فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إن عماراً كفر فقال : " كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنة إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه " فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يمسح عينيه وقال : " مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " وما فعل أبو عمار أفضل لأن في الصبر على القتل إعزازاً للإسلام
جزء : 2 رقم الصفحة : 434
{ ذَالِكَ } إشارة إلى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم { بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا } [النحل : 107] آثروا { ذَالِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَواةَ } [النحل : 107] أي بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة { وَأَنَّ اللَّهَ لا

يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [النحل : 107] ما داموا مختارين للكفر { أولئك الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ } [النحل : 108] فلا يتدبرون ولا يصغون إلى المواعظ ولا يبصرون طريق الرشاد { وَأُوالَائكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [النحل : 108] أي الكاملون في الغفلة لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الاخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ } ثم يدل على تباعد حال هؤلاء من حال

435

أولئك { لِلَّذِينَ هَاجَرُوا } [النحل : 110] من مكة أي أنه لهم لا عليهم يعني أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محمياً منفوعاً غير مضرور { مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا } [النحل : 110] بالعذاب والإكراه على الكفر فَتنوا شامي أي بعد ما عذبوا المؤمنين ثم أسلموا { ثُمَّ جَاهَدُوا } [النحل : 110] المشركين بعد الهجرة { وَصَبَرُوا } على الجهاد { إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا } [الأعراف : 153] من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر { لَغَفُورٌ } لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية { رَّحِيمٌ } لا يعذبهم على ما قالوا في حالة الإكراه

جزء : 2 رقم الصفحة : 435

(250/2)

{ يَوْمَ تَأْتِى } [الدخان : 10] منصوب برحيم أو باذكر { كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا } [النحل : 111] وإنما أضيفت النفس إلى النفس لأنه يقال لعين الشيء وذاته نفسه وفي نقيضه غيره والنفس الجملة كما هي فالنفس الأولى هي الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كلٌّ يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم : { هؤلاء أَضَلُّونَا } [الأعراف : 38].

ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا الآية والله ربنا ما كنا مشركين { وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ } [النحل : 111] تعطى جزاء عملها وافياً { وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [البقرة : 281] في ذلك { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً } [النحل : 112] أي جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذه الصفة وأن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه جالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذراً من مثل عاقبتها { كَانَتْ ءَامِنَةً } [النحل : 112] من القتل والسبى { مُّطْمَائِنَّةً } لا يزعجها خوف لأن الطمأنينة مع الأمن والانزعاج والقلق مع الخوف { يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا } [النحل : 112] واسعاً { مِّن كُلِّ مَكَانٍ } [النحل : 112] من كل بلد { فَكَفَرَتْ } أهلها { بِأَنْعُمِ اللَّهِ } [النحل : 112] جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل : 112]

436
الإذاقة واللباس استعارتان والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ووجه صحة ذلك أن الإذاقة جارية عندهم مجري الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف

جزء : 2 رقم الصفحة : 436

{ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ } [النحل : 113] أي محمد صلى الله عليه وسلّم { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [النحل : 113] أي في حال التباسهم بالظلم قالوا إنه القتل بالسيف يوم بدر روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم وجه إلى أهل مكة في سني القحط بطعام ففرق فيها فقال : " الله لهم بعد أن أذاقهم الجوع " { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [النحل : 114] على يدي محمد صلى الله عليه وسلّم { حَلَالا طَيِّبًا } [المائدة : 88] بدلاً عما كنتم تأكلونه حراماً خبيثاً من الأموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب { وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } [النحل : 114] تطيعون أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لأنها شفعاؤكم عنده ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 115] إنما للحصر أي المحرم هذا دون البحيرة وأخواتها وباقي الآية قد مر تفسيره { وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ } [النحل : 116] هو منصوب بلا تقولوا أي

437

ولا وتقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم :

جزء : 2 رقم الصفحة : 437

(251/2)

{ مَا فِى بُطُونِ هَاذِهِ الانْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا } [الأنعام : 139] من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحي أو إلى القياس المستنبط منه واللام مثلها في قولك لا تقولوا لما أحل الله هو حرام وقوله { هَاذَا حَلَالٌ وَهَاذَا حَرَامٌ } [النحل : 116] بدل من الكذب ولك أن تنصب الكذب يتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا أي و لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام وهذا لوصف ألسنتكم الكذب أي ولا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم لا

لأجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان وقوله تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر واللام في { لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [النحل : 116] من التعليل الذي لا يتضمن معنى الفرض { إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ } [يونس : 69]

جزء : 2 رقم الصفحة : 437

{ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النحل : 117] هو خبر مبتدأ محذوف أي منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ } [النحل : 118] في سورة الأنعام يعني { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ } [الأنعام : 146] الآية { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } [هود : 101] بالتحريم { وَلَاكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57] فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّواءَ بِجَهَالَةٍ } [النحل : 119] في موضع الحال أي عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ومرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى { ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَالِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا } [النحل : 119] من بعد التوبة { لَغَفُورٌ } بتكفير ما كثروا قبل من الجرائم { رَّحِيمٌ } بتوثيق ما وثقوا بعد من

438

العزائم

جزء : 2 رقم الصفحة : 438

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [النحل : 120] إنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله :

ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

وعن مجاهد كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار أو كان أمة بمعنى مأموم يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير { قَانِتًا لِّلَّهِ } [النحل : 120] هو القائم بما أمره الله وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن معاذاً كان أمة قانتاً لله فقيل له : إنما هو إبراهيم عليه السلام قال الأمة الذي يعلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكان معاذ كذلك وقال عمر رضي الله عنه لو كان معاذ حياً لاستخلفته فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : " أبو عبيدة أمين هذه الأمة ، ومعاذ أمة لله قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون " { حَنِيفًا } مائلاً عن الأديان إلى ملة الإسلام { وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل : 120] نفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش لزعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم وحذف النون للتشبيه بحروف اللين { شَاكِرًا لانْعُمِهِ } [النحل : 121] روى أنه كان لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداه فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاماً فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله على أنه عافاني وابتلاكم { اجْتَبَاهُ

} اختصه واصطفاه للنبوة { وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [النحل : 121] إلى ملة الإسلام { وَءَاتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً } [النحل : 122] نبوة وأموالاً وأولاداً أو تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه أو قول المصلى منا كما صليت على إبراهيم { وَإِنَّهُ فِى الاخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة : 130] لمن أهل الجنة ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين } في
439
ثم تعظيم منزلة نبينا عليه السلام وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته

(252/2)

جزء : 2 رقم الصفحة : 439
{ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ } [النحل : 124] أي فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه { وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل : 124] روى أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض وهو السبت إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ } [النحل : 125] إلى الإسلام { بِالْحِكْمَةِ } بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة { وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } [النحل : 125] وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها أو بالقرآن أي ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة أو الحكمة المعرفة بمراتب الأفعال والموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة { وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } [النحل : 125] بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة في الدين { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [
جزء : 2 رقم الصفحة : 440
النحل : 125] أي هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ } [النحل : 126] سمى الفعل الأول عقوبة
440

والعقوبة هي الثانية لازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فالثانية ليست بسيئة والمعنى إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أونحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد وبقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم فرأى النبي عليه السلام حمزة مبقور البطن فقال : " أما والذي أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك " فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراد ولا خلاف في تحريم المثلة لورود الأخبار بالنهي عنها حتى بالكلب العقور { وَلَـاإِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } [النحل : 126] الضمير في لهو يرجع إلى مصدر صبرتم والمراد بالصابرين المخاطبون أي ولئن صبرتم لصبركم خير لكم فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم لأنهم صابرون على الشدائد ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم

جزء : 2 رقم الصفحة : 440

{ وَاصْبِرْ } أنت فعزم عليه بالصبر { وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ } [النحل : 127] أي بتوفيقه وتثبيته { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } [الحجر : 88] على الكفار أن لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار فإنهم وصلوا إلى مطلوبهم { وَلا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل : 127] ضِيق مكي والضيق تخفيف الضيق أي في أمر ضيق ويجوز أن يكونا مصدرين كالقيل والقول والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فإنه لا ينفذ عليك { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ } [النحل : 128] أي هو ولي الذين اجتنبوا السيئات وولي العاملين بالطاعات قيل من اتقى في أفعاله وأحسن في أعماله كان الله معه في أحواله.

ومعيته نصرته في المأمور وعصمته في المحظور.

441

(253/2)

سورة الإسراء

مكية : وهي مائة وعشر آيات بصرى

وإحدى عشرة آية كوفي وشامي

{ سُبْحَانَ } تنزيه الله عن السوء وهو علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ { الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الإسراء : 1] محمد صلى الله عليه وسلّم وسرى وأسرى لغتان { لَيْلا } نصب على الظرف وقيده بالليل والإسراء لا يكون إلا بالليل للتأكيد أو ليدل بلفظ التنكير على تقرير مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة { مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الإسراء : 1] قيل أسرى به من دار أم هانىء بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته

بالمسجد والتباسه به.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحرم كله مسجد وقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر ، فقد قال عليه السلام : " بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق وقد عرج بي إلى السماء في تلك الليلة " وكان العروج به من بيت المقدس وقد أخبر قريشاً عن عيرهم وعدد جمالها
442
وأحوالها وأخبرهم أيضاً بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقي الأنبياء عليهم السلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة وكان في اليقظة ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولكن عرج بروحه.
وعن معاوية مثله وعلى الأول الجمهور إذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم { إِلَى الْمَسْجِدِ } هو بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد { الاقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء : 1] يريد بركات الدين والدنيا لأنه متعبد الأنبياء عليهم السلام ومهبط الوحي وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة { لِنُرِيَهُ } أي محمداً عليه السلام { مِّنَ الْمَسْجِدِ } [الإسراء : 1] الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤيته السماوات وما فيها من الآيات { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } [الإسراء : 1] للأقوال { الْبَصِيرُ } بالأفعال ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل أسرى ثم باركنا ثم إنه هو وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة
جزء : 2 رقم الصفحة : 442
{ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ } [الإسراء : 2] أي الكتاب وهو التوراة { هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ أَلا تَتَّخِذُوا } [الإسراء : 2] أي لا تتخذوا وبالياء أبو عمرو أي لئلا يتخذوا { مِن دُونِى وَكِيلا } [الإسراء : 2] رباً تكلون إليه أموركم { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } [الإسراء : 3] نصب على الاختصاص أو على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي أي قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح { أَنَّهُ } إن نوحاً عليه السلام { كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } [الإسراء : 3] في السراء والضراء والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم وروى أنه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال الحمد لله وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم وآية رشد الأبناء صحة الاقتداء بسنة الآباء وقد عرفتم حال الآباء هنالك فكونوا أيها الأبناء كذلك { وَقَضَيْنَآ إِلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الارْضِ } وأوحينا إليهم
443
وحياً مقضياً أي مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة.
والكتاب التوراة ولتفسدن جواب محذوف أو جرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جواباً له كأنه قال وأقسمنا لتفسدن في الأرض { مَّرَّتَيْنِ } أولاهما قتل زكرياء عليه السلام وحبس أرمياء عليه السلام حين أنذرهم سخط الله والأخرى قتل يحيى بن زكرياء عليهما السلام وقصد قتل عيسى

عليه السلام { وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } [الإسراء : 4] ولتستكبرن عن طاعة الله من قوله { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الارْضِ } [القصص : 4] والمراد به البغي والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين
جزء : 2 رقم الصفحة : 443

(254/2)

{ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـاهُمَا } [الإسراء : 5] أي وعد الله عقاب أولاهما { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ } [الإسراء : 5] سلطنا عليكم { عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ } [الإسراء : 5] أشداء في القتال يعني سنجاريب وجنوده أو بختنصر أو جالوت قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفاً { فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ } [الإسراء : 5] ترددوا للغارة فيها قال الزجاج : الجوس طلب الشيء بالاستقصاء { وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولا } [الإسراء : 5] وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ } [الإسراء : 6] أي الدولة والغلبة { عَلَيْهِمْ } على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو قيل هي قتل بختنصَّر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم وقيل أعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت { وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا } [الإسراء : 6] مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه { إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لانفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } [الإسراء : 7] قيل اللام بمعنى على كقوله : { وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة : 286] والصحيح أنها على بابها لأن اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله ، حسنة كانت أو سيئة يعني أن الإحسان والإساءة كلاهما
444
مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم وعن علي رضي الله عنه ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الاخِرَةِ } [الإسراء : 104] وعد المرة الآخرة بعثناهم أي هؤلاء { فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ } [البقرة : 150] وحذف لدلالة ذكره أولاً عليه أي ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله { سِيائَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الملك : 27].
ليسوء شامي وحمزة وأبو بكر والضمير لله عز وجل أو للوعد أو للبعث.
لنسوء علي { وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ } [الإسراء : 7] بيت المقدس { كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا } [الإسراء : 7] ما علوا مفعول ليتبروا أي ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه أو بمعنى مدة علوهم
جزء : 2 رقم الصفحة : 444
{ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ } [الإسراء : 8] بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي { وَإِنْ عُدتُّمْ } [الإسراء : 8] مرة ثالثة { عُدْنَا } إلى عقوبتكم وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة

بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم وعن ابن عباس رضي الله عنهما سلط عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة { وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا } [الإسراء : 8] محبساً يقال للسجن محصر وحصير { إِنَّ هَاذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ } [الإسراء : 9] للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها وهي توحيد الله والإيمان برسله والعمل بطاعته أو للملة أو للطريقة { وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ } [الإسراء : 9] ويَبْشر حمزة وعلى { أَنَّ لَهُمْ } [الكهف : 2] بأن لهم { أَجْرًا كَبِيرًا } [الإسراء : 9] أي الجنة { وَأَنَّ الَّذِينَ } [محمد : 3] وبأن الذين { لا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ أَعْتَدْنَا } [الإسراء : 10] أي أعددنا قلبت تاء { لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [

جزء : 2 رقم الصفحة : 445

النساء : 18] يعني النار والآية ترد القول بالمنزلة بين المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم والكافرين وجزاءهم ولم يذكر الفسقة { وَيَدْعُ الانسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ } [الإسراء : 11] أي ويدعو الله عند غضبه بالشر على

(255/2)

نفسه وأهله وماله وولده كما يدعو لهم بالخير أو يطلب النفع العاجل وإن قل بالضرر الآجل وإن جل { وَكَانَ الانسَانُ عَجُولا } [الإسراء : 11] يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأني المتبصر أو أريد بالإنسان الكافر وأنه يدعوه بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة وكان الإنسان عجولاً يعني أن العذاب آتيه لا محالة فما هذا الاستعجال وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو النضر بن الحارث قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك. الآية فأجيب فضربت عنقه صبراً وسقوط الواو من يدع في الخط على موافقة اللفظ { وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } [الإسراء : 12] أي الليل والنهار آيتان في أنفسهما فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود أي فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة أو جعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم نخلق له شعاعاً كشعاع الشمس فترى الأشياء به رؤية بينة وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء { لِّتَبْتَغُوا فَضْلا مِّن رَّبِّكُمْ } [الإسراء : 12] لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف في معايشكم { وَلِتَعْلَمُوا } باختلاف الجديدين { عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس : 5] يعني حساب الآجال ومواسم الأعمال ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار { وَكُلَّ شَىْءٍ } [يس : 12] مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم { فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا } [الإسراء : 12] بيناه بياناً غير ملتبس فأزحنا

عللكم وما تركنا لكم حجة علينا { وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ } [الإسراء : 13] عمله { فِى عُنُقِهِ } [الإسراء : 13] يعني أن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل للعنق لا يفك عنه { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ } [الإسراء : 13] هو صفة لكتاباً.

يُلقَّاه شامي { مَنشُورًا } حال من يلقاه يعني غير مطوي ليمكنه قراءته أو هما صفتان للكتاب ونقول له { اقْرَأْ كِتَابَكَ } [الإسراء : 14] أي كتاب أعمالك وكلٌ يُبعث قارئاً

446

{ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ } [الإسراء : 14] الباء زائدة أي كفى نفسك { حَسِيبًا } تمييز وهو بمعنى حاسب وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا أو بمعنى الكافي.

وضع موضع الشهيد فعدى بعلى لأن الشاهد يكفي المدعى ما أهمه وإنما ذكر حسيباً لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير إذا الغالب أن يتولى هذه الأمور الرجال فكأنه قيل كفى نفسك رجلاً حسيباً أو تؤوّل النفس بالشخص

جزء : 2 رقم الصفحة : 445

(256/2)

{ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } [الإسراء : 15] أي فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام : 164] أي كل نفس حاملة وزراً فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا } وما صح منا أن نعذب قوماً عذاب استئصال في الدنيا إلا بعد أن نرسل إليهم رسولا يلزمهم الحجة { وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً } [الإسراء : 16] أي أهل قرية { أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا } [الإسراء : 16] متنعميها وجبابرتها بالطاعة عن أبي عمرو والزجاج { فَفَسَقُوا فِيهَا } [الإسراء : 16] أي خرجوا عن الأمر كقولك أمرته فعصى أو أمرنا كثرنا ، دليله قراءة يعقوب أمرنا ومنه الحديث " خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة " أي كثيرة النسل { فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ } [الإسراء : 16] فوجب عليها الوعيد { فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء : 16] فأهلكناها إهلاكاً { وَكَمْ } مفعول { أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ } [الإسراء : 17] بيان لكم { مِن بَعْدِ نُوحٍ } [الإسراء : 17] يعني عاداً وثمود وغيرهما { وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا } [الإسراء : 17] وإن أخفوها في الصدور { بَصِيرًا } وإن أرخوا عليها الستور { مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ } [الإسراء : 18] لا ما يشاء { لِمَن نُّرِيدُ } [الإسراء : 18] بدل من له بإعادة الجار وهو بدل البعض من الكل إذ الضمير يرجع إلى

447

من أي من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد

فقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بإرادته وهكذا الحال ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة فإن أوتي حظاً من الدنيا فبها وإلا فربما كان الفقر خيراً له { ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ } [الإسراء : 18] في الآخرة { يَصْلَاهَآ } يدخلها { مَذْمُومًا } ممقوتاً { مَّدْحُورًا } مطروداً من رحمة الله

جزء : 2 رقم الصفحة : 447

{ وَمَنْ أَرَادَ الاخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء : 19] هو مفعول به أو حقها من السعي وكفاءها من الأعمال الصالحة { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } [الإسراء : 19] مصدق لله في وعده ووعيده { فَأُولَائِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا } [الإسراء : 19] مقبولاً عند الله مثاباً عليه عن بعض السلف من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا الآية فإنه شرط فيها ثلاث شرائط في كون السعي مشكوراً إرادة الآخرة والسعي فيما كلف والإيمان الثابت { كُلا } كل واحد من الفريقين والتنوين عوض عن المضاف إليه وهو منصوب بقوله { نُّمِدُّ هؤلاء } [الإسراء : 20] بدل من كل أي نمد هؤلاء { وَهَاؤُلاءِ } أي من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة { مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ } [الإسراء : 20] رزقه ومن تتعلق بنمد والعطاء اسم للمعطي أي نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصي جميعاً على وجه التفضل { وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } [الإسراء : 20] ممنوعاً عن عباده وإن عصوا { أَنظُرْ } بعين الاعتبار { كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [الإسراء : 21] في المال والجاه والسعة والكمال { وَلَلاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا } [الإسراء : 21] روى أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه فخرج الإذن لبلال وصهيب فشق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو : إنما أتينا من قبلنا.

إنهم دعوا ودعينا يعني إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب فكيف التفاوت في الآخرة ولئن

448

جزء : 2 رقم الصفحة : 448

(257/2)

حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكثر { لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَاهًا ءَاخَرَ } [الإسراء : 22] الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلّم والمراد به أمته { فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولا } [الإسراء : 22] فتصير جامعاً على نفسك الذم والخذلان وقيل مشتوماً بالإهانة محروماً عن الإعانة إذ الخذلان ضد النصر والعون.

دليله قوله تعالى : إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده.

حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر { وَقَضَى رَبُّكَ } [الإسراء : 23] وأمر أمراً مقطوعاً به { أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [يوسف : 40] أن مفسرة ولا تعبدوا نهى أو بأن لا تعبدوا { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } [الإسراء : 23] وأحسنوا بالوالدين إحساناً أو أن تحسنوا بالوالدين إحساناً { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ } [الإسراء : 23] إما هي أن الشرطية زيد عليها ما تأكيداً لها ولذا دخلت النون المؤكدة في الفعل ولو أفردت إن لم يصح دخولها لا تقول إن تكرمن زيداً يكرمك ولكن إما تكرمنه { أَحَدُهُمَآ } فاعل يبلغن وهو في قراءة حمزة وعليّ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين { أَوْ كِلاهُمَا } [الإسراء : 23] عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً { فَلا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ } [الإسراء : 23] مدني وحفص.

أفَّ مكي وشامي.

أفٌّ غيرهم وهو صوت يدل على تضجر فالكسر على أصل التقاء الساكنين والفتح للتخفيف والتنوين لإرادة التنكير أي أتضجر تضجراً وتركه لقصد التعريف أي أتضجر التضجر المعلوم { وَلا تَنْهَرْهُمَا } [الإسراء : 23] ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهي والنهر أخوان { وَقُل لَّهُمَا } [الإسراء : 23] بدل التأفيف والنهر { قَوْلا كَرِيمًا } [الإسراء : 23] جميلاً ليناً كما يقتضيه حسنِ الأدب أو هو أن يقول يا أبتاه يا أماه ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء ولا بأس به في غير وجهه كما قالت عائشة رضي الله عنها : نحلني أبو بكر كذا ، وفائدة عندك إنهما إذا صارا كلاً على ولدهما ولا كافل لهما غيره فهما عنده في بيته وكنفه وذلك أشق عليه فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أف فضلاً

449

عما يزيد عليه ، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها

جزء : 2 رقم الصفحة : 448

(258/2)

{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ } [الإسراء : 24] أي اخفض لهما جناحك كما قال واخفض جناحك للمؤمنين فأضافه إلى الذل كما أضيف حاتم إلى الجود والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل { مِنَ الرَّحْمَةِ } [الإسراء : 24] من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس وقال الزجاج وألن جانبك متذللاً لهما من مبالغتك في الرحمة لهما { وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا } [الإسراء : 24] ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك

والمراد بالخطاب غيره عليه السلام والدعاء مختص بالأبوين المسلمين وقيل إذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان وأن يدعو الله لهما بالهداية وعن النبي صلى الله عليه وسلّم : " رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما " .

وروى يفعل البار ما شاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما شاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وعنه عليه السلام : " إياكم وعقوق الوالدين فإن الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام ولا يجد عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ إزاره خيلاء إن الكبرياء لله رب العالمين } { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ } [الإسراء : 25] بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين ومن النشاط والكرامة في خدمتهما { إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ } [الإسراء : 25] قاصدين الصلاح والبر ثم فرطت منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر هنة تؤدي إلى أذاهما ثم أبتم إلى الله واستغفرتم منها { فَإِنَّهُ كَانَ لِلاوَّابِينَ غَفُورًا } [الإسراء : 25] الأواب الذي إذا أذنب بادر إلى التوبة فجاز أن يكون هذا عاماً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره
450

جزء : 2 رقم الصفحة : 450

{ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى } [الإسراء : 26] منك { حَقَّهُ } أي النفقة إذا كانوا محارم فقراء { وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } [الانفال : 41] أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة { وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا } [الإسراء : 26]ولا تسرف إسرافاً قيل التبذير تفريق المال في غير الحل والمحل فعن مجاهد لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه : لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } [الإسراء : 27] أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمة لأنه لا شر من الشيطان أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف { وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } [الإسراء : 27] فما ينبغي أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ } [الإسراء : 28] وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد { ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلا مَّيْسُورًا } [الإسراء : 28] أي وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة فردهم رداً جميلاً فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه فوضع المسبب موضع السبب يقال يسر الأمر وعسر مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول وقيل معناه : فقل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم كأن معناه قولاً ذا ميسور وهو اليسر أي دعاء فيه يسر وابتغاء مفعول له أو مصدر في موضع الحال وترجوها حال أيضا { وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ } [الإسراء : 29] كل نصب على المصدر لإضافته إليه وهذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف أمر باقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير { فَتَقْعُدَ مَلُومًا } [الإسراء : 29] فتصير ملوماً عند الله لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول الفقير : أعطى فلاناً

وحرمني ويقول الغني : ما يحسن
451

(259/2)

تدبير أمر المعيشة وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت { مَّحْسُورًا } منقطعاً بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا أثر فيه أثراً بليغاً أو عارياً من حسر رأسه وقد خاطرت مسلمة ضرتها اليهودية في أنه يعني محمداً عليه السلام أجود من موسى عليه السلام فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذي عليه فدفعه وقعد عرياناً فأقيمت الصلاة فلم يخرج للصلاة فنزلت ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم عما كان يرهقه من الإضافة بأَن ذلك ليس لهوان منك عليه ولا لبخل به عليك ولكن لأن بسط الأرزاق وقدرها مفوض إلى الله تعالى فقال :

جزء : 2 رقم الصفحة : 451

{ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ } [الإسراء : 30] فليس البسط إليك { وَيَقْدِرُ } أي هو يضيق فلا لوم عليك { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرَا } [الإسراء : 30] بمصالحهم فيمضيها { بَصِيرًا } بحوائجهم فيقضيها { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ } [الإسراء : 31] قتلهم أولادهم وأدهم بناتهم { خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ } [الإسراء : 31] فقر { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ } [الإسراء : 31] نهاهم عن ذلك وضمن أرزاقهم { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْاًا كَبِيرًا } [الإسراء : 31] إثماً عظيماً يقال : خطىء خطأ كأثم إثماً.

خطأ شامي وهو ضد الصواب اسم من أخطأ وقيل هو والخطء كالحذر والحذر خطاء بالمد والكسر مكي { وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى } [الإسراء : 32] القصر فيه أكثر والمدلغة وقد قرئ به وهو نهى عن دواعي الزنا كالمس والقبلة ونحوهما ولو أريد النهي عن نفس الزنا لقال ولا تزنوا { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً } [الإسراء : 32] معصية مجاوزة حد الشرع والعقل { وَسَآءَ سَبِيلا } [النساء : 22] وبئس طريقاً طريقه { وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ } [الأنعام : 151] أي بارتكاب ما يبيح الدم { وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا } [الإسراء : 33] غير مرتكب ما يبيح الدم { فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا } [الإسراء : 33] تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه { فَلا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ } [الإسراء : 33] الضمير للولي أي فلا يقتل غير
452

القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة أهل الجاهلية أو الإسراف المثلة أو الضمير للقاتل الأول فلا تسرف حمزة وعلي على خطاب الولي أو قاتل المظلوم { إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا } [الإسراء : 33] الضمير للولي أي حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك أو للمظلوم أي الله ناصره حيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة بالثواب أو للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه كان منصوراً بإيجاب القصاص على المسرف.

وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد وبين المسلم والذمي لأن أنفس أهل الذمة والعبيد داخلة في الآية لكونها محرمة
جزء : 2 رقم الصفحة : 452

(260/2)

{ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } [الأنعام : 152] بالخصلة والطريقة التي هي أحسن وهي حفظه وتثميره { حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } [الإسراء : 34] أي ثماني عشرة سنة { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ } [الإسراء : 34] بأوامر الله تعالى ونواهيه { إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُولا } مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به أو إن صاحب العهد كان مسؤولاً { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ } [الإسراء : 35] بكسر القاف حمزة وعلي وحفص وهو كل ميزان صغير أو كبير من موازين الدراهم وغيرها وقيل هو القرسطون أي القبان { الْمُسْتَقِيمَ } المعتدل { ذَالِكَ خَيْرٌ } [الأعراف : 26] في الدنيا { وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا } [النساء : 59] عاقبة وهو تفعيل من آل إذا رجع وهو ما يؤول إليه { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء : 36] ولا تتبع ما لم تعلم أي لا تقل رأيت وما رأيت وسمعت وما سمعت وعن ابن الحنفية لا تشهد بالزور وعن ابن عباس لا ترم أحداً بما لا تعلم.
ولا يصح التثبت به لمبطل الاجتهاد لأن ذا نوع من العلم فإن علمتموهن مؤمنات وأقام الشارع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به كما في الشهادات ولنا في العمل بخبر الواحد لما ذكرنا { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئك كَانَ عَنْهُ مَسْـُولا } أولئك إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد لأن
453
أولئك كما يكون إشارة إلى العقلاء يكون إشارة إلى غيرهم كقول جرير :
جزء : 2 رقم الصفحة : 453
ذم المنازل بعد منزلة اللوى
والعيش بعد أولئك الأيام
وعنه في موضع الرفع بالفاعلية أي كل واحد منها كان مسئولاً عنه فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة : 7].
يقال للإنسان لم سمعت ما لم يحل لك سماعه ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه كذا في الكشاف وفيه نظر لبعضهم لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفاعل إذا تأخرا عن الفعل فأما إذا تقدما فلا { وَلا تَمْشِ فِى الارْضِ مَرَحًا } [الإسراء : 37] هو حال أي ذا مرح { إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الارْضَ } [الإسراء : 37] لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطئتك { وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا } [الإسراء : 37] بتطاولك وهو تهكم بالمختال أو لن تحاذيها قوة

وهو حال من الفاعل أو المفعول { كُلُّ ذَالِكَ كَانَ سَيِّئُهُ } [الإسراء : 38] كوفي وشامي على إضافة سيء إلى ضمير كل.

سيئة غيرهم { عِندَ رَبّكَ مَكْرُوهًا } [الإسراء : 38] ذكر مكروهاً لأن السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ألا تراك تقول : الزنا سيئة ، كما تقول : السرقة سيئة ، فإن قلت الخصال المذكورة بعضها سييء وبعضها حسن ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالإضافة أي ما كان من المذكور سيئاً كان عند الله مكروهاً فما وجه قراءة من قرأ سيئة قلت كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة { ذَالِكَ } إشارة إلى ما تقدم من قوله : { لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا ءَاخَرَ } [الإسراء : 22] إلى هذه الغاية

454

{ مِمَّآ أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } [الإسراء : 39] مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس بأسوته { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـاهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا } [الإسراء : 39] مطروداً من الرحمة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها : لا تجعل مع الله إلهاً آخر وآخرها مدحوراً ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمة وإن بذ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم ثم خاطب الذين قالوا الملائكة بنات الله بقوله :

جزء : 2 رقم الصفحة : 453

(261/2)

{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ } [الإسراء : 40] الهمزة للإنكار يعني أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون { وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَـائكَةِ إِنَاثًا } [الإسراء : 40] واتخذ أدونهم وهي البنات وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم فالعبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها ويكون أردؤها وأدونها للسادات { إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلا عَظِيمًا } [الإسراء : 40] حيث أضفتم إليه الأولاد وهي من خواص الأجسام ثم فضلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَاذَا الْقُرْءَانِ } [الإسراء : 41] أي التنزيل والمراد ولقد صرفناه أي هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم { لِّيَذْكُرُوا } وبالتخفيف حمزة وعلي أي كررناه ليتعظوا { وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا نُفُورًا } [الإسراء : 41] عن الحق وكان الثوري إذ قرأها يقول زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً { قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ } [الإسراء : 42] مع الله { كَمَا يَقُولُونَ إِذًا } [الإسراء : 42] وبالياء مكي وحفص { إِذًا ابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلا } [الإسراء : 42] يعني لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً

بالمغالبة
455
كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض أو لتقربوا إليه كقوله : أولئك الذي يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة.
وإذاً دالة على أن ما بعدها وهو لابتغوا جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو
جزء : 2 رقم الصفحة : 455
{ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ } [الإسراء : 43] وبالتاء حمزة وعلي { عَلَوْا } أي تعاليا والمراد البراءة من ذلك والنزاهة { كَبِيرًا } وصف العلو بالكبر مبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به { تُسَبِّحُ } وبالتاء عراقي غير أبي بكر { لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالارْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ } [الإسراء : 44] أي يقول سبحان الله وبحمده.
عن السدي قال عليه السلام : " ما اصطيد حوت في البحر ولا طائر يطير لا بما يضيع من تسبيح الله تعالى " { وَلَاكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44] لاختلاف اللغات أو لتعسر الإدراك أو سبب لتسبيح الناظر إليه ، والدال على الخير كفاعله.
والوجه الأول { إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا } [الإسراء : 44] عن جهل العباد { غَفُورًا } لذنوب المؤمنين { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } [الإسراء : 45] ذا ستر أو حجاباً لا يرى فهو مستور { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً } [الأنعام : 25] جمع كنان وهو الذي يستر الشيء { أَن يَفْقَهُوهُ } [الأنعام : 25] كراهة أن يفقهوه { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } [الإسراء : 46] ثقلاً يمنع عن الاستماع { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ } [الإسراء : 46] يقال : وحد يحد وحداً وحدة نحو وعد يعد وعداً وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى واحداً { وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ } [الإسراء : 46] رجعوا على أعقابهم { نُفُورًا } مصدر بمعنى التولية أو جمع نافر كقاعد وقعود أي يحبون أن
456
تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا
جزء : 2 رقم الصفحة : 456

{ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ } [الإسراء : 47] أي نحن أعلم بالحال أو الطريقة التي يستمعون القرآن بها فالقرآن هو المستمع وهو محذوف وبه حال وبيان لما أي يستمعون القرآن هازئين لا جادين والواجب عليهم أن يستمعوه جادين { إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ } [الإسراء : 47] نصب بأعلم أي أعلم وقت

استماعهم بما به يستمعون { وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } [الإسراء : 47] وبما يتناجون به إذ هم ذوو نجوى { إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ } [الإسراء : 47] بدل من إذ هم { إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَّسْحُورًا } [الإسراء : 47] سحر فجن { انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الامْثَالَ } [الإسراء : 48] مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون { فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا } [الإسراء : 48] أي فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع { وَقَالُوا } أي منكرو البعث { أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } أي مجدداً وخلقاً حال أي مخلوقين { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ } أي السماوات والأرض فإنها تكبر عندكم عن قبول الحياة { فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ } [الإسراء : 51] يعيدكم { الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [الإسراء : 51] والمعنى أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة بعدما كنتم عظاماً يابسة مع أن العظام بعض أجزاء الحي بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى الحالة الأولى ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة وهو أن تكونوا حجارة أو حديداً لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة { فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ } [الإسراء : 51] فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاءً { وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ } [الإسراء : 51] أي البعث استبعاداً له ونفياً

457

{ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا } [الإسراء : 51] أي هو قريب وعسى للوجوب

جزء : 2 رقم الصفحة : 457

{ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ } [الإسراء : 52] إلى المحاسبة وهو يوم القيامة { فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ } [الإسراء : 52] أي تجيبون حامدين والباء للحال.

عن سعيد بن جبير ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك { وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا } أي لبثاً قليلاً أو زماناً قليلاً في الدنيا أو في القبر { وَقُل لِّعِبَادِى } [الإسراء : 53] وقل للمؤمنين { يَقُولُوا } للمشركين الكلمة { الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } [الإسراء : 53] وألين ولا يخاشنوهم وهي أن يقولوا يهديكم الله { إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ } [الإسراء : 53] يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقة.

والنزغ : إيقاع الشر وإفساد ذات البين وقرأ طلحة : ينزغ بالكسر وهما لغتان { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلانسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا } [الإسراء : 53] ظاهر العداوة أو فسر التي هي أحسن بقوله : { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ } [الإسراء : 54] بالهداية والتوفيق { أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ } [الإسراء : 54] بالخذلان أي يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا يقولوا لهم إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر قوله : إن الشيطان ينزع بينهم.

اعتراض { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلا } [الإسراء : 54] حافظاً لأعمالهم وموكولاً إليك أمرهم وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الإسراء : 55] وبأحوالهم وبكل ما يستأهل كل واحد منهم { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيّانَ عَلَى بَعْضٍ }

[الإسراء : 55] فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقوله : { وَءَاتَيْنَا دَاوُادَ زَبُورًا } [النساء : 163] دلالة على وجه تفضيله وأنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم لأن ذلك مكتوب في زبور داود قال الله تعالى : { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء : 105].

وهم محمد وأمته ولم يعرف الزبور

458

(263/2)

هنا وعرفه في قوله : ولقد كتبنا في الزبور لأنه كالعباس وعباس والفضل وفضل

جزء : 2 رقم الصفحة : 458

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم } [الإسراء : 56] أنها آلهتكم { مِن دُونِهِ } [يس : 23] من دون الله وهم الملائكة أو عيسى وعزير أو نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا { فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلا } [الإسراء : 56] أي ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر { أُولئك } مبتدأ { الَّذِينَ يَدْعُونَ } [الأنعام : 52] صفة أي يدعونهم آلهة أو يعبدونهم والخبر { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } [الإسراء : 57] يعني أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى الله عز وجل { أَيُّهُمْ } بدل من واو يبتغون وأي موصولة أي يبتغي من هو { أَقْرَبُ } منهم الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُا } [الإسراء : 57] كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء : 57] حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم { وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا } [الإسراء : 58] قبل الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة { كَانَ ذَالِكَ فِى الْكِتَابِ } [الإسراء : 58] في اللوح المحفوظ

جزء : 2 رقم الصفحة : 459

{ مَسْطُورًا } مكتوباً وعن مقاتل وجدت في كتب الضحاك في تفسيرها : أما مكة فيخربها

459

الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف أما خراسان فعذابها ضروب وأما بلخ فتصيبهم هدَّة فيهلك أهلها وأما بدخشان فيخربها أقوام وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون وأما صغانيان إلى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع وأما سرمقند فيغلب عليها بنو

قنطوراء فيقتلون أهلها قتلاً ذريعاً وكذا فرغانة والشاش وأسبيجاب وخوارزم وأما
460
بخارى فهي أرض الجبابرة فيموتون قحطاً وجوعاً وأما مرو فيغلب عليها الرمل ويهلك بها العلماء والعباد وأما هراة فيمطرون بالحيات فتأكلهم أكلاً وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد وبرق وظلمة فيهلك أكثرهم وأما الري فيغلب عليها الطبرية والديلم فيقتلونهم وأما أرمينية وأذربيجان فيهلكها سنابك الخيول والجيوش والصواعق والرواجف وأما همذان فالديلم يدلخها ويخربها وأما حلوان فتمر بها ريح ساكنة وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر فويل لأهلها ولأهل دمشق وويل لأهل إفريقية
461
وويل لأهل الرملة ولا يدخل بيت المقدس وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أياماً ثم هدة تأتيهم ويموت فيها العلماء وأما كرمان وأصبهان وفارس فيأتيهم عدو وصاحوا صيحة تنخلع القلوب وتموت الأبدان

جزء : 2 رقم الصفحة : 459

{ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالايَاتِ إِلا أَن كَذَّبَ بِهَا الاوَّلُونَ } [الإسراء : 59] استعير المنع لترك إرسال الآيات وأن الأولى مع صلتها في موضع النصب لأنها مفعول ثان لمنعنا وأن الثانية مع صلتها في موضع الرفع لأنها فاعل منعنا والتقدير وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً ومن إحياء الموتى وغير ذلك وسنة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال والمعنى وما منعنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وعذبوا العذاب المستأصل وقد حكمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح عليه السلام لأن آثار هلاكهم قريبة من حدودهم ببصرها صادرهم ووارادهم فقال :
462

{ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ } [الإسراء : 59] باقتراحهم { مُبْصِرَةً } آية بينة { فَظَلَمُوا بِهَا } [الأعراف : 103] فكفروا بها { وَمَا نُرْسِلُ بِالايَاتِ } [الإسراء : 59] إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها { إِلا تَخْوِيفًا } [الإسراء : 59] من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له فإن لم يخافوا وقع عليهم وإن أراد غيرها فالمعنى وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً

وإنذاراً بعذاب الآخرة وهو مفعول له
جزء : 2 رقم الصفحة : 462
{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ } [الإسراء : 60] واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش علماً وقدرة فكلهم في قبضته فلا تبال بهم وامض لأمرك وبلغ ما أرسلت به أو بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله : { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ } [القمر : 45].
{ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران : 12].
فجعله كأن قد كان ووجد فقال : أحاط بالناس على سنته في إخباره ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر : " والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم " وهو يومىء إلى الأرض ويقول : " هذا مصرع فلان " فتسامعت قريشاً بما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم من أمر بدر وما أرى في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاء { وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ } [الإسراء : 60] أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس فإنهم حين سمعوا بقوله : إن شجرة الزقوم طعام الأثيم جعلوها سخرية وقالوا : إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول : تنبت فيها الشجرة وما قدروا الله حق قدره إذا قالوا ذلك فإنه لا يمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله الناس فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها وخلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى أن الآيات إنما ترسل تخويفاً للعباد وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم ثم قال : { وَنُخَوِّفُهُمْ } أي
463
بمخاوف الدنيا والآخرة { فَمَا يَزِيدُهُمْ } [الإسراء : 60] التخويف { إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا } [الإسراء : 60] فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات وقيل الرؤيا هي الإسراء والفتنة ارتداد من استعظم ذلك وبه تعلق من يقول : كان الإسراء في المنام ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية وإنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا رأيتها استبعاداً منهم كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة كقوله { فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ } [الصافات : 91] { أَيْنَ شُرَكَآءِىَ } [القصص : 62] أو هي رؤيا أنه سيدخل مكة والفتنة الصد بالحديبية فإن قلت : ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم قلت معناه : والشجر الملعون آكلها وهم الكفرة لأنه قال { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّآلُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ } فوصفت بلعن أهلها على المجاز ولأن العرب تقول لكل طعام مكروه ضار ملعون ولأن اللعن هو الإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة
جزء : 2 رقم الصفحة : 463

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لادَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة : 34] هو تمييز أو حال من الموصول والعامل فيه أأسجد على أأسجد له وهو طين أي أصله طين { قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَاذَا الَّذِى } [الإسراء : 62] الكاف لا موضع لها لأنها ذكرت للخطاب تأكيداً هذا مفعول به والمعنى أخبرني عن هذا الذي { كَرَّمْتَ عَلَىَّ } [الإسراء : 62] أي فضلته ، لم كرمته علي وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فحذف ذلك اختصاراً لدلالة ما تقدم عليه ثم ابتدأ فقال : { لَـاإِنْ أَخَّرْتَنِ } [الإسراء : 62] وبلا ياء كوفي وشامي واللام موطئة للقسم المحذوف { إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ } [الإسراء : 62] لأستأصلنهم بإغوائهم { إِلا قَلِيلا } [النساء : 46] وهم المخلصون قيل من كل ألف واحد وإنما علم الملعون ذلك بالإعلام أو لأنه رأى أنه خلق شهواني

464

جزء : 2 رقم الصفحة : 464

{ قَالَ اذْهَبْ } [الإسراء : 63] ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية ثم عقبه بذكر ما جره سوء اختياره فقال : { فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ } [الإسراء : 63] والتقدير فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم وانتصب { جَزَآءً مَّوْفُورًا } [الإسراء : 63] أي موفراً بإضمار تجازون { وَاسْتَفْزِزْ } استزل أو استخف استفزه أي استخفه والفز الخفيف { مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ } [الإسراء : 64] بالوسوسة أو بالغناء أو بالمزمار { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم } [الإسراء : 64] اجمع وصح بهم من الجلبة وهو الصياح { بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ } [الإسراء : 64] بكل راكب وماش من أهل العيث فالخيل الخيالة والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب ورجلك حفص على أن فعلا بمعنى فاعل كتعب وتاعب ومعناه وجمعك الرِجل وهذا لأن أقصى ما يستطاع في طلب الأمور الخيل والرجل وقيل يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال { وَشَارِكْهُمْ فِى الامْوَالِ وَالاوْلَادِ } [الإسراء : 64] قال الزجاج : كل معصية في مال وولد فإبليس شريكهم فيها كالربا والمكاسب المحرمة والبحيرة والسائبة والإنفاق في الفسوق والإسراف ومنع الزكاة والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام والتسمية بعبد العزى وعبد شمس { وَعَدَّهُمْ } المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك { وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا } [النساء : 120] هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب { إِنَّ عِبَادِى } [الحجر : 42] الصالحين { لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر : 42] يد بتبديل الإيمان ولكن بتسويل العصيان { وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا } [الإسراء : 65] لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك أو حافظاً لهم عنك والكل أمر تهديد فيعاقب به أو إهانة أي لا يخل ذلك بملكي { رَّبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى } [الإسراء : 66] يجري ويسير

465
{ لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ } [الإسراء : 66] يعني الربح في التجارة { إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [الإسراء : 66]
جزء : 2 رقم الصفحة : 465
{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ } [الإسراء : 67] أي خوف الغرق { ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ } [الإسراء : 67] ذهب عن أوهامكم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده فإنكم لا تذكرون سواه أو ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم

(266/2)

ولكن الله وحده الذي ترجونه على الاستثناء المنقطع { فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ } [الإسراء : 67] عن الإخلاص بعد الخلاص { وَكَانَ الانسَانُ } [الكهف : 54] أي الكافر { كَفُورًا } للنعم { أَفَأَمِنتُمْ } الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض { أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ } [الإسراء : 68] انتصب جانب بيخسف مفعولاً به كالأرض في قوله : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الارْضَ } [القصص : 81] وبكم حال والمعنى أن يخسف جانب البر أي يقلبه وأنتم عليه والحاصل أن الجواب كلها في قدرته سواء وله في كل جانب براً كان أو بحراً سبب من أسباب الهلاك ليس جانب البحر وحده مختصاً به بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر الخسف وهو تغييب تحت التراب والغرق تغييب تحت الماء فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان { أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا } [الإسراء : 68] هي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني أو أن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء { ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا } [الإسراء : 68] يصرف ذلك عنكم { أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ } [الإسراء : 69] أي أم أمنتم أن يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل عليكم { قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ } [الإسراء : 69] وهي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد أو هو الكاسر للفلك { فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ } [الإسراء : 69] بكفرانكم النعمة وهو
466
إعراضكم حين نجاكم { ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } [الإسراء : 69] مطالباً من قوله : { فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة : 178] أي مطالبة والمعنى إنا نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجدوا أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودركاً للثأر من جهتنا وهذا نحو قوله : { وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا } [الشمس : 15].
أن نخسف أو نرسل أن نعيدكم فنرسل فنغرقكم بالنون مكي وأبو عمرو

جزء : 2 رقم الصفحة : 466

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ } [الإسراء : 70] بالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد والاستيلاء وتسخير الأشياء وتناول الطعام بالأيدي وعن الرشيد أنه أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف رحمه الله تعالى فقال له : جاء في تفسير جدك ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ } [الإسراء : 70] جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه { وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرّ } [الإسراء : 70] على الدواب { وَالْبَحْرِ } على السفن { وَرَزَقْنَاهُم مّنَ الطَّيّبَاتِ } [يونس : 93] باللذيذات أو بما كسبت أيديهم { وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا } [الإسراء : 70] أي على الكل كقوله { وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } [الشعراء : 223].

قال الحسن : أي كلهم وقوله : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا } [يونس : 36] ذكر في الكشاف أن المراد بالأكثر الجميع وعنه عليه السلام : " المؤمن أكرم على الله من الملائكة " وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة ففيهم عقل بلا شهوة وفي البهائم شهوة بلا عقل وفي الآدمي كلاهما فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ولأنه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه { يَوْمَ نَدْعُوا } [الإسراء : 71] منصوب باذكر { كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ } [الإسراء : 71] الباء للحال والتقدير مختلطين بإمامهم أي بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين فيقال : يا أتباع فلان يا أهل دين كذا أو كتاب كذا وقيل بكتاب أعمالهم فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر { فَمَنْ أُوتِىَ } [الإسراء : 71] من هؤلاء

467

المدعوين { كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَائِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ } [الحاقة : 25-71] وإنما قيل أولئك لأن من في معنى الجمع { وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا } [النساء : 49] ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء ولم يذكر الكفار وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله :

جزء : 2 رقم الصفحة : 467

{ وَمَن كَانَ فِى هَاذِهِ } [الإسراء : 72] الدنيا { أَعْمَى فَهُوَ فِى الاخِرَةِ أَعْمَى } [الإسراء : 72] كذلك { وَأَضَلُّ سَبِيلا } [الإسراء : 72] من الأعمى أي أضل طريقاً ، والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة أما في الدنيا فلفقد النظر وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه وقد جوّزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل بدليل عطف وأضل ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول ممالاً والثاني مفخماً لأن أفعل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه في حكم الواقعة

في وسط الكلمة فلم يقبل الإمالة وأما الأول فلم يتعلق به شيء فكانت ألفه واقعة في الطرف فقبلت الإمالة ، وأمالهما حمزة وعلي وفخمهما الباقون ولما قالت قريش اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك نزل { وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } [الإسراء : 73] إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والمعنى إن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين { عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ } [الإسراء : 73] من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا { لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ } [الإسراء : 73] لتتقول علينا ما لم نقل يعني ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيداً والوعيد وعداً { وَإِذًا اتَّخَذُوكَ خَلِيلا } [الإسراء : 73] أي ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلا ولكنت لهم ولياً وخرجت من ولايتي { وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ } [الإسراء : 74] ولولا تثبيتنا وعصمتنا { لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ } [الإسراء : 74] لقاربت أن تميل إلى مكرهم { شيئا قَلِيلا } [الإسراء : 74] ركوناً قليلاً وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت

{ إِذًا } لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة { إِذًا لاذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَواةِ وَضِعْفَ } [الإسراء : 75] لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك كما قال : { عَظِيمًا * يَانِسَآءَ النَّبِيّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ } الآية.

وأصل الكلام لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات لأن العذاب عذابان عذاب في الممات وهو عذاب القبر وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار والعذاب يوصف بالضعف كقوله : { قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ } [الأعراف : 38] أي مضاعفاً فكأن أصل الكلام لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات ويجوز أن يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا وبضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار وفي ذكر الكيدودة وتقليلها مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله ولما نزلت كان عليه السلام يقول : " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " { ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } [الإسراء : 75] معيناً لك يمنع عذابنا عنك { وَإِن كَادُوا } [الإسراء : 76] أي أهل مكة { لَيَسْتَفِزُّونَكَ }

ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم { مِّنَ الارْضِ } [الروم : 25] من أرض مكة { لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ } [الإسراء : 76] لا يبقون { خَلْفَكَ } بعدك أي بعد إخراجك حلافك كوفي غير أبي بكر وشامي بمعناه { إِلا قَلِيلا } [النساء : 46] زماناً قليلاً فإن الله مهلكهم وكان كما قال : فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل أو معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه وقيل من أرض العرب أو من أرض المدينة { سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا } [الإسراء :

77] يعني أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم ونصبت نصب المصدر المؤكد أي سن الله ذلك سنة { وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا } [الإسراء : 77] تبديلاً
469

(268/2)

{ أَقِمِ الصَّلَواةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ } [الإسراء : 78] لزوالها على هذه الآية جامعة للصلوات الخمس أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر { أَقِمِ الصَّلَواةَ لِدُلُوكِ } [الإسراء : 78] هو الظلمة وهو وقت صلاة العشاء { وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ } [الإسراء : 78] صلاة الفجر سميت قرآناً وهو القراءة لكونها ركناً كما سميت ركوعاً وسجوداً وهو حجة على الأَصم حيث زعم أن القراءة ليست بركن أو سميت قرآناً لطول قراءتها وهو عطف على الصلاة { إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } [الإسراء : 78] يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار أو يشهده الكثير من المصلين في العادة { وَمِنَ الَّيْلِ } [الإنسان : 26] وعليك بعض الليل { فَتَهَجَّدْ } والتهجد ترك الهجود للصلاة ويقال في النوم أيضاً تهجد { بِهِ } بالقرآن { نَافِلَةً لَّكَ } [الإسراء : 79] عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس وضع نافلة موضع تهجداً لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك أو فريضة عليك خاصة دون غيرك لأنه تطوع لهم

جزء : 2 رقم الصفحة : 469

{ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا } [الإسراء : 79] نصب على الظرف أي عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً أو ضمن يبعثك معنى يقيمك وهو مقام الشفاعة عند الجمهور ويدل عليه الأخبار أو هو مقام يعطي فيه لواء الحمد { وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ } [الإسراء : 80] هو مصدر أي أدخلني القبر إدخالاً مرضياً على طهارة من الزلات { وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ } [الإسراء : 80] أي أخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة آمناً من الملامة دليله ذكره على أثر ذكر البعث وقيل نزلت حين أمر بالهجرة يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة أو هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان { وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا } [الإسراء : 80] حجة تنصرني على من خالفني أو ملكاً وعزاً قوياً ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه { وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ } [الإسراء : 81] الإسلام { وَزَهَقَ } وذهب وهلك { الْبَاطِلُ } الشرك
470
أو جاء القرآن وهلك الشيطان { إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } [الإسراء : 81] كان مضمحلاً في كل أوان

جزء : 2 رقم الصفحة : 469

{ وَنُنَزِّلُ } وبالتخفيف أبو عمرو { مِنَ الْقُرْءَانِ } [المزمل : 20] من للتبيين { مَا هُوَ شِفَآءٌ } [الإسراء : 82] من أمراض القلوب { وَرَحْمَةً } وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب { لِلْمُؤْمِنِينَ } وفي الحديث : " من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله " { وَلا يَزِيدُ الظَّـالِمِينَ } [الإسراء : 82] الكافين { إِلا خَسَارًا } [الإسراء : 82] ضلالاً لتكذيبهم به وكفرهم { وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الانسَانِ } [الإسراء : 83] بالصحة والسعة { أَعْرَضَ } عن ذكر الله أو أنعمنا بالقرآن أعرض { وَإِذَآ أَنْعَمْنَا } [الإسراء : 83] تأكيد للإعراض لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أي يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره أو أراد الاستكبار لأن ذلك من عادة المستكبرين نأى بالأمالة حمزة وبكسرها عليَّ { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ } [فصلت : 51] الفقر والمرض أو نازلة من النوازل { كَانَ } شديد اليأس من روح الله { وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ } [طه : 135] أي كل أحد { يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ } [الإسراء : 84] على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال { فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلا } [الإسراء : 84] أسد مذهباً وطريقة { وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى } [الإسراء : 85] الجمهور على أنه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله أي مما استأثر بعلمه وعن أبي هريرة لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلّم وما يعلم الروح وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة في ذلك تعجيز

(269/2)

العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز ولذا رد ما قيل في حده أنه جسم دقيق هوائي في كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو جبريل عليه السلام : نزل به الروح الأمين على قلبك.

وعن الحسن القرآن دليله : وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا.

ولأن به حياة القلوب ومن أمر ربي أي من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر وروى أن اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبي وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم وقيل كان السؤال عن خلق الروح يعني أهو مخلوق أم لا وقوله : من أمر ربي دليل خلق الروح فكان هذا جواباً { وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا } [الإسراء : 85] الخطاب عام.

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم

أنت معنا فيه فقال : " بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً " وقيل هو خطاب لليهود خاصة لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلّم قد أويتنا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت { وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا } [البقرة : 269] فقيل لهم : إن علم التوراة قليل في جنب علم الله فالقلة والكثرة من الأمور الإضافية فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله تعالى فهي قليلة ثم نبه على نعمة الوحي وعزاه بالصبر على أذى الجدال في السؤال بقوله :

جزء : 2 رقم الصفحة : 471

{ وَلَـاٍن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ } [الإسراء : 86] لنذهبن جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط واللام الداخلة على إن توطئة للقسم والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً { ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلا } [الإسراء : 86] أي ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مسطورا

472

جزء : 2 رقم الصفحة : 472

{ إِلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا } [الإسراء : 87] أي إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد أو يكون على الاستثناء المنقطع أي ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ونزل جواباً لقول النضر : لو نشاء لقلنا مثل هذا { قُل لَّـاٍنِ اجْتَمَعَتِ الانسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَاذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [الإسراء : 88] معيناً ولا يأتون جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط كقوله :

يقول لا غائب مالي ولا حرم

لأن الشرط وقع ماضياً أي لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه لعجزوا عن الإتيان بمثله { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا } [الإسراء : 41] رددنا وكررنا { لِلنَّاسِ فِى هَاذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ } [الإسراء : 89] من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا } [الإسراء : 89] جحوداً وإنما جاز فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ولم يجز ضربت إلا زيداً لأن أبى متأول بالنفي كأنه قيل فلم يرضوا إلا كفوراً ولما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر ولزمتهم بالحجة وغلبوا اقترحوا الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير { وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا } [الإسراء : 90] وبالتخفيف كوفي { مِّنَ الارْضِ } [الروم : 25] أي مكة { يَنابُوعًا } عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع ، يفعول من نبع الماء { أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ } [الإسراء : 91] والتشديد هنا مجمع عليه

473

لقوله { الانْهَارَ خِلَالَهَا } [الإسراء : 91] وسطها { تَفْجِيرًا }

جزء : 2 رقم الصفحة : 473

{ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا } [الإسراء : 92] بفتح السين مدني وعاصم أي قطعاً يقال أعطني كسفة من هذا الثوب وبسكون السين غيرهما جمع كسفة كسدرة وسدر يعنون قوله إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء { أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائكَةِ قَبِيلا } [الإسراء : 92] كفيلاً بما تقول شاهداً بصحته والمعنى أو تأتي بالله قبيلاً وبالملائكة قبلاً كقوله : كنت منه ووالدي بريأ أو مقابلاً كالشعير بمعنى المعاشر ونحوه : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا.

أو جماعة حالاً من الملائكة { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ } [الإسراء : 93] ذهب { أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَآءِ } [الإسراء : 93] تصعد إليها { وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ } [الإسراء : 93] لأجل رقيك { حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا } [الإسراء : 93] وبالتخفيف أبو عمرو { كِتَابًا } أي من السماء فيه تصديقك { نَّقْرَؤُهُ } صفة كتاب { قُلْ } قال مكي وشامي أي قال الرسول { سُبْحَانَ رَبِّى } [الإسراء : 93] تعجب من اقتراحاتهم عليهم { هَلْ كُنتُ اِلا بَشَرًا رَّسُولا } [الإسراء : 93] أي أنا رسول كسائر الرسل بشر مثلهم وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات إلى إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها على { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ } [الإسراء : 94] يعني أهل مكة ومحل { أَن يُؤْمِنُوا } [الإسراء : 94] نصب بأنه مفعول ثان لمنع { إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى } [الإسراء : 94] النبي والقرآن { إِلا أَن قَالُوا } [العنكبوت : 29] فاعل منع والتقدير وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلّم إلا قولهم { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولا } [الإسراء : 94] أي إلا شبهة تمكنت في صدورهم وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر ، والهمزة في أبعث الله للإنكار وما أنكروه ففي قضية حكمته منكر ثم رد الله عليهم بقوله :

474

جزء : 2 رقم الصفحة : 474

{ قُل لَّوْ كَانَ فِى الارْضِ مَلَائكَةٌ يَمْشُونَ } [الإسراء : 95] على أقدامهم كما يمشي الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه { مُطْمَاـِنّينَ } حال أي ساكنين في الأرض قارين { لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولا } [الإسراء : 95] يعلمهم الخير ويهديهم المراشد فأما الإنس فإنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم وبشراً وملكاً حالان من رسولاً { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [الرعد : 43] على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتك وعاندتم.

شهيداً تمييز أو حال { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ } [الإسراء : 30] المنذرين والمنذرين { خَبِيرًا } عالماً بأحوالهم { بَصِيرًا } بأفعالهم فهو مجازيهم وهذه تسلية لرسول الله عليه السلام ووعيد للكفرة { وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ } [الإسراء : 97] وبالياء يعقوب وسهل وافقهما أبو عمرو ومدني في الوصل أي من وفقه الله

لقبول ما كان من الهدى فهو المهتدي عند الله { وَمَن يُضْلِلِ } [النساء : 88] أي ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان { فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ } [الإسراء : 97] أي أنصاراً { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } [الإسراء : 97] أي يسحبون عليها كقوله { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } وقيل لرسول الله عليه الصلاة والسلام كيف يمشون على وجوههم قال : " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم " { عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } [الإسراء : 97] كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم { مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ } [الإسراء : 97] طفئ لهبها { زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } [الإسراء : 97] توقدا
475
جزء : 2 رقم الصفحة : 475

(271/2)

{ ذَالِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَايَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } [الإسراء : 98] أي ذلك العذاب بسبب أنهم كذبوا بالإعادة بعد الإفناء فجعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها ثم يعيدها لا يزالون على ذلك ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث { أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاؤُا بَنِى إِسْرَاءِيلَ } أو لم يعلموا { أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } [الإسراء : 99] من الإنس { وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلا لا رَيْبَ فِيهِ } [الإسراء : 99] وهو الموت أو القيامة { فَأَبَى الظَّالِمُونَ اِلا كُفُورًا } [الإسراء : 99] جحوداً مع وضوح الدليل { قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ } [الإسراء : 100] تقديره لو تملكون أنتم لأن لو تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد من فعل بعدها فأضمر تملك على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل وهو الواو ضميره منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ { خَزَآ اِن رَحْمَةِ رَبّى } [الإسراء : 100] رزقه وسائر نعمه على خلقه { إِذًآ لامْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الانفَاقِ } [الإسراء : 100] أي لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق { وَكَانَ الانسَانُ قَتُورًا } [الإسراء : 100] بخيلاً { وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ } [الإسراء : 101] عن ابن عباس رضي الله عنهما هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه على بني إسرائيل وعن الحسن الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور { فَسْالْ بَنِى } فقلنا له اسأل بني إسرائيل أي سلهم من فرعون وقل له أرسل معي بني إسرائيل وقوله { إِذْ } متعلق بقوله المحذوف

أي فقلنا له سلهم حين جاءهم { جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنّى لاظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا } [الإسراء : 101] سحرت فخولط عقلك

جزء : 2 رقم الصفحة : 476

{ قَالَ } أي موسى { لَقَدْ عَلِمْتَ } [الإسراء : 102] يا فرعون { مَآ أَنزَلَ هؤلاء } [الإسراء : 102] الآيات { إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الإسراء : 102] خالقهما { بَصَآ ئِرَ } حال أبي بينات مكشوفات إلا أنك معاند ونحوه { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : 14].

علمت بالضم عليّ أي إني لست بمسحور كما وصفتني بل أنا عالم بصحة الأمر وأن هذه الآيات منزلها رب السماوات والأرض ثم قارع ظنه بظنه بقوله : { وَإِنّى لاظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } [الإسراء : 102] كأنه قال : إن ظننتني مسحوراً فأنَا أظنك مثبوراً هالكاً وظني أصح من ظنك لأن له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها وأما ظنك فكذب بحث لأن قولك مع علمك بصحة أمري إني لأظنك مسحوراً قول كذب وقال الفراء : مثبوراً مصروفاً عن الخير من قولهم ما ثبرك عن هذا أي ما منعك وصرفك { فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم } [الإسراء : 103] يخرجهم أي موسى وقومه { مِّنَ الارْضِ } [الروم : 25] أي أرض مصر أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال { فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا } [الإسراء : 103] فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ } [الإسراء : 104] من بعد فرعون { لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ اسْكُنُوا الارْضَ } [الإسراء : 104] التي أراد فرعون أن يستفزكم منها فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرَةِ } أي القيامة

جزء : 2 رقم الصفحة : 477

{ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا } [الإسراء : 104] جمعاً مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم وأشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى { وَبِالْحَقّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقّ نَزَلَ } [الإسراء : 105] وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة وما نزل إلا

ملتبساً بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفظاً بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين.

قال الراوي : اشتكى محمد بن السماك فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب نصراني فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقي الثوب فقال لنا : إلى أين؟ فقلنا له : إلى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك فقال : سبحان الله تستعينون على ولي الله بعدو الله اضربوه على الأرض وارجعوا إلى ابن السماك

وقولوا له ضع يدك على موضع الوجع وقل : وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ثم غاب عنا فلم نره فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك فوضع يده على موضع الوجع وقال ما قال الرجل وعوفي في الوقت وقال كان ذلك الخضر عليه السلام { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا } [الإسراء : 105] بالجنة { وَنَذِيرًا } من النار

جزء : 2 رقم الصفحة : 477

{ وَقُرْءَانًا } منصوب بفعل يفسره { فَرَقْنَاهُ } أي فصلناه أو فرقنا فيه الحق من الباطل { لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ } [الإسراء : 106] على تؤدة وتثبت { وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلا } [الإسراء : 106] على حسب الحوادث { قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا } [الإسراء : 107] أي اختاروا لأنفسكم النعيم المقيم أو العذاب الأليم ثم علل بقوله : { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ } [الإسراء : 107] أي التوراة من قبل القرآن { إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ } [الإسراء : 107] القرآن { يَخِرُّونَ لِلاذْقَانِ سُجَّدًا } [الإسراء : 107] حال { وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا } [الإسراء : 108] لقوله آمنوا به أو لا تؤمنوا أي أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن فإن خيراً منهم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب قد آمنوا به وصدقوه فإذا تلى عليهم خروا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد

478

صلى الله عليه وسلّم وإنزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد المذكور.

إن بمعنى إنه وهي تؤكد الفعل كما أن إن تؤكد الاسم وكما أكدت إن باللام في إنهم لمحضرون أكدت إن باللام في لمفعولا

جزء : 2 رقم الصفحة : 478

{ وَيَخِرُّونَ لِلاذْقَانِ يَبْكُونَ } [الإسراء : 109] ومعنى الخرور للذقن السقوط على الوجه وإنما خص الذقن لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن يقال : خر على وجهه وعلى ذقنه وخر لوجهه ولذقنه أما معنى على فظاهر وأما معنى اللام فكأنه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به إذ اللام للاختصاص وكرر يخرون للأذقان لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين وخرورهم في حال كونهم باكين { وَيَزِيدُهُمْ } القرآن { خُشُوعًا } لين قلب ورطوبة عين { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ } [الإسراء : 110] لما سمعه أبو جهل يقول يا الله يا رحمن قال : إنه نهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر فنزلت وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فنزلت والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء وأو للتخيير أي سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا إما هذا وإما هذا والتنوين في { أَيًّا مَّا تَدْعُوا } [الإسراء : 110] عوض من المضاف إليه وما زيدت للتوكيد وأياً نصب بتدعوا وهو مجزوم بأي أي أي هذين الاسمين ذكرتم وسميتم { فَلَهُ الاسْمَآءُ الْحُسْنَى } [الإسراء : 110] والضمير في فله يرجع إلى ذات الله تعالى والفاء لأنه جواب الشرط أي أيّاماً تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله : فله الأسماء

الحسنى لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها ومعنى كونها أحسن الأسماء إنها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم { وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ } [الإسراء : 110] بقراءة صلاتك على حذف المضاف لأنه لا يلبس إذ الجهر والمخافتة
479

(273/2)

تعتقبان على الصوت لا غير والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يرفع صوته بقراءته فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا فأمر بأن يخفض من صوته والمعنى ولا تجهر حتى تسمع المشركين { وَلا تُخَافِتْ بِهَا } [الإسراء : 110] حتى لا تسمع من خلفك { وَابْتَغِ بَيْنَ ذَالِكَ } [الإسراء : 110] بين الجهر والمخافتة { سَبِيلا } وسطاً أو معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار أو بصلاتك بدعائك { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا } [الإسراء : 111] كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح { وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ } [الإسراء : 111] كما زعم المشركون { وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ } [الإسراء : 111] أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته { وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا } [الإسراء : 111] وعظمه وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد أو شريك وسمى النبي عليه السلام الآية آية العز وكان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية.
480
جزء : 2 رقم الصفحة : 479

(274/2)

سورة الكهف

مائة وإحدى عشرة آية بصري وعشر آيات كوفي

(10/3)

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ } [الكهف : 1] محمد صلى الله عليه وسلّم { الْكِتَابُ } القرآن ، لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام وما أنزل

على محمد صلى الله عليه وسلّم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم { وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } [الكهف : 1] أي شيئاً من العرج والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، يقال في رأيه عوج وفي عصاه عوج والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من الحكمة { قَيِّمًا } مستقيماً وانتصابه بمضمر وتقديره ، جعله قيما لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة ، وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غني عن الآخر التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح أو قيماً على سائر الكتب مصدقا لها شاهداً بصحتها { لِّيُنذِرَ } أنذر متعد إلى مفعولين كقوله : { إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا } [النبأ : 40].

فاقتصر على أحدهما ، وأصله لينذر الذين كفروا { بَأْسًا } عذاباً { شَدِيدًا } وإنما اقتصر على أحد مفعولي أنذر لأن المنذر به هو المسوق إليه فاقتصر عليه { مِّن لَّدُنْهُ } [النساء : 40] صادراً من عنده

11

{ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ } [الإسراء : 9] أي بأن لهم { أَجْرًا حَسَنًا } [الكهف : 2] أي الجنة ، ويبشر حمزة وعليَّ.

جزء : 3 رقم الصفحة : 11

{ مَّاكِثِينَ } حال من هم في لهم { فِيهِ } في الأجر وهو الجنة { أَبَدًا } { وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } [الكهف : 4] ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الأول استغناء بتقديم ذكره { مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ } [النساء : 157] أي بالولد أو باتخاذه يعني أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط فإن قلت : إتخاذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم قلت معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه أو لأنه في نفسه محال { وَلا لابَآ ئِهِمْ } [الكهف : 5] المقلدين { كَبُرَتْ كَلِمَةً } [الكهف : 5] نصب على التمييز وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة والضمير في كبرت يرجع إلى قولهم اتخذ الله ولداً وسميت كلمة كما يسمعون القصيدة بها { تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } [الكهف : 5] صفة لكلمة تفيد استعظاماً لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات لا يتما لكون أن يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر { إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا } [الكهف : 5] ما يقولون ذلك إلا كذباً هو صفة لمصدر محذوف أي قولاً كذباً { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ } [الكهف : 6] قاتل نفسك { عَلَى ءَاثَارِهِمْ } [الكهف : 6] أي آثار الكفار شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الأسف على توليهم برجل فارقه أحبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وتلهفا على فراقهم { إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَاذَا الْحَدِيثِ } [الكهف : 6] بالقرآن { أَسَفًا } مفعول لهُ أي لفرط الحزن ، والأسف المبالغة في الحزن والغضب { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الارْضِ زِينَةً لَّهَا } [الكهف : 7] أي ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها { لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا } [الكهف : 7] وحسن العمل الزهد فيها

وترك الاغترار به
12
ثم زهد في الميل إليها بقوله :
جزء : 3 رقم الصفحة : 12

(11/3)

{ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا } [الكهف : 8] من هذه الزينة { صَعِيدًا } أرضاً ملساء { جُرُزًا } يابساً لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة والمعنى نعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار وغير ذلك ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن قال : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ } [الكهف : 9] يعني أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة ، والكهف : الغار الواسع في الجبل والرقيم اسم كلبهم أو قريتهم أو اسم كتاب كتب في شأنهم أو اسم الجبل الذي فيه الكهف { كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا } [الكهف : 9] أي كانوا آية عجباً من آياتنا وصفا بالمصدر أو على ذات عجب { إِذْ } أي اذكر إذ { أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً } [الكهف : 10] أي رحمة من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء { وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا } أي الذي نحن عليه من مفارقة الكفار { رَشَدًا } حتى نكون بسببه راشدين مهتدين أو اجعل أمرنا رشداً كله كقولك رأيت منك أسداً أو يسر لنا طريق رضاك { فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ } [الكهف : 11] أي ضربنا عليها حجاباً من النوم يعني أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الاصوات فحذف المفعول الذي هو الحجاب { سِنِينَ عَدَدًا } [الكهف : 11] ذوات عدد فهو صفة لسنين قال الزجاج أي تعد عدداً لكثرتها لأن القليل يعلم مقداره من غير عدد فإذا كثر عد فأما دراهم معدودة فهي على القلة لأنهم كانوا يعدون القليل ويزنون الكثير
جزء : 3 رقم الصفحة : 13
{ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ } [الكهف : 12] أيقظناهم من النوم { لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ } [الكهف : 12] المختلفين منهم في
13
مدة لبثهم لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك وذلك قوله { قَالَ قَآ ئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } [الكهف : 19] وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول أو أي الحزبين المختلفين من غيرهم { أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا } [الكهف : 12] غاية وأحصى فعل ماض وأمدا ظرف لأحصى أو مفعول له والفعل الماضي خبر المبتدأ وهو

أي والمتبدأ مع خبره سدمسد مفعولي نعلم والمعنى أيهم ضبط أمداً لأوقات لبثهم وأحاط علماً بأمد لبثهم ومن قال : أحصى أفعل من الإحصاء وهو العد فقد زل لأن بناءه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس وإنما قال : لنعلم مع أنه تعالى لم يزل عالماً بذلك لأن المراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيماناً واعتباراً وليكون لطفاً لمؤمني زمانهم وآية بينة لكفاره أو المراد لنعلم اختلافهما موجوداً كما علمناه قبل وجوده

جزء : 3 رقم الصفحة : 13

{ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ } [الكهف : 13] بالصدق { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ } [الكهف : 13] جمع فتى والفتوة بذل الندى وكف الأذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم وقيل الفتى من لا يدعي قبل الفعل ولا يزكي نفسه بعد الفعل { بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا } [الكهف : 13 ، 14] يقينا وكانوا من خواص دقيانوس قد قذف الله في قلوبهم الإيمان وخاف بعضهم بعضاً وقالوا ليخل اثنان اثنان منا فيظهر كلاهما ما يضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على الإيمان { وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } [الكهف : 14] وقويناها بالصبر على هجران الأوطان والفرار بالدين إلى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام { إِذْ قَامُوا } [الكهف : 14] بين يدي الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام { فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الكهف : 14] مفتخرين { لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَاهًا } [الكهف : 14] ولئن سميناهم آلهة { لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا } [الكهف : 14] قولاً ذا شطط وهو الإفراط في الظلم والإبعاد في من شط يشط ويشط إذا بعد

14

جزء : 3 رقم الصفحة : 14

{ هؤلاء } مبتدأ { قَوْمُنَا } عطف بيان { اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً } [الأنبياء : 24] خبر وهو إخبار في معنى الإنكار { لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم } [الكهف : 15] هلا يأتون على عبادتهم فخذف المضاف { بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ } [الكهف : 15] بحجة ظاهرة وهو تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [الأنعام : 144] بنسبة الشريك إليه { وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ } [الكهف : 16] خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم { وَمَا يَعْبُدُونَ } [الكهف : 16] نصب عطف على الضمير أي وإذ عتزلتموهم وإذا اعتزلتم معبوديهم { إِلا اللَّهَ } [النحل : 79] استثناء متصل لأنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه غيره كأهل مكة أو منقطع أي وإذ اعتزلتم الكفار والأصنام التي يعبدونها من دون الله أو هو كلام معترض إخبار من الله تعالى

عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله { فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ } [الكهف : 16] صيروا إليه أو اجعلوا الكهف مأواكم { يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ } [الكهف : 16] من رزقه { وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا } مَرفقاً مدني وشامي وهو ما يرتفق به أي ينتفع وإنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم أو أخبرهم به نبي في عصرهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 15

{ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ } [الكهف : 17] بتخفيت الزاي كوفي ، تزَّور شامي ، تزَّاور غيرهم وأصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها والكل من الزور وهو الميل ومنه زاره إذا مال إليه والزور الميل عن الصدق { عَن كَهْفِهِمْ } [الكهف : 17] أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم { ذَاتَ الْيَمِينِ } [الكهف : 17] جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين { وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ } [الكهف : 17] تقطعهم أي تتركهم وتعدل عنهم { ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ } [الكهف : 17] في متسع من الكهف والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا

15

تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم وقيل منفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار { ذَالِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ } [الأعراف : 26] أي ما صنعه الله بهم من إزورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله يعني أن ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة وقيل باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقنأة أبداً ومعنى ذلك من آيات الله أن شأنهم وحديثهم من آيات الله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ } [الكهف : 17] مثل ما مر في سبحان وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية { وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا } [الكهف : 17] أي من أضله فلا هادي له

جزء : 3 رقم الصفحة : 15

{ وَتَحْسَبُهُمْ } بفتح السين شامي وحمزة وعاصم غير الأعشي وهو خطاب لكل أحد { أَيْقَاظًا } جمع يقظ { وَهُمْ رُقُودٌ } [الكهف : 18] نيام قيل عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظاً { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ } [الكهف : 18] قيل لهم تقلّبتان في السنة وقيل تقلبة واحدة في يوم عاشوراء { وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ } [الكهف : 18] حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي { بِالْوَصِيدِ } بالفناء أو بالعتبة { لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ } [الكهف : 18] لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم { لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ } [الكهف : 18] لأعرضت عنهم وهربت منهم { فِرَارًا } منصوب على المصدر لأن معنى وليت منهم فررت منهم { وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ } [الكهف : 18] وبتشديد اللام حجازي للمبالغة { رُعْبًا } تمييز وبضم العين شامي وعلي وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملؤه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة أو لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم وعن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال : أريد أن أدخل فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لقد قيل لمن هو خير

منك لوليت منهم فراراً فدخلت جماعة بأمره فأحرقتهم ريح
16

(13/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 16
{ وَكَذَالِكَ بَعَثْنَاهُمْ } [الكهف : 19] وكان أنمناهم تلك النومة كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرة على الإنامة والبعث جميعاً { لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ } [الكهف : 19] ليسأل بعضهم بعضاً ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقيناً ويشكروا ما أنعم الله به عليهم { قَالَ قَآ ئِلٌ مِّنْهُمْ } [الصافات : 51] رئيسهم { كَمْ لَبِثْتُمْ } [المؤمنون : 112] كم مدة لبثكم { قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } [الكهف : 19] جواب مبنى على غالب الظن وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب { قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } [الكهف : 19] بمدة لبثكم إنكار عليهم من بعضهم كأنهم قد علموا بالأدلة أو بإلهام أن المدة متطاولة وأن مقدارها لا يعلمه إلا الله وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم في يومهم فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك : وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما على أن الصحيح عددهم سبعة لأنه قد قال في الآية قال : قائل منهم كم لبثتم وهذا واحد وقالوا في جوابه لبثنا يوماً أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ثم قال ربكم : أعلم بما لبثتم وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة { فَابْعَثُوا أَحَدَكُم } [الكهف : 19] كأنهم قالوا ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه فخذوا في شيء آخر مما يهمكم فابعثوا أحدكم أي يمليخا { بِوَرِقِكُمْ } هي الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة وبسكون الراء أبو عمرو وحمزة وأبو بكر { هَاذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ } [الكهف : 19] هي طرسوس وحملهم الورق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات وعن بعض العلماء أنه كان شديد الحنين إلى بيت الله ويقول ما لهذا السفر إلا شيئان شد الهميان والتوكل
17
على الرحمن { فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ } [الكهف : 19] أي أهلها فخذف كما في واسئل القرية وأي مبتدأ وخبره { أَزْكَى } أحل وأطيب أو أكثر وأرخص { طَعَامًا } تمييز { فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ } [الكهف : 19] وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن أو في أمر التخفي حتى لا يعرف { وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا } [الكهف : 19] ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور بنا من غير قصد منه فسمى ذلك إشعاراً منه بهم لأنه سبب فيه
جزء : 3 رقم الصفحة : 17

والضمير في { إِنَّهُمْ } راجع إلى الأهل المقدر في أيها { إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ } [الكهف : 20] يطلعوا عليكم { يَرْجُمُوكُمْ } يقتلوكم أخبث القتلة { أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ } [الكهف : 20] بالإكراه ، والعود بمعنى الصيرورة كثير في كلامهم { وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا } [الكهف : 20] إذاً يدل على الشرط أي ولن تفلحوا إن دخلتم في دينهم أبداً { وَكَذَالِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ } [الكهف : 21] وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم { لِيَعْلَمُوا } أي الذين أطلعناهم على حالهم { أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ } [غافر : 77] وهو البعث { حَقٌّ } كائن لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث { وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَآ } [الكهف : 21] فإنهم يستدلون بأمرهم على صحة البعث { إِذْ يَتَنَازَعُونَ } [الكهف : 21] متعلق بأعثرنا أي أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان { بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ } [الكهف : 21] أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث فكان بعضهم يقول تبعث الأرواح دون الأجساد وبعضهم يقول تبعث الأجساد مع الأرواح ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت { فَقَالُوا } حين توفى الله أصحاب الكهف { ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا } [الكهف : 21] أي على باب كهفهم لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالحظيرة

جزء : 3 رقم الصفحة : 18

(14/3)

{ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ } [الكهف : 21] من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا ربهم أعلم بهم أو من كلام الله عز وجل رداً لقول الخائضين في حديثهم { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ } [الكهف : 21] من المسلمين وملكهم 18

وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم { لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم } [الكهف : 21] على باب الكهف { مَّسْجِدًا } يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم روي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها وممن شدد في ذلك دقيانوس فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال : ما تريدون مني إني أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسدبه فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع

الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ثم قالت : الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفي الله أنفسهم فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا

جزء : 3 رقم الصفحة : 18

{ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمَا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ } [الكهف : 22] الضمير في سيقولون لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلّم من المؤمنين ، وأهل الكتاب سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم فنزلت اخباراً بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم وأن المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم ويروي أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلّم فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد : وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال

19

(15/3)

العاقب : وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلّم وبما ذكرنا من قبل وعن علي رضي الله عنه هم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشلينا شلييينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم أفسوس واسم كلبهم قطمير وسين الاستقبال وإن دخل في الأول دون الآخرين فهما داخلان في حكم السين كقولك قد أكرم وأنعم تريد معنى التواقع في الفعلين جميعاً أو أريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ثلاثة خبر مبتدأ محذوف أي هم ثلاثة وكذلك خمسة وسبعة ورابعهم كلبهم جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم رجماً بالغيب رمياً بالخبر الخفي وإتيانا به كقوله ويقذفون بالغيب أي يأتون به أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة النكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في قولك جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه

عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم دليله أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله رجماً بالغيب وأتبع القول الثالث قوله :

جزء : 3 رقم الصفحة : 19

{ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم } [الكهف : 22] أي قل ربي أعلم بعدّتهم وقد أخبركم بها بقوله سبعة وثامنهم كلبهم { مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ } [الكهف : 22] قال : ابن عباس رضي الله عنهما أنا من ذلك القليل وقيل إلا قليل من أهل الكتاب والضمير في سيقولون على هذا الأهل الكتاب خاصة أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك إلا في قليل منهم وأكثرهم على ظن وتخمين { فَلا تُمَارِ فِيهِمْ } [الكهف : 22] فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف { إِلا مِرَآءً ظَاهِرًا } [الكهف : 22] إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك

20

فحسب ولا تزيد من غير تجهيل لهم أو بمشهد من الناس ليظهر صدقك { وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا } [الكهف : 22] ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ما عنده ولا سؤال مسترشد لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 19

(16/3)

{ وَلا تَقُولَنَّ لِشَا ىْءٍ } [الكهف : 23] لأجل شيء تعزم عليه { إِنّى فَاعِلٌ ذَالِكَ } [الكهف : 23] الشيء { غَدًا } أي فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة { إِلا أَن يَشَآءَ اللَّهُ } [الإنسان : 30] أن تقوله بأن يأذن لك فيه أو ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أي إلا بمشيئته وهو في موضع الحال أي إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلاً إن شاء الله وقال الزجاج معناه ولا تقولن إني أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى لأن قول القائل أنا أفعل ذلك إن شاء الله معناه لا أفعله إلا بمشيئة الله وهذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه فقال : ائتوني غداً أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه { وَاذْكُر رَّبَّكَ } [الكهف : 24] أي مشيئة ربك وقل إن شاء الله { إِذَا نَسِيتَ } [الكهف : 24] إذا فرط منك نسيان لذلك والمعنى إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر عن الحسن مادام في مجلس الذكر وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولو بعد سنة وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء فأما الاستثناء المغير حكماً فلا يصح إلا متصلاً وحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضي الله عنهما في الاستثناء المنفصل فاستحضرة لينكر عليه فقال له أبو حنيفة هذا يرجع عليك إنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه

وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده أو معناه واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء تشديداً في البعث على الاهتمام بها أوصل صلاة نسيتها إذا ذكرتها أو إذا نسيت شيئاً فاذكره ليذكرك المنسى { وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لاقْرَبَ مِنْ هَاذَا رَشَدًا } [الكهف : 24] يعني إذا نسيت شيئاً فاذكر ربك ، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا

21

المنسى أقرب منه رشداً وأدنى خيراً ومنفعه.

أن يهدين ، إن ترن ، أن يؤتين ، أن تعلمن.

مكى في الحالين ووافقه أبو عمرو ومدني في الوصل

جزء : 3 رقم الصفحة : 21

{ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِا ئَةٍ سِنِينَ } يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم هذه المدة وهو بيان لما أجمل في قوله : فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً وسنين عطف بيان لثلثمائة.

ثلثمائة سنين بالإضافة حمزة وعليّ على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله بالأخسرين أعمالاً { وَازْدَادُوا تِسْعًا } [الكهف : 25] أي تسع سنين لدلالة ما قبله عليه وتسعاً مفعول به لأن زاد تقتضي مفعولين فازداد يقتضى مفعولاً واحداً { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوْا } [الكهف : 26] أي هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما أخبرك به أو هو حكاية لكلام أهل الكتاب وقل الله أعلم رد عليهم والجمهور على أن هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدة { لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الكهف : 26] ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السماوات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها { أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ } [الكهف : 26] أي وأسمع به والمعنى ما أبصره بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع لأهل السموات والأرض { لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ } [الكهف : 26] من متول لأمورهم { وَلا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ } [الكهف : 26] في قضائه { أَحَدًا } منهم ، ولا تشرك على النهى شامي كانوا يقولون له ائت بقرآن غير هذا أو بدله فقيل له :

{ وَاتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ } [الكهف : 27] أي من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل فإنه { لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } [الكهف : 27] أي لا يقدر أحد على تبديلها أو تغييرها إنما يقدر على ذلك هو وحده { وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا } [الكهف : 27] ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك

22

ولما قال : قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم نح هؤلاء الموالى وهم صهيب وعمار وخباب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل

جزء : 3 رقم الصفحة : 22

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم } [الكهف : 28] واحبسها معهم وثبتها { بِالْغَدَواةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام : 52] دائبين على الدعاء في كل وقت أو بالغداة لطلب التوفيق والتيسير والعشى لطلب عفو التقصير أوهما صلاة الفجر والعصر.

بالغُدوة شامي { يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } [الأنعام : 52] رضا الله { وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ } [الكهف : 28] ولا تجاوز ، عداه إذا جاوزه وعدى بعن لتضمن عدا معنى نبا في قولك نبت عنه عينه وفائدة التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ { تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [الكهف : 28] في موضع الحال { وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا } [الكهف : 28] من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر وهو دليل لنا على أنه تعالى خالق أفعال العباد { وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف : 28] مجاوزاً عن الحق { وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ } [الكهف : 29] أي الإسلام أو القرآن ، والحق خبر مبتدأ محذوف أي هو { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] أي جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك وجيء بلفظ الأمر والتخيير لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ماشاء من النجدين ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال : { إِنَّآ أَعْتَدْنَا } [الكهف : 102] هيأنا { لِلظَّالِمِينَ } للكافرين فقيد بالسياق كما تركت حقيقة الأمر والتخيير بالسياق وهو قوله إنا أعتدنا للظالمين { نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } [الكهف : 29] شبه ما يحيط بها من النار بالسرادق وهي الحجرة التي تكون حول الفسطاط أو هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار أو هو حائط من

نار يطيف بهم { وَإِن يَسْتَغِيثُوا } [الكهف : 29] من العطش { يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ } [الكهف : 29] هو دردي الزيت أو ما أذيب من جواهر الأرض وفيه تهكم بهم { يَشْوِى الْوُجُوهَ } [الكهف : 29] إذا قدم ليشرب انشوى الوجوه من حرارته { بِئْسَ الشَّرَابُ } [الكهف : 29] ذلك { وَسَآءَتْ } النار { مُرْتَفَقًا } متكأ من الرفق وهذه لمشاكلة قوله : وحسنت مرتفقا وإلا فلا ارتفاق لأهل النار وبين جزاء من اختار الإيمان فقال :

جزء : 3 رقم الصفحة : 23

{ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا * أولئك لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ } كلام مستأنف بيان للأجر المبهم ولك أن تجعل إنَّا لا نضيع وأولئك خبرين معاً والمراد من أحسن منهم عملاً كقولك السمن منوان بدرهم أو لأن من أحسن عملاً والذين آمنوا وعملوا الصالحات ينتظمهما معنى واحد فأقام من أحسن مقام الضمير { تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الانْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ } [الكهف : 31] من للإبتداء وتنكير أساور وهي جمع أسورة التي هي جمع سوار لإبهام أمرها في الحسن { مِن ذَهَبٍ } [الزخرف : 53] من للتبيين { وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ }

[الكهف : 31] ما رَقَّ من الديباج { وَإِسْتَبْرَقٍ } ما غلظ منه أي يجمعون بين النوعين { مُّتَّكِاِينَ فِيهَا عَلَى الارَآ ئِكِ } [الإنسان : 13] خص الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم { نِعْمَ الثَّوَابُ } [الكهف : 31] الجنة { وَحَسُنَتْ } الجنة والأرائك { مُرْتَفَقًا } متكأ { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا رَّجُلَيْنِ } [الكهف : 32] ومثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران في والصافات في قوله : قال قائل منهم إني كان لي قرين ورثاً

24

(18/3)

من أبيهما ثمانية آلاف دينار فجعلاها شطرين فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار فقال المؤمن : اللهم إن أخى اشترى أرضاً بألف دينار وأنا أشترى منك أرضاً في الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه داراً بألف فقال : اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال : اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحور ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال : اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريق فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله

جزء : 3 رقم الصفحة : 24

{ جَعَلْنَا لاحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ } [الكهف : 32] بساتين من كروم { وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ } [الكهف : 32] وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة يقال حفوه إذا أطافوا به وحففته بهم أي جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولاً ثانياً { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا } [الكهف : 32] جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق

جزء : 3 رقم الصفحة : 24

{ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ } [الكهف : 33] أعطت حمل على اللفظ لأن اللفظ كلتا مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز { أُكُلَهَا } ثمرها { وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ } [الكهف : 33] ولم تنقص من أكلها { شيئا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا } [الكهف : 33] نعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو النهر الجاري فيها { وَكَانَ لَهُ } [الكهف : 34] لصاحب الجنتين { ثَمَرٌ } أنواع من المال من ثمر ماله إذا كثره أي كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما له ثمر وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء عاصم

وبضم الثاء وسكون الميم أبو عمرو وبضمهما غيرهما { فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ } [الكهف : 34] يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع يعني قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويفاخره

25

بما ملك من المال دونه { أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا } [الكهف : 34] أنصاراً وحشماً ، أو أولاداً ذكوراً لأنهم ينفرون معه دون الإناث

جزء : 3 رقم الصفحة : 25

{ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ } [الكهف : 35] إحدى جنتيه أو سماهما جنة لا تحاد الحائط ، وجنتين للنهر الجاري بينهما { وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } [الكهف : 35] ضار لها بالكفر { قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَاذِهِ أَبَدًا } [الكهف : 35] أي أن تهلك هذه الجنة شك في بيدودة جنته لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بالمهلة وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك { وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآ ئِمَةً } [الكهف : 36] كائنة { وَلَـاٍن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لاجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا } [الكهف : 36] إقسام منه على أنه أن رد إلى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا إدعاء لكرامته عليه ومكانته عنده منقلباً تمييز أي مرجعاً وعاقبة { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُا أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ } [الكهف : 37] أي خلق أُصلك لأن خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقاً له { ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ } [فاطر : 11] أي خلقك من نطفة { ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا } [الكهف : 37] عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال جعله كافراً بالله لشكه في البعث { لَكُنَّآ } بالألف في الوصل شامي ، الباقون بغير ألف ، وبغير ألف ، وبالألف في الوقف اتفاق ، وأصله لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فأدغمت الأولى في الثانية بعد أن سكنت { هُوَ اللَّهُ رَبِّى } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 26

(19/3)

الكهف : 38] هو ضمير الشأن والشأن الله ربي والجملة خبر أنا والراجع منها إليه ياء الضمير وهو استدراك لقوله أكفرت قال لأخيه أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمراً حاضر وفيه حذف أي أقول هو الله بدليل عطف { وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا * وَلَوْلا } وهلا { إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ } [الكهف : 39] ماموصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ما شاء الله أو شرطية منصوبة

26

الموضع والجزاء محذوف يعني أي شيء شاء الله كان والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر ما شاء الله اعترافا بأنها وكل ما فيها إنما حصل بمشيئة الله وأن أمرها بيده إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها وقلت : { لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ } [الكهف : 39] إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده من قرأ { إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالا } [الكهف : 39] بنصب أقل فقد جعل أنا فصلا ومن رفع وهو الكسائي جعله مبتدأ وأقل خبره والجملة مفعولا ثانياً لترني وفي قوله : { وَوَلَدًا } نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله : وأعز نفرا

جزء : 3 رقم الصفحة : 26

{ فَعَسَى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ } [الكهف : 40] في الدنيا أو في العقبي { وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا } [الكهف : 40] عذاباً { مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا } [الكهف : 40] أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها { أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا } [الكهف : 41] غائراً أي ذاهباً في الأرض { فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا } [الكهف : 41] فلا يتأتى منك طلبه فضلاً عن الوجود والمعنى إن ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي ومابك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بساتينك { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } [الكهف : 42] هو عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل إهلاك { فَأَصْبَحَ } أي الكافر { يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ } [الكهف : 42] يضرب إحداهما على الآخر ندماً وتحسراً وإنما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلى كأنه قيل فأصبح يندم { عَلَى مَآ أَنفَقَ فِيهَا } [الكهف : 42] أي في عمارتها { وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [البقرة : 259] يعني أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم { وَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا } [الكهف : 42] تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتي من جهة كفره وطغيانه فتمنى لو لم يكن

27

مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمني ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندما على ما كان منه ودخولا في الإيمان

جزء : 3 رقم الصفحة : 27

{ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ } [الكهف : 43] يقدرون على نصرته { مِن دُونِ اللَّهِ } [يس : 74] أي هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لحكمة { وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا } [الكهف : 43] وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله { هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ } [الكهف :

44] يكن بالياء والولاية بكسر الواو حمزة وعلي فهي بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك والمعنى هنالك أي في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها أحد سواه تقريراً لقوله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله أو هنالك السلطان والملك صلى الله عليه وسلّم لا يغلب أو في مثل تلك الحالة الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعني أن قوله ياليتني لم أشرك بربي أحداً كلمة ألجيء إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها.

أو هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم يعني أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدق قوله فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء ويؤيده قوله : { هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ } أي لأوليائه أو هنالك إشارة إلى الآخرة أي في تلك الدار الولاية لله كقوله : لمن الملك اليوم.

الحق بالرفع أبو عمرو وعلى صفة للولاية أو خبر مبتدأ محذوف أي هي الحق أو هو الحق غيرهما بالجر صفة لله.

عقباً بسكون القاف عاصم وحمزة وبضمها غيرهما وفي الشواذ عقبى على وزن فعلى وكلها بمعنى العاقبة { عُقْبًا * وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ } [الكهف : 45] أي هي كماء أنزلناه { فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الارْضِ } [الكهف : 45] فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضاً أو أثر في النبات الماء فاختلط به حتى روى { فَأَصْبَحَ هَشِيمًا } [الكهف : 45] يابساً متكسراً الواحدة هشيمة { تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ } [الكهف : 45] تنسفه وتطيره.

الريح حمزة وعلى { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ } [النساء : 85] من الإنشاء والإفناء { مُّقْتَدِرًا } قادراً شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك

والإفناء بحال النبات يكون أخضر ثم يهيج فتطهيره الريح كأن لم يكن

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [الكهف : 46] لا زاد القبر وعدة العقبى { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } [الكهف : 46] أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر { خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا } [الكهف : 46] جزاء { وَخَيْرٌ أَمَلا } [الكهف : 46] لأنه وعد صادق وأكثر الآمال كاذبه يعني أن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيبه في الآخرة { وَيَوْمَ } واذكر يوم { نُسَيِّرُ الْجِبَالَ } [الكهف : 47] تُسيَّر الجبال مكى وشامي وأبو عمرو أي تسير في الجو أو يذهب بها بأن تجعل هباء منثوراً منبثاً { وَتَرَى الارْضَ بَارِزَةً } [الكهف : 47]

ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال والأشجار { وَحَشَرْنَاهُمْ } أي الموتى { فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } [الكهف : 47] أي فلم نترك.
غادره أي تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ما غادره السيل { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا } [الكهف : 48] مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداً شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان { لَّقَدْ جِئْتُمُونَا } [الكهف : 48] أي قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر يجوز أن يكون عامل النصب في يوم نسير { كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة } [الكهف : 48] أي لقد بعثناكم كما أنشأناكم أول مرة أو جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولا وإنما قال : وحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى للدلالة على حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك { بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا } [الكهف : 48] وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور أو مكان وعد للمحاسبة { وَوُضِعَ الْكِتَابُ } [الكهف : 49] أي صحف الأعمال { فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ } [الكهف : 49] خائفين { مِمَّا فِيهِ } [الكهف : 49] من الذنوب { وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَاذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً } أي لا يترك شيئاً من المعاصي { إِلا أَحْصَاهَا } [الكهف : 49] حصرها وضبطها { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا } [الكهف : 49] في الصحف عتيداً أو جزاء ما عملوا { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف : 49] فيكتب عليه ما لم يعمل أو يزيد في عقابه أو يعذبه بغير جرم

29

جزء : 3 رقم الصفحة : 29

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لادَمَ } [البقرة : 34] فسجود تحية أو سجود انقياد { فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ } [الكهف : 50] وهو مستأنف كأن قائلاً قال : ما له لم يسجد فقيل كان من الجن { فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } [الكهف : 50] خرج عما أمره ربه به من السجود وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ } [الكهف : 50] الهمزة للإنكار والتعجب كأنه قيل أعقيب ما وجد منه تتخذونه وذريته { أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى } [الكهف : 50] وتستبدلونهم بي ومن ذريته لا قيس موسوس الصلاة والأعور صاحب الزنا وتبر صاحب المصائب ومطوس صاحب الأراجيف وداسم يدخل ويأكل مع من لم يسم الله تعالى { وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ } [الكهف : 50] أعداء { بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا } [الكهف : 50] بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ } [الكهف : 51] أي إبليس وذريته { خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [إبراهيم : 19] يعني أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة وإنما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض لأعتضد بهم في خلقها أو أشاورهم فيه أي تفردت بخلق الأشياء فأفردوني في العبادة

30

{ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ } [الكهف : 51] أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله ولا تقتلوا أنفسكم { وَمَا

كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلّينَ } [الكهف : 51] أي وما كنت متخذهم { عَضُدًا } أي أعواناً فوضع المضلين موضع الضمير ذمًّا لهم بالإضلال فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق فمالكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة

جزء : 3 رقم الصفحة : 30

(22/3)

{ وَيَوْمَ يَقُولُ } [الأنعام : 73] الله للكفار ، وبالنون حمزة { نَادُوا } ادعوا بصوت عالٍ { شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ } [الكهف : 52] أنهم فيكم شركائي ليمنعوكم من عذابي وأراد الجن وأضاف الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم { فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا } [الكهف : 52] مهلكا من وبق يبق وبوقاً إذا هلك أو مصدر كالموعد أي وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً أو الملائكة وعزيراً وعيسى والموبق البرزخ البعيد أي وجعلنا بينهم أمداً بعيداً لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان { وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا } فأيقنوا { أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا } [الكهف : 53] مخالطوها واقعون فيها { وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا } [الكهف : 53] عن النار { مَصْرِفًا } معدلاً { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَاذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ } [الكهف : 54] يحتاجون إليه { وَكَانَ الانسَانُ أَكْثَرَ شَىءٍ جَدَلا } [الكهف : 54] تمييز أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل يعني أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء

جزء : 3 رقم الصفحة : 31

{ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى } [الإسراء : 94] أي سببه وهو الكتاب والرسول { وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إلا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الاوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ } [الكهف : 55] أن الأولى نصب والثانية رفع وقبلها مضاف محذوف تقديره وما منع الناس الإيمان والاستغفار إلا انتظار أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك أو انتظار أن يأتيهم العذاب أي عذاب الآخرة { قُبُلا } كوفى أي أنواعاً جمع قبيل.

الباقون قِبلا أي عياناً { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } [الأنعام : 48] يوقف عليه ويستأنف بقوله : { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ } [الكهف : 56] هو قولهم للرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو

31

شاء الله لأنزل ملائكة ونحو ذلك { لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } [غافر : 5] ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة { وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِى } [الكهف : 106] القرآن { وَمَآ أُنْذِرُوا } [الكهف : 56] ما موصولة والراجع من

الصلة محذوف أي وما أنذروه من العقاب أو مصدرية أي وإنذارهم { هُزُوًا } موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة حمزة وبإبدال الهمزة واوا حفص وبضم الزاي والهمزة غيرهما
جزء : 3 رقم الصفحة : 31
{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِاَايَاتِ رَبِّهِ } [الكهف : 57] بالقرآن ولذلك رجع الضمير إليها مذكراً في قوله أن يفقهوه { فَأَعْرَضَ عَنْهَا } [الكهف : 57] فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر { وَنَسِىَ } عاقبة { مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } [الكهف : 57] من الكفر والمعاصي غير متفكر فيها ولا ناظر في أن المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم بقوله : { إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً } [الكهف : 57] أغطية جمع كنان وهو الغطاء { وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا } [الأنعام : 25] ثقلاً عن استماع الحق وجمع بعد الإفراد حملاً بعد الإفراد حملاً على لفظ من ومعناه { وَإِن تَدْعُهُمْ } [الكهف : 57] يا محمد { إِلَى الْهُدَى } [الأنعام : 71] إلى الإيمان { فَلَن يَهْتَدُوا } [الكهف : 57] فلا يكون منهم اهتداء البتة { إِذًا } جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وحود الاهتداء سبباً في انتفائه وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله مالى لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم فقيل وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً { أَبَدًا } مدة التكليف كلها { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ } [الكهف : 58] البليغ المغفرة { ذُو الرَّحْمَةِ } [الأنعام : 133] الموصوف بالرحمة { لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ } [
جزء : 3 رقم الصفحة : 32

الكهف : 58] أي من رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلاً مع فرط عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلّم { بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ } [الكهف : 58] وهم يوم بدر { لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْاِلا } [الكهف : 58] منجى ولا ملجأ يقال وآل إذا نجا ووأل إليه إذا لجأ إليه { وَتِلْكَ } مبتدأ { الْقُرَى } صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء
32
الأجناس والخبر { أَهْلَكْنَاهُمْ } أو تلك القرى نصب بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم والمراد قوم نوح وعاد وثمود { لَمَّا ظَلَمُوا } [يونس : 13] مثل ظلم أهل مكة { وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا } [الكهف : 59] وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الإهلاك ووقته.
وبفتح الميم وكسر اللام حفص وبفتحهما أبو بكر أي لوقت هلاكهم أو لهلاكهم والموعد وقت أو مصدر

جزء : 3 رقم الصفحة : 32
{ وَإِذِ } واذكر إذ { قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ } [الكهف : 60] هو يوشع بن نون وإنما قيل فتاه لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم { لا أَبْرَحُ } [الكهف : 60] لا أزال وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه أما الأولى فلأنها كانت حال سفر وأما الثاني فلأن قوله : { حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ } [الكهف : 60] غاية مضروبة تستدعى ما هي غاية له فلا بد أن يكون المعنى لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحر فارس والروم وسمي خضراً لأنه أينما يصلي يخضر ما حوله { أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا } [الكهف : 60] أو أسير زماناً طويلاً قيل ثمانون سنة.
روي أنه لما ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بنى إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني قال : فأي عبادك أقضي؟ قال : الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : فأي عبادك أعلم؟ قال : يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ، قال : إن كان في عبادك من هو أعلم مني فدلني عليه قال : أعلم منك الخضر قال : أين أطلبه قال : على الساحل عند الصخرة قال : يا رب كيف لي به قال : تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال : لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع في البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه في البحر فأتيا الصخرة فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال وإني بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال : يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا.
33
جزء : 3 رقم الصفحة : 33
{ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا } [الكهف : 61] مجمع البحرين { نَسِيَا حُوتَهُمَا } [الكهف : 61] أي نسى أحدهما وهو يوشع لأنه كان صاحب الزاد دليله فإني نسيت الحوت وهو كقولهم نسوا زادهم وإنما ينساه متعهد الزاد قيل كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا ليلة على شاطئ عين الحياة ونام موسى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت في الماء { فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ } [الكهف : 61] أي اتخذ طريقاً له من البر إلى البحر { سَرَبًا } نصب على المصدر أي سرب فيه سرباً يعني دخل فيه واستر به { فَلَمَّا جَاوَزَا } [الكهف : 62] مجمع البحرين ثم نزلا وقد سارا ما شاء الله { قَالَ } موسى { لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَاذَا نَصَبًا } [الكهف : 62] تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك { قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ } [الكهف : 63] هي موضع الموعد { فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ } [الكهف : 63] ثم اعتذر فقال : { وَمَآ أَنسَانِيهُ } [الكهف : 63] وبضم الهاء حفص { إِلا الشَّيْطَانُ } [الكهف : 63] بإلقاء الخواطر في القلب { أَنْ أَذْكُرَهُ } [الكهف : 63] بدل من الهاء في

أنسانيه أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان
جزء : 3 رقم الصفحة : 34

(24/3)

{ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا } [الكهف : 63] وهو أن أثره بقي إلى حيث سار { قَالَ ذَالِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } [الكهف : 64] نطلب وبالياء مكي وافقه أبو عمرو وعلي مدني في الوصل وبغيرياء فيهما غيرهما اتباعا لخط المصحف وذلك إشارة إلى اتخاذه سبيلاً أي ذلك الذي كنا نطلب لأن ذهاب الحوت كان علماً على لقاء الخضر عليه السلام { فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا } [الكهف : 64] فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه { قَصَصًا } يقصان قصصاً أي يتبعان آثارهما اتباعاً قال الزجاج : القصص اتباع الأثر { فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ } [الكهف : 65] أي الخضر راقداً تحت ثوب أو جالساً في البحر { رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ } [الكهف : 65] هي الوحي والنبوة أو العلم أو طول الحياة { وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا } [الكهف : 65] يعني الإخبار بالغيوب وقيل العلم اللدني ما حصل للعبد بطريق الإلهام { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا } [الكهف : 66] أي علماً ذا رشد

34

أرشد به في ديني رشدا أبو عمرو وهما لغتان كالبخل والبخل وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته وإن يتواضع لمن هو أعلم منه

جزء : 3 رقم الصفحة : 34

{ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ } [الكهف : 67] وبفتح الياء حفص وكذا ما بعده في هذه السورة { صَبْرًا } أي عن الإنكار والسؤال { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا } [الكهف : 68] تمييز نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزع إذا رأى ذلك فيكف إذا كان نبياً { قَالَ سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا } [الكهف : 69] من الصابرين عن الإنكار والاعراض { وَلا أَعْصِى لَكَ أَمْرًا } [الكهف : 69] في محل النصب عطف على صابراً أي ستجدني صابراً وغير عاص أو هو عطف على ستجدني ولا محل له { قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلا } بفتح اللام وتشديد النون مدني وشامي وبسكون اللام وتخفيف النون غيرهما والياء ثابتة فيهما إجماعاً { تَسْـَٔلْنِي عَن شَىءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا } [الكهف : 70] أي فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً وقد علمت أنه صحيح إلا أنه خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك أن لا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك وهذا من أدب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع { فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا }

[الكهف : 71] فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركباها قال أهلها : هما من اللصوص وقال صاحب السفينة : أرى وجوه الأنبياء فحملوهما بغير نول فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ثم

35

{ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا } [الكهف : 71] ليَغرق حمزة وعلي من غرق { لَقَدْ جِئْتَ شيئا إِمْرًا } [الكهف : 71] أتيت شيئاً عظيماً من أمر الأمر إذا عظم

جزء : 3 رقم الصفحة : 35

(25/3)

{ قَالَ } أي الخضر { أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا } فلما رأى موسى أن الخرق لا يدخله الماء ولم يفر من السفينة { قَالَ لا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ } [الكهف : 73] بالذي نسيته أو بشيء نسيته أو بنسياني أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسي أو أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة { وَلا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا } [الكهف : 73] رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه أي ولا تغشني عسراً من أمري وهو اتباعه إياه أي ولا تعسر على متابعتك ويسرها على بالإغضاء وترك المناقشة { فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ } [الكهف : 74] قيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه ثم ذبحه بالسكين وإنما قال : فقتله بالفاء وقال : خرقها بغير فاء لأن خرقها جعل جزاء للشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفاً عليه والجزاء { قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا } [الكهف : 74] وإنما خولف بينهما لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام { زَكِيَّةَ } زاكية حجازي وأبو عمرو وهي الطاهرة من الذنوب إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت أو لأنها صغيرة لم يبلغ الحنث { بِغَيْرِ نَفْسٍ } [المائدة : 32] أي لم تقتل نفساً فيقتص منها وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن نجدة الحروري كتب إليه كيف جاز قتله وقد نهى رسول صلى الله عليه وسلّم عن قتل الولدان فكتب إليه إن علمت من حال الولدان ما علمه موسى فلك أن تقتل { لَّقَدْ جِئْتَ شيئا نُّكْرًا } [الكهف : 74] وبضم الكاف حيث كان مدني وأبو بكر وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر لأن قتل نفس واحدة

36

أهون من إغراق أهل السفنية أو معناه جئت شيئاً أنكر من الأول لأن الخرق يمكن تداركه بالسد ولا يمكن تدارك القتل

جزء : 3 رقم الصفحة : 36

{ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا } [الكهف : 75] زاد لك هنا لأن النكير فيه أكثر {

قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا } [الكهف : 76] بعد هذه الكرة أو المسألة { فَلا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا } [الكهف : 76] أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق.

ولدني بتخفيف النون مدني وأبو بكر { فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ } [الكهف : 77] هي أنطاكية أو الأيلة وهي أبعد أرض الله من السماء { اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا } [الكهف : 77] استضافاً { فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا } [الكهف : 77] ضيفه أنزله وجعله ضيفه قال عليه السلام : " كانوا أهل قرية لئاماً " وقيل شر القرى التي تبخل بالقرى { فَوَجَدَا فِيهَا } [الكهف : 77] في القرية { جِدَارًا } طوله مائة ذراع { يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ } [الكهف : 77] يكاد يسقط استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك { فَأَقَامَهُ } بيده أو مسحه بيده فقام واستوى أو نقضه وبناه كان الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسائلة فلم يجدا مواسياً فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رآى من الحرمان ومساس الحاجة أن { قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا } [الكهف : 77] أي لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفع به الضرورة.

لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الذال بصري وبإظهارها مكي وبتشديد التاء وفتح

الخاء وإظهار الذال حفص وبتشديد التاء وفتح الخاء وإغام الذال في التاء غيرهم والتاء في تخذ أصل كما في تبع واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ في شيء

جزء : 3 رقم الصفحة : 37

(26/3)

{ قَالَ هَاذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ } [الكهف : 78] هذا إشارة إلى السؤال الثالث أي هذا الاعتراض سبب الفراق والأصل هذا فراق بيني وبينك وقد قرىء به فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف : 78] { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ } [الكهف : 79] قيل كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمني وخمسة يعلمون في البحر { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا } [الكهف : 79] أجعلها ذات عيب { وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ } [الكهف : 79] أمامهم أو خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره فأعلم الله به الخضر وهو جلندي { يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا } [الكهف : 79] أي يأخذ كل سفينة صالحة لا عيب فيها غصباً وإن كانت معيبة تركها وهو مصدر أو مفعول له فإن قلت قوله : فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب قلت المراد به التأخير وإنما قدم للعناية { وَأَمَّا الْغُلَامُ } [الكهف : 80] وكان اسمه الحسين { فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا } [الكهف : 80] فخفنا أن يغشي الوالدين المؤمنين طغياناً عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه

ويلحق بهما شراً وبلاء أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وهو من كلام الخضر وإنما خشي الخضر منه ذلك لأنه تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وإن كان من قول الله تعالى فمعني فخشينا فعلمنا إن عاش أن يصير سبباً لكفر والديه { فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا } [الكهف : 81] يبَدّلهما ربهما مدني وأبو عمرو { خَيْرًا مِّنْهُ زَكَواةً } [الكهف : 81] طهارة ونقاء من الذنوب { وَأَقْرَبَ رُحْمًا } [الكهف : 81] رحمة وعطفا وزكاة ورحما تمييز روي أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبياً أو سبعين نبياً أو أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما رُحُما شامي وهما لغتان
38
{ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ } [الكهف : 82] أصرم وصريم { يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ } [الكهف : 82] هي القرية المذكورة { وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا } [الكهف : 82] أي لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف بحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله أو مال مدفون من ذهب وفضة أو صحف فيها علم والأول أظهر وعن قتادة أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة عليها وأحلت لنا { وَكَانَ أَبُوهُمَا } [الكهف : 82] قيل جدهما السابع { صَالِحًا } ممن يصحبني وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه قال : لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين قال : بصلاح أبيهما قال : فأبي وجدي خير منه { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا } [الكهف : 82] أي الحلم { وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً } [الكهف : 82] مفعول له أو مصدر منصوب بأراد ربك لأنه في معنى رحمهما { مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ } [الكهف : 82] وما فعلت ما رأيت { عَنْ أَمْرِى } [الكهف : 82] عن اجتهادي وإنما فعلته بأمر الله والهاء تعود إلى الكل أو إلى الجدار { ذَالِكَ } أي الأجوبة الثلاثة { تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا } حذف التاء تخفيفاً وقد زل أقدام أقوام من الضلال في تفضيل الولي على النبي وهو كفر جلى حيث قالوا أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو وليّ والجواب أن الخضر نبي وإن لم يكن كما زعم البعض فهذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام على أن أهل الكتاب يقولون إن موسى هذا ليس موسى بن عمران إنما هو موسى بن ماثان ومن المحال أن يكون الوليّ وليًّا إلا بإيمانه بالنبي ثم يكون النبي دون الوليّ ولا غضاضة في طلب موسى العلم لأن الزيادة في العلم مطلوبة وإنما ذكر أولاً فأردت لأنه إفساد في الظاهر وهو فعله وثالثاً فأراد ربك لأنه إنعام محض وغير مقدور البشر وثانياً فأردنا لأنه إفساد من حيث الفعل إنعام من حيث التبديل وقال الزجاج : معني فأردنا فأراد الله عز وجل ومثله في القرآن كثير { وَيَسْـَٔلُونَكَ } أي اليهود على جهة الإمتحان أو أبو جهل وأشياعه
39

{ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ } [الكهف : 83] هو الإسكندر الذي ملك الدنيا قيل ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبختنصر وكان بعد نمرود وقيل كان عبداً صالحاً ملّكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة فإذا سرى يهديه النور من أمامة وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل نبياً وقيل ملكاً من الملائكة وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال : ليس بملك ولا نبي ولكن كان عبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمي ذا القرنين وفيكم مثله أراد نفسه قيل كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى وقل عليه السلام : " سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا " يعني جانبيها شرقها وغربها وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان أو انقرض في وقته قرنان من الناس أو لأنه ملك الروم وفارس أو الترك والروم أو كان لتاجه قرنان أو على رأسه ما يشبه القرنين أو كان كريم الطرفين أبا وأما وكان من الروم { قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ } [الكهف : 83] من ذي القرنين { ذِكْرًا }

جزء : 3 رقم الصفحة : 38

{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الارْضِ } [الكهف : 84] جعلنا له فيها مكانة واعتلاء { وَءَاتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ } [الكهف : 84] أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه { سَبَبًا } طريقاً موصلاً إليه { فَأَتْبَعَ سَبَبًا } [الكهف : 85] والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً. يوصله إليه حتى بلغ وكذلك أراد المشرق فأتبع سبباً وأراد بلوغ السدين فأتبع سبباً.

فأتبع سبباً ثم أتبع كوفي وشامي الباقون بوصل الألف وتشديد التاء عن الأصمعي أتبع لحق واتبع اقتفى وإن لم يلحق { حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ } [الكهف : 86] أي منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع قال صلى الله عليه وسلّم : " بدء أمره أنه وجد في الكتب أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد فجعل يسير في طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين " { وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ } [الكهف : 86] ذات حمأة من حمئت البئر إذا صارت

فيها الحمأة حامية شامي وكوفي غير حفص بمعنى حارة وعن أبي ذر كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلّم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال : " أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه " قلت الله ورسوله أعلم قال : " فإنها تغرب في عين حامية " وكان ابن عباس رضي الله عنهما عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال : ابن عباس حمئة فقال معاوية : لعبد الله بن عمرو كيف تقرؤها فقال : كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال : في ماء وطين كذلك نجده في التوراة فوافق قول ابن عباس رضي الله عنهما ولا تنافي فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً { وَوَجَدَ عِندَهَا } [الكهف : 86] عند تلك العين { قَوْمًا } عراة من الثياب لباسهم جلود الصيد وطعامهم ما لفظ البحر وكانوا كفاراً { قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ

حُسْنًا } [الكهف : 86] إن كان نبياً فقد أوحى الله إليه بهذا وإلا فقد أوحى إلى نبي فأمره النبي به أو كان إلهاماً خير بين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على أمرهم وبين أن يتخذ فيهم حسناً بإكرامهم وتعليم الشرائع إن آمنوا أو التعذيب القتل وإتخاذ الحسن الأسر لأنه بالنظر إلى القتل إحسان

جزء : 3 رقم الصفحة : 40

(28/3)

{ قَالَ } ذو القرنين { أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ } [الكهف : 87] بالقتل { ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا } [الكهف : 87] في القيامة يعني أما من دعوته إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك فذاك هو المعذب في الدارين { وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا } [الكهف : 88] أي عمل ما يقتضيه الإيمان { فَلَهُ جَزَآءً الْحُسْنَى } [الكهف : 88] فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة.

جزاءً الحسنى كوفي غير أبي بكر أي فله الفعلة الحسنى جزاء { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا } [الكهف : 88] أي ذا يسر أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ } هم

41

الزنج { لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا } [الكهف : 90] من دون الشمس { سِتْرًا } أي أبنية عن كعب أرضهم لا تمسك الأبنية وبها سرداب فإذا طلعت الشمس دخلوها فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم أو الستر اللباس عن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض

جزء : 3 رقم الصفحة : 41

{ كَذَالِكَ } أي أمر ذي الفرنين كذلك أي كما وصفناه تعظيماً لأمره { وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ } [الكهف : 91] من الجنود والآلات وأسباب الملك { خُبْرًا } نصب على المصدر لأن في أحطنا معنى خبرنا أو بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أي كما بلغ مغربها أو تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم يعني أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ } بين الجبلين وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما.

السَّدين وسَداً مكي وأبو عمرو وحفص السُّدين وسدا حمزة وعلي وبضمهما غيرهم قيل ما كان مسدوداً خلقة فهو مضموم وما كان من عمل العباد فهو مفتوح وانتصب بين على أنه مفعول به لبلغ كما انجر بالإضافة في هذا فراق بيني وبينك وكما ارتفع في لقد تقطع بينكم لأنه من الظروف التي

تستعمل أسماء وظروفاً وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق { وَجَدَ مِن دُونِهِمَا } [الكهف : 93] من ورائهما { قَوْمًا } هم الترك { لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا } [الكهف : 93] أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها.

يُفقهون حمزة وعلى أن لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لأن لغتهم غريبة مجهولة { قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ } [الكهف : 94] هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وهمزهما عاصم فقط وهما من ولد يافث أو يأجوج من الترك ومأجوج من

42

الجيل والديلم { مُفْسِدُونَ فِى الارْضِ } [الكهف : 94] قيل كانوا يأكلون الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه ولا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وقيل هم على صنفين طوال مفرطو الطول وقصار مفرطو القصر { فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا } [الكهف : 94] خراجا حمزة وعلي أي جعلا نخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال { عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا } [الكهف : 94]

(29/3)

{ قَالَ } بالإدغام وبفكه مكي { مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ } [الكهف : 95] أي ما جعلني فيه مكيناً من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لي من الخراج فلا حاجة لي إليه { فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ } [الكهف : 95] بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات { أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا } [الكهف : 95] جداراً أو حاجزاً حصيناً موثقاً والردم أكبر من السد { زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى } [الكهف : 96] قطع الحديد والزبرة القطعة الكبيرة قيل حفر الأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سدما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافيخ حتى إذا صار كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى ، فاختلط والتصق بعضه وصار حبلا صلدا وقيل بعد ما بين السدين فإنه فرسخ { حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ } [الكهف : 96] بفتحتين جانبي الجبلين لأنها يتصادفان أي يتقابلان.

الصُّدَفين مكى وبصرى وشامي.

الصُّدْفين أبو بكر { قَالَ انفُخُوا } [الكهف : 96] أي قال : ذو القرنين للعملة انفخوا في الحديد { حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ } [الكهف : 96] أي المنفوخ فيه وهو الحديد { نَارًا } كالنار { قَالَ ءَاتُونِى } [الكهف : 96] أعطوني { أُفْرِغْ } أصب { عَلَيْهِ قِطْرًا } [الكهف : 96] نحاساً مذاباً لأنه يقطر وهو منصوب بأفرغ وتقديره آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً فحذف الأول لدلالة الثاني عليه قال : ائتوني بوصل

43
الألف حمزة وإذا ابتدأ كسر الألف أي جيئوني
جزء : 3 رقم الصفحة : 43
{ فَمَا اسْطَاعُوا } [الكهف : 97] بحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء { أَن يَظْهَرُوهُ } [الكهف : 97] أن يعلوا السد { وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا } [الكهف : 97] أي لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه ولا نقب لصلابته { قَالَ هَاذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى } [الكهف : 98] أي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى } [الكهف : 98] فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي { جَعَلَهُ } أي السد { دَكَّآءَ } أي مدكوكا مبسوطا مسوى بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك.
دكاء كوفي أي أرضاً مستوية { وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا } [الكهف : 98] آخر قول ذي القرنين { وَتَرَكْنَا } وجعلنا { بَعْضَهُمْ } بعض الخلق { يَوْمَاإِذٍ يَمُوجُ } [الكهف : 99] يختلط { فِى بَعْضٍ } [محمد : 26] أي يطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد وروي أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة بيت المقدس ثم يبعث الله نغفا في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون { وَنُفِخَ فِى الصُّورِ } [ق : 20] لقيام الساعة { فَجَمَعْنَاهُمْ } أي جمع الخلائق للثواب والعقاب { جَمْعًا } تأكيد { وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَاإِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا } [الكهف : 100] وأظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها { الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى } [الكهف : 101] عن آياتي التي ينظر إليها أو عن القرآن فأذكره بالتعظيم أو عن القرآن وتأمل معانيه { وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا } [الكهف : 101] أي
44
وكانوا صما عنه إلا أنه أبلغ إذا الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع
جزء : 3 رقم الصفحة : 44

(30/3)

{ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَآءَ } [الكهف : 102] أي أفظن الكفار اتخاذهم عبادي يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام أولياء نافعهم بئس ما ظنوا وقيل أن بصلتها سد مسد مفعولي أفحسب وعبادي أولياء مفعولاً أن يتخذوا وهذا أوجه يعني أنهم لا يكونون لهم أولياء { إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلا } [الكهف : 102] هو ما يقام للنزيل وهو الضيف ونحوه فبشرهم

بعذاب أليم { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالاخْسَرِينَ أَعْمَالا } [الكهف : 103] أعمالاً تمييز وإنما جمع والقياس أن يكون مفرداً لتنوع الأهواء وهم أهل الكتاب أو الرهبان { الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ } [الكهف : 104] ضاع وبطل وهو في محل الرفع أي هم الذين { الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَواةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ } [الكهف : 104] { أُولئك الَّذِينَ كَفَرُوا بِاَايَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآ ائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } [الكهف : 105] فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار { ذَالِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ } [الكهف : 106] هي عطف بيان لجزاؤهم { بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِى وَرُسُلِى هُزُوًا } [الكهف : 106] أي جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسوله { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا } [الكهف : 30] حال { لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا } [الكهف : 108] تحولاً إلى غيرها رضا بما أعطوا يقال حال من مكانه حولاً أي لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم وهذه غاية الوصف لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح مائل الطرف إلى أرفع منه أو المراد نفي التحول وتأكيد الخلود

45

جزء : 3 رقم الصفحة : 45

{ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ } [الكهف : 109] أي ماء البحر { مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى } [الكهف : 109] قال أبو عبيدة المداد : ما يكتب به أي لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مداداً لها والمراد بالبحر الجنس { لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ } [الكهف : 109] بمثل البحر { مَدَدًا } لنفد أيضاً والكلمات غير نافدة ومدداً تمييز نحو لي مثلة رجلاً والمدد مثل المداد وهو ما يمد به.

ينفد حمزة وعلي ، وقيل قال : حيي بن أخطب في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ثم تقرؤون وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً فنزلت يعني أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله { قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَاهُكُمْ إِلَاهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } [فصلت : 6] فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول أو فمن كان يخاف سوء لقاء ربه والمراد باللقاء القدوم عليه وقيل رؤيته كما هو حقيقة اللفظ والرجاء على هذا مجرى على حقيقته { فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا } [الكهف : 110] خالصاً لا يريد به إلا وجه ربه ولا يخلط به غيره وعن يحيى بن معاذ هو ما لا يستحي منه { وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا } [الكهف : 110] هو نهي عن الشرك أو عن الرياء قال صلى الله عليه وسلّم : " اتقوا الشرك الأصغر " قالوا : وما الشرك الأصغر قال : " الرياء " قال صلى الله عليه وسلّم : " من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون فإن يخرج الدجال في تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجال ، ومن قرأ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ إلى آخرها عند مضجعه كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه وإن كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ "

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.
46
سورة مريم عليها السلام
مكية ، وهي ثمان أو تسع وتسعون أية مدني وشامي)

(31/3)

{ كاهيعاص } قال السدي : هو اسم الله الأعظم وقيل هو اسم للسورة قرأ علي ويحيى بكسر الهاء والياء ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء وحمزة بعكسه وغيرهم بفتحهما { ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبّكَ } [مريم : 2] خبر مبتدأ أي هذا ذكر { عَبْدَهُ } مفعول الرحمة { زَكَرِيَّآ } بالقصر حمزة وعلي وحفص وهو بدل من عبده { إِذِ } ظرف للرحمة { نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا } [مريم : 3] دعاه دعاء سرا كما هو المأمور به وهو أبعد عن الرياء وأقرب إلى الصفاء أو أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في أوان الكبر لأنه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة { قَالَ رَبِّ } [آل عمران : 41] هذا تفسير الدعاء وأصله يا ربي فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصاراً { إِنّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنّى } [مريم : 4] ضعف وخص العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية والمراد أن هذا
47
الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا } [مريم : 4] تمييز أي فشا في رأسي الشيب واشتعلت النار إذا تفرقت في إلتهابها وصارت شعلاً فشبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في الشعر وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ولا ترى كلاماً أفصح من هذا ألا ترى أن أصل الكلام يا رب قد شخت إذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما وأقوى منه ضعف بدني وشاب رأسي ففيه مزيد التقرير للتفصيل ، وأقوى منه وهنت عظام بدني ففيه عدول عن التصريح إلى الكناية فهي أبلغ منه وأقوى منه وأنا وهنت عظام بدني وأقوى منه إني وهنت عظام بدني وأقوى منه إني وهنت العظام من بدني ففيه سلوك طريقي الإجمال والتفصيل وأقوى منه إني وهنت العظام مني ففيه ترك توسيط البدن وأقوى منه إني وهن العظم مني لشمول الوهن العظام فرداً فرداً باعتبار ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحه حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد ولهذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهي الاستعارة فحصل اشتعل شيب رأسي وأبلغ منه اشتعل رأسي شيباً لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لإفادة شمول الاشتعال الرأس إذ وزان اشتعل شيب رأسي واشتعل رأسي شيباً وزان

اشتعل النار في بيتي واشتعل بيتي ناراً والفرق نير ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز وأبلغ منه واشتعل الرأس مني شيباً لما مر وأبلغ منه واشتعل الرأس شيباً ففيه اكتفاء بعلم المخاطب إنه رأس زكريا بقرينة العطف على وهن العظم

جزء : 3 رقم الصفحة : 47

{ وَلَمْ أَكُن بِدُعَآ ئِكَ } [مريم : 4] مصدر مضاف إلى المفعول أي بدعائي إياك { رَبِّ شَقِيًّا } [مريم : 4] أي كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم سعيداً به غير شقي فيه يقال سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها وشقي إذا خاب ولم ينلها وعن بعضهم أن محتاجاً سأله وقال : أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا فقال : مرحباً بمن توسل بنا إلينا وقت حاجته وقضى حاجته

جزء : 3 رقم الصفحة : 47

{ وَإِنّي خِفْتُ الْمَوَالِىَ } [مريم : 5] هم عصبته أخوته وبنو عمه وكانوا شرار بني إسرائيل فخافهم أن يغيروا الدين وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته فطلب عقباً صالحاً

48

من صلبه يقتدي به في إحياء الدين { مِن وَرَآءِى } [مريم : 5] بعد موتي وبالقصر وفتح الياء كهداي مكى وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لأن وجود خوفه بعد موته لا يتصور ولكن بمحذوف أو بمعنى الولاية في الموالي أي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي ، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائي { وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا } [مريم : 5] عقيماً لا تلد { فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ } [مريم : 5] اختراعا منك بلا سبب لأن امرأتي لا تصلح للولادة { وَلِيًّا } ابنا يلي أمرك بعدي

جزء : 3 رقم الصفحة : 48

{ يَرِثُنِى وَيَرِثُ } [مريم : 6] برفعهما صفة لولياً أي هب لي ولداً وارثاً مني العلم ومن آل يعقوب النبوة ومعنى وراثة النبوة أنه يصلح لأنه يوحى إليه ولم يرد أن نفس النبوة تورث وبجزمهما أبو عمرو وعلي على أنه جواب للدعاء يقال ورثته وورثت منه { مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ } [مريم : 6] يعقوب بن إسحاق { وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا } [مريم : 6] مرضياً ترضاه أو راضياً عنك وبحكمك فأجاب الله تعالى دعاءه وقال : { رَضِيًّا * يَازَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى } تولى الله تسميته تشريفاً له.

نبشرك بالتخفيف حمزة { لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا } [مريم : 7] لم يسم أحد بيحيى قبله وهذا دليل على أن الإسم الغريب جدير بالأثرة وقيل مثلاً وشبيها ولم يكن له مثل في أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد بين شيخ وعجوز وأنه كان حصوراً فلما بشرته الملائكة به { قَالَ رَبِّ إِنّى } [الشعراء : 12] كيف { يَكُونُ لِي غُلَامٌ } [آل عمران : 40] وليس هذا باستبعاد بل هو استكشاف أنه

بأي طريق يكون أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال أم يحولان شابين { وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا } [مريم : 8] أي بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود اليابس من أجل الكبر والطعن في
49
السن العالية عتياً وصلياً وجثياً وبكياً بكسر الأوائل حمزة وعلي وحفص إلا في بكيا
جزء : 3 رقم الصفحة : 49
{ قَالَ كَذَالِكَ } [طه : 126] الكاف رفع أي الأمر كذلك تصديق له ثم ابتدأ { قَالَ رَبُّكَ } [الذاريات : 30] أو نصب بقال وذلك إشارة إلى مبهم يفسره { هُوَ عَلَىَّ هَيّنٌ } [مريم : 9] أي خلق يحيى من كبيرين سهل { وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ } [مريم : 9] أو جدتك من قبل يحيى.
خلقناك حمزة وعلي { وَلَمْ تَكُ شيئا } [مريم : 9] لأن المعدوم ليس بشيء { قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّى ءَايَةً } [آل عمران : 41] علامة أعرف بها حبل امرأتي { قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّى ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلا } [مريم : 10] حال من ضمير تكلم أي حال كونك سوى الأعضاء واللسان يعني علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح ما بك خرس ولا بكم ودل ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن إذ ذكر الأيام يتناول ما بإزائها من الليالي وكذا ذكر الليالي يتناول ما بإزائها من الأيام عرفاً { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ } [مريم : 11] من موضع صلاته وكانوا ينتظرونه ولم يقدر أن يتكلم { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ } [مريم : 11] أشار بإصبعه { أَن سَبّحُوا } [مريم : 11] صلوا وأن هي المفسرة { بُكْرَةً وَعَشِيًّا } [مريم : 11] صلاة الفجر والعصر { وَلا يَحْيَى } أي وهبنا له يحيى وقلنا له بعد ولادته وأوان الخطاب يا يحيى { خُذِ الْكِتَابَ } [مريم : 12] التوراة { بِقُوَّةٍ } حال أي بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد { وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ } [مريم : 12] الحكمة وهو فهم التوراة والفقه في الدين { صَبِيًّا } حال قيل دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبي فقال : ما للعب خلقنا { وَحَنَانًا } شفقة ورحمة لأبويه وغيرهما عطفاً على الحكم { مّن لَّدُنَّا } [النساء : 67]
50
من عندنا { وَزَكَواةً } أي طهارة وصلاحاً فلم يعمل بذنب { وَكَانَ تَقِيًّا } [مريم : 13] مسلماً مطيعا
جزء : 3 رقم الصفحة : 50

{ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ } [مريم : 14] وباراً بهما لا يعصيهما { وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا } [مريم : 14] متكبراً { عَصِيًّا } عاصياً لربه { وَسَلَامٌ عَلَيْهِ } [مريم : 15] أمان من الله له { يَوْمَ وُلِدَ } [مريم : 15] من أن يناله الشيطان { وَيَوْمَ يَمُوتُ } [مريم : 15] من فتاني القبر { وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } [مريم : 15] من الفزع

الأكبر قال ابن عيينة : إنها أوحش المواطن { وَاذْكُرْ } يا محمد { فِى الْكِتَابِ } [مريم : 41] القرآن { مَرْيَمَ } أي اقرأ عليهم في القرآن قصة مريم ليقفوا عليها ويعلموا ما جرى عليها { إِذِ } بدل من مريم بدل اشتمال إذ الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه { انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا } [مريم : 16] أي اعتزلت { مَكَانًا } ظرف { شَرْقِيًّا } أي تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس أو من دارها معتزلة عن الناس وقيل قعدت في مشرقه للاغتسال من الحيض { فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا } [مريم : 17] جعلت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها لتغتسل وراءه { فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا } [مريم : 17] جبريل عليه السلام والإضافة للتشريف وإنا سمي روحاً لأن الدين يحيا به وبوحيه { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا } [مريم : 17] أي فتمثل لها جبريل في صورة آدمى شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر { سَوِيًّا } مستوى الخلق وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه { قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا } [مريم : 18] أي إن كان يرجى منك أن

تتقي الله فإني عائذة به منك

{ قَالَ } جبريل عليه السلام { إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ } [مريم : 19] أمنها مما خافت وأخبر أنه ليس بآدمى بل هو رسول من استعاذت به { لاهَبَ لَكِ } [مريم : 19] بإذن الله تعالى ، أو لأكون سببا في هبة الغلام بالنفخ في الروع ليهب لك أي الله ، أبو عمرو ونافع.

{ غُلَامًا زَكِيًّا } [مريم : 19] ظاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير والبركة { قَالَتْ إِنّى } [مريم : 18] كيف { يَكُونُ لِي غُلَامٌ } [آل عمران : 40] ابن { وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ } [آل عمران : 47] زوج بالنكاح { وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا } [مريم : 20] فاجرة تبغي الرجال أي تطلب الشهوة من أي رجل كان ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين ، والبغي فعول عند المبرد بغوي فقلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت العين إتباعاً ولذا لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق في امرأة صبور وشكور وعند غيره هي فعيل ولم تلحقها الهاء لأنها بمعنى مفعولة وإن كانت بمعنى فاعلة فهو قد يشبه به مثل إن رحمة الله قريب { قَالَ } جبريل { كَذَالِكَ } أي الأمر كما قلت : لم يمسسك رجل نكاحاً أو سفاحاً { قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيّنٌ } [مريم : 9] أي إعطاء الولد بلا أب عليَّ سهل { وَلِنَجْعَلَهُا ءَايَةً لِّلنَّاسِ } [مريم : 21] تعليل معلله محذوف أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك أو هو معطوف على تعليل مضمر أي لنبين به قدرتنا ولنجعله آية للناس أي عبرة وبرهاناً على قدرتنا { وَرَحْمَةً مّنَّا } [مريم : 21] لمن أمن به { وَكَانَ } خلق عيسى { أَمْرًا مَّقْضِيًّا } [مريم : 21] مقدراً مسطوراً في اللوح فلما أطمأنت إلى قوله دنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها { فَحَمَلَتْهُ } أي الموهوب وكانت سنها ثلاث عشرة سنة أو عشراً أو عشرين { فَانتَبَذَتْ بِهِ } [مريم : 22] اعتزلت وهو في بطنها والجار والمجرور

في موضع الحال ، عن ابن عباس رضي الله عنهما كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته
52
نبذته وقيل ستة أشهر وقيل سبعة وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى وقيل حملته في ساعة ووضعته في ساعة { مَكَانًا قَصِيًّا } [مريم : 22] بعيداً من أهلها وراء الجبل وذلك لأنها لما أحست بالحمل هربت من قومها مخافة اللإئمة
جزء : 3 رقم الصفحة : 52

(34/3)

{ فَأَجَآءَهَا } جاء بها وقيل ألجأها وهو منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء ألا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد { الْمَخَاضُ } وجمع الولادة { إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ } [مريم : 23] أصلها وكان يابسة وكان الوقت شتاء وتعريفها مشعر بأنها كانت نخلة معروفة وجاز أن يكون التعريف للجنس أي جذع هذه الشجرة كأنه تعالى أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب لأنه حرسة النفساء أي طعامها ثم { قَالَتْ } جزعاً مما أصابها { يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَاذَا } [مريم : 23-62] اليوم مِتُّ مدني وكوفي غير أبي بكر وغيرهم بالضم يقال مات يموت ومات بمات { وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا } [مريم : 23] شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر.
بفتح النون حمزة وحفص بالكسر غيرهما ومعناهما واحد وهو الشيء الذي حقه أن يطرح وينسى لحقارته { فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ } [مريم : 24] مَن أي الذي تحتها فمن فاعل وهو جبريل عليه السلام لأنِه كان بمكان منخفض عنها أو عيسى عليه السلام لأنه خاطبها من تحت ذيلها من تحتها مدني وكوفي سوى أبي بكر والفاعل مضمر وهو عيسى عليه السلام أو جبريل والهاء في تحتها للنخلة ولشدة ما لقيت سليت بقوله { أَلا تَحْزَنِى } [مريم : 24] لا تهتمي بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس وأن بمعنى أي { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ } [مريم : 24] بقربك أو تحت أمرك إن أمرته أن يجري حرى وإن أمرته أن يقف وقف { سَرِيًّا } نهراً صغيراً عند الجمهور وسئل النبي صلى الله عليه وسلّم عن السري فقال : هو الجدول وعن الحسن سيداً كريماً يعني عيسى عليه السلام وروي أن خالد بن صفوان قال : له إن العرب تسمى الجدول سرياً فقال الحسن : صدقت ورجع إلى قوله وقال : ابن عباس رضي
53
الله عنهما ضرب عيسى أو جبريل عليهما السلام بعقبه الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى النهر اليابس فاخضرت النخلة وأثمرت وأينعت ثمرتها فقيل لها
جزء : 3 رقم الصفحة : 53

حركي { أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ } [البقرة : 99] إلى نفسك { بِجِذْعِ النَّخْلَةِ } [مريم : 25] قال أبو علي : الباء زائدة أي هزي جذع النخلة { تُسَاقِطْ عَلَيْكِ } [مريم : 25] بإدغام التاء الأولى في الثانية مكى ومدني وشامي وأبو عمرو وعلي وأبو بكر والأصل تتساقط بإظهار التاءين وتساقط بفتح التاء والقاف وطرح التاء الثانية وتخفيف السين حمزة ويساقط بفتح الياء والقاف وتشديد السين يعقوب وسهل وحماد ونصير وتساقط حفص من المفاعلة وتُسقِطْ ويُسقِطْ وتَسقُطْ ويَسقُطْ التاء للنخلة والياء للجذع فهذه تسع قراءات { رُطَبًا } تمييز أو مفعول به على حسب القراءة { جَنِيًّا } طرياً وقالوا التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض من العسل { فَكُلِى } من الجني { وَاشْرَبِى } من السري { وَقَرِّى عَيْنًا } [مريم : 26] بالولد الرضى وعينا تمييز أي طيبي نفساً بعيسى وارفضي عنك ما أحزنك { فَإِمَّا } أصله إن ما فضمت إن الشرطية إلى ما وأدغمت فيها { تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا } [مريم : 26] أي فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك فقولي إني نذرت للرحمن صمتاً وإمساكاً عن الكلام وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب وقيل صياماً حقيقة وكان صيامهم فيه الصمت فكان إلتزامُه إلتزامَه وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن صوم الصمت فصار ذلك منسوخاً فينا وإنما أمرت أن تنذر السكوت لأن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرىء به ساحتها ولئلا تجادل

السفهاء وفيه دليل على أن السكوت عن السفيه واجب وما قُدعَ سفيه بمثل الإعراض ولا أطلق عنانه بمثل العراض وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة وقد تسمى الإشارة كلاماً وقولاً ألا ترى أن قول الشاعر في وصف القبور * وتكلمت عن أوجه تبلى * وقيل كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام أو سوغ لها هذا القدر بالنطق { فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا } [مريم : 26] آدميا

(35/3)

{ فَأَتَتْ بِهِ } [مريم : 27] بعيسى { قَوْمَهَا } بعد ما طهرت من نفاسها { تَحْمِلُهُ } حال منها أي أقبلت نحوهم حاملة إياه فلما رأوه معها { قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شيئا فَرِيًّا } [مريم : 27] بديعاً عجيباً والفري القطع كأنه يقطع العادة { فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ } وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بني إسرائيل أو هو أخو موسى عليه السلام وكانت من أعقابه وبينهما ألف سنة وهذا كما يقال يا أخا همدان أي يا واحداً منهم أو رجل صالح أو طالح من زمانها شبهوها به في الصلاح أو شتموها به { مَا كَانَ أَبُوكِ } [مريم : 28] عمران { امْرَأَ سَوْءٍ } [مريم : 28] زانياً { وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ } [مريم : 28] حنة { بَغِيًّا } زانية { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ } [مريم : 29] إلى عيسى أن يجيبهم وذلك أن عيسى عليه السلام قال

لها : لا تحزني وأحيلي بالجواب علي وقيل أمرها جبريل بذلك ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا و { قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ } [مريم : 29] حدث ووجد { فِى الْمَهْدِ } [مريم : 29] المعهود { صَبِيًّا } حال { قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ } [مريم : 30] ولما أسكتت بأمر الله لسانها الناطق أنطق الله لها اللسان الساكت حتى أعترف بالعبودية وهو ابن أربعين ليلة أو ابن يوم روى أنه أشار بسبابته وقال : بصوت رفيع إني عبد الله وفيه رد لقول النصارى

{ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى } [مريم : 30]

55

الإنجيل { وَجَعَلَنِى نَبِيًّا } [مريم : 30] روي عن الحسن أنه كان في المهد نبياً وكلامه معجزته وقيل معناه أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد

جزء : 3 رقم الصفحة : 55

{ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ } [مريم : 31] نفاعاً حيث كنت أو معلماً للخير { وَأَوْصَانِى } وأمرني { وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا } [مريم : 31] إن ملكت مالاً وقيل صدقة الفطر أو تطهير البدن ويحتمل وأوصاني بأن آمركم بالصلاة والزكاة { يُبْعَثُ حَيًّا } نصب على الظرف أي مدة حياتي { وَبَرًّا بِوَالِدَتِى } [مريم : 32] عطفاً على مباركاً أي باراً بها أكرمها وأعظمها { وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا } [مريم : 32] متكبراً { شَقِيًّا } عاقاً { وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ } [مريم : 33] يوم ظرف والعامل فيه الخبر وهو علي { وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا } [مريم : 33] أي ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إلي إن كان حرف التعريف للعهد وإن كان للجنس فالمعني وجنس السلام علي وفيه تعريض باللعنة على أعداء مريم وابنهالأنه إذا قال : وجنس السلام على فقد عرض بأن ضده عليكم إذ المقام مقام مناكرة وعناد فكان مئنة لمثل هذا التعريض { ذَالِكَ } مبتدأ { عِيسَى } خبره { ابْنُ مَرْيَمَ } [المائدة : 116] نعته أو خبر ثان أي ذلك الذي قال : إني كذا وكذا عيسى بن مريم لا كما قالت النصارى : إنه إله أو ابن الله { قَوْلَ الْحَقِّ } [مريم : 34] كلمة الله فالقول الكلمة والحق الله وقيل له كلمة الله لأنه ولد بقوله كن بلا واسطة أب وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من عيسى ونصبه شامي وعاصم على المدح أو على المصدر أي أقول قول الحق هو ابن مريم وليس بإله كما يدعونه { الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ } [مريم : 34] يشكون من المرية الشك أو يختلفون من المراء ، فقالت اليهود : ساحر كذاب وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة

56

جزء : 3 رقم الصفحة : 56

{ مَا كَانَ لِلَّهِ } [مريم : 35] ما ينبغي له { أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ } [مريم : 35] جيء بمن لتأكيد النفي { سُبْحَانَهُا } نزه ذاته عن اتخاذ الولد { إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [آل عمران : 47] بالنصب شامي أي كما قال : لعيسى كن فكان من غير أب ومن كان متصفاً بهذا كان منزها أن يشبه الحيوان الوالد { وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ } [مريم : 36] بالكسر شامي وكوفي على الابتداء وهو من كلام عيسى يعني كما أنا عبده فأنتم عبيده على وعليكم أن نعبده ومن فتح عطف على بالصلاة أي وأوصاني بالصلاة وبالزكاة وبأن الله ربي وربكم أو علقه بما بعده أي لأن الله ربي وربكم فاعبدوه { هَاذَا } الذي ذكرت { صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [البقرة : 142] فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً { فَاخْتَلَفَ الاحْزَابُ } [مريم : 37] الحزب الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها وهم ثلاث فرق نسطورية ويعقوبية وملكانية { مِن بَيْنِهِمْ } [الزخرف : 65] من بين أصحابه أو من بين قومه أو من بين الناس وذلك أن النصارى اختلفوا في عيسى حين رفع ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى قول ثلاثة كانوا عندهم أعلم أهل زمانهم وهم يعقوب ونسطور وملكان فقال يعقوب هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء وقال : نسطور كان ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه وقال : الثالث كذبوا كان عبداً مخلوقاً نبياً فتبع كل واحد منهم قوم { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا } [مريم : 37] من الأحزاب إذ الواحد منهم على الحق { مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [مريم : 37] هو يوم القيامة أو من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وأن تشهد عليهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 57

الملائكة والأنبياء وجوارحهم بالكفر أو من مكان الشهادة أو وقتها أو المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه وجعله عظيماً لفظاعة ما شهدوا به في عيسى { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا } [مريم : 38] الجمهور على أن لفظه أمر ومعناه التعجب والله تعالى لا يوصف بالتعجب ولكن المراد أن إسماعهم وإبصارهم جدير بأن يتعجب

57

منهما بعدما كانوا صما وعمياً في الدنيا قال قتادة : إن عموا وصموا عن الحق في الدنيا فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم ، وبهم مرفوع المحل على الفاعلية كأكرم بزيد فمعناه كرم زيد جداً { لَاكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ } [مريم : 38] أقيم الظاهر مقام المضمر أي لكنهم اليوم في الدنيا بظلمهم أنفسهم حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ووضعوا العبادة في غير موضعها { فِى ضَلَالٍ } [الرعد : 14] عن الحق { مُّبِينٍ } ظاهر وهو اعتقادهم عيسى إلهاً معبوداً مع ظهور آثار الحدث فيه إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 57

{ وَأَنذِرْهُمْ } خوفهم { يَوْمَ الْحَسْرَةِ } [مريم : 39] يوم القيامة لأنه يقع فيه الندم على مافات ، وفي الحديث " إذا رأوا منازلهم في الجنة أن لو آمنوا " { إِذِ } بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة وهو مصدر { قُضِىَ الامْرُ } [يوسف : 41] فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار { وَهُمْ

فِي غَفْلَةٍ } [الأنبياء : 1] هنا عن الاهتمام لذلك المقام { وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [مريم : 39] لا يصدقون به وهم وهم حالان أي وأنذرهم على هذا الحال غافلين غير مؤمنين { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الارْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا } [مريم : 40] أي نتفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهلك والفناء وذكر من لتغليب العقلاء { وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [مريم : 40] بضم الياء وفتح الجيم وفتح الياء يعقوب أي يردون فيجازون جزاءً وفاقاً { وَاذْكُرْ } لقومك { فِى الْكِتَابِ } [مريم : 41] القرآن { إِبْرَاهِيمَ } قصته مع أبيه { إِنَّهُ كَانَ صِدّيقًا نَّبِيًّا } [مريم : 41] بغير همز وهمزه نافع قيل الصادق المستقيم في الأفعال والصديق المستقيم في الأحوال فالصديق من أبنية المبالغة ونظيرة الضحيك والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله أي كان مصدقاً لجميع الأنبياء وكتبهم وكان نبياً في نفسه وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين إبراهيم وبين ما هو بدل منه وهو

{ إِذْ قَالَ } وجاز أن يتعلق إذا بكان أو بصديقاً نبياً أي كان جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات والمراد بذكر الرسول إياه وقصته في الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله واتل عليهم نبأ إبراهيم وإلا فالله عز وعلا هو ذاكره وموردة في تنزيله { لابِيهِ يَا أَبَتِ } [يوسف : 4] بكسر التاء وفتحها ابن عامر والتاء عوض من ياء الإضافة ولا يقال يا أبتي لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه { لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ } [مريم : 42] المفعول فيهما منسي غير منوي ويجوز أن يقدر أي لا يسمع شيئاً ولا يبصر شيئاً { وَلا يُغْنِى عَنكَ شيئا } [مريم : 42] يحتمل أن يكون شيئاً في موضع المصدر أي شيئاً من الإغناء وأن يكون مفعولاً به من قولك أغن عني وجهك أي بعد { شيئا * يَا أَبَتِ إِنّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ } الوحي أو معرفة الرب { مَا لَمْ يَأْتِكَ } [مريم : 43] ما في ما لا يسمع وما لم يأتك يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة { فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ } [مريم : 43] أرشدك { صِرَاطًا سَوِيًّا } [مريم : 43] مستقيماً { سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } لا تطعه فيما سوَّل من عبادة الصنم { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا } [مريم : 44] عاصياً { إِلَيْكَ لاقْتُلَكَ إِنّى أَخَافُ } قيل أعلم { أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مّنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مريم : 45] قرينا في النار تليه ويليك فانظر في نصيحته كيف راعي المجاملة والرفق والخلق الحسن كما أمر ففي الحديث " أوحى إلى إبراهيم إنك حليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار " فطلب منه أولاً العلة في خطابه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم

59
جزء : 3 رقم الصفحة : 59
الأنبياء كان محكوماً عليه بالغي المبين فكيف بمن يعبد حجراً أو شجراً لا يسمع ذكر عابده ولا يرى هيئات عبادته ولا يدفع عنه بلاء ولا يقضي له حاجة ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال : إن معي شيئاً من العلم ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي عصى الرحمن الذي جميع النعم منه أوقعك في عبادة الصنم وزينها لك فأنت عابده في الحقيقة ثم ربَّع بتخويفه سوء العاقبة وما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به وأن العذاب لاصق به بل قال : أخاق أن يمسك عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل كأنه قال : إني أخاف أن يصيبك نَفَيان من عذاب الرحمن وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب في نفسه وصدر كل نصيحة بقوله يا أبت توسلاً إليه واستعطافاً وإشعاراً بوجوب احترام الأب وإن كان كافراً فثم
جزء : 3 رقم الصفحة : 59
{ قَالَ } آزر توبيخاً { أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَاإِبْرَاهِيمُ } [مريم : 46-51] أي أترغب عن عبادتها فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيابني وقدم الخبر على المبتدأ لأنه كان أهم عنده { لَّاإِن لَّمْ تَنتَهِ } [مريم : 46] عن شتم الأصنام لأقتلنك بالرجام أو لأضربنك بها حتى تتباعد أو لأشتمنك { لارْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى } [مريم : 46] عطف على محذوف يدل عليه لأرجمنك تقديره فاحذرني واهجرني { مَلِيًّا } ظرف أي زماناً طويلاً من الملاوة { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ } [مريم : 47] سلام توديع ومتاركة أو تقريب وملاطفة ولذا وعده بالاستغفار بقوله : { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } [مريم : 47] سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة بأن يهديك للإسلام { إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا } [مريم : 47] ملطفاً بعموم النعم أو رحيماً أو مكرماً والحفاوة الرأفة والرحمة والكرامة
60
جزء : 3 رقم الصفحة : 60

(38/3)

{ وَأَعْتَزِلُكُمْ } أراد بالاعتزال المهاجرة من أرض بابل إلى الشام { وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [مريم : 48] أي ما تعبدون من أصنامكم { وَادْعُوا } وأعبد { رَبِّى } ثم قال : تواضعاً وهضماً للنفس ومعرضاً بشقاوتها بدعاء آلهتهم { عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا } [مريم : 48] أي كما شقيتم أنتم بعبادة

الأصنام { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [مريم : 49] فلما اعتزل الكفار ومعبودهم { وَهَبْنَا لَهُا إِسْحَاقَ } [مريم : 49] ولداً { وَيَعْقُوبَ } نافلة ليستأنس بهما { وَكُلا } كل واحد منهما { جَعَلْنَا نَبِيًّا } [مريم : 49] أي لما ترك الكفار الفجار لوجهه عوضه أولاداً مؤمنين أنبياء { وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا } [مريم : 50] هي المال والولد { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ } [مريم : 50] ثناء حسناً وهو الصلاة على إبراهيم وآل إبراهيم في الصلوات وعبر باللسان عما يوجد باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العطية { عَلِيًّا } رفيعاً مشهوراً { وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى ا إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا } [مريم : 51] كوفي : غير المفضل ، أي أخلصه الله واصطفاه ، ومخلصا غيرهم أي أخلص هو العبادة لله تعالى فهو مخلص بماله من السعادة بأصل الفطرة ومخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة { وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا } [مريم : 51] الرسول الذي معه كتاب من الأنبياء والنبي الذي ينبيء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع { وَنَادَيْنَاهُ } دعوناه وكلمناه ليلة الجمعة { مِن جَانِبِ الطُّورِ } [مريم : 52] هو جبل بين مصر ومدين { الايْمَنِ } من اليمين أي من ناحية اليمين والجمهور على أن المراد

أيمن موسى عليه السلام لأن الجبل لا يمين له والمعنى أنه حين أقبل من مدين يريد مصر نودي من الشجرة وكانت في جانب الجبل على يمين موسى عليه السلام { وَقَرَّبْنَاهُ } تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان { نَجِيًّا } حال أي مناجياً كنديم بمعنى منادم

{ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ } من أجل رحمتنا له وترؤفنا عليه { أَخَاهُ } مفعول { هَارُونَ } بدل منه { نَبِيًّا } حال أي وهبنا له نبوة أخيه وإلا فهارون كان أكبر سناً منه { وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ } [مريم : 54] هو ابن إبراهيم في الأصح { إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ } [مريم : 54] وافيه واعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يعود إليه فانتظره سنة في مكانه حتى عاد وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفي وقيل لم يعد ربه موعداً إلا أنجزه وإنما خصه بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له ولأنه المشهور من خصاله { وَكَانَ رَسُولا } [مريم : 51] إلى جرهم { نَبِيًّا } مخبراً منذراً { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ } [مريم : 55] أمته لأن النبي أبو أمته وأهل بيته وفيه دليل على أنه لم يداهن غيره { وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا } [مريم : 31] يحتمل أنه إنما خصت هاتان العبادتان لأنهما أما العبادات البدنية والمالية { وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا } [مريم : 55] قرئ مرضوا على الأصل { وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ } [مريم : 56] هو أخنوخ أول مرسل بعد آدم عليه السلام وأول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر في علم النجوم والحساب واتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل وقولهم سمى به لكثرة دراسته كتاب الله لا يصح لأنه لو كان إفعيلاً من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفاً فامتناعه من الصرف دليل العجمة { إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا } [مريم : 41] أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } [مريم : 57] هو شرف النبوة والزلفى عند

الله وقيل معناه رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلّم ليلة المعراج فيها وعن الحسن إلى
62
الجنة لا شيء أعلى من الجنة وذلك أنه حبب لكثرة عبادته إلى الملائكة فقال : لملك الموت أذقني الموت يهن عليّ ففعل ذلك بإذن الله فحيى وقال : أدخلني النار أزدد رهبة ففعل ثم قال : أدخلني الجنة أزدد رغبة ثم قال له : أخرج فقال : قد ذقت الموت وردت النار فما أنا بخارج من الجنة فقال الله عز وجل : بإذني فعل وبإذني دخل فدعه

(39/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 62

{ أولئك } إشارة إلى المذكورين في السورة من زكرياء إلى إدريس { الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّانَ } [النساء : 69] من للبيان لأن جميع الأنبياء منعم عليهم { مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ } [مريم : 58–31] من للتبعيض وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنه جد أبي نوح { وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } [مريم : 58] إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح لأنه ولد سام بن نوح { وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ } [مريم : 58] إسماعيل وإسحاق ويعقوب { وَإِسْرَاءِيلَ } أي ومن ذرية إسرائيل أي يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى لأن مريم من ذريته { وَمِمَّنْ } يحتمل العطف على من الأول والثانية { هَدَيْنَا } لمحاسن الإسلام { وَاجْتَبَيْنَآ } من الأنام أو لشرح الشريعة وكشف الحقيقة { أُولئك الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم } [مريم : 58] أي إذا تليت عليهم كتب الله المنزلة وهو كلام مستأنف إن جعلت الذين خبراً لأولئك وإن جعلته صفة له كان خبراً.

يتلى بالياء قتيبة لوجود الفاصل مع أن التأنيث غير حقيقي { خَرُّوا سُجَّدًا } [مريم : 58] سقطوا على وجوههم رغبةً { وَبُكِيًّا } باكين رهبة جمع باك كسجود وقعود في جمع ساجد وقاعد في الحديث " اتلوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا " وعن صالح المرى قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلّم في المنام فقال لي يا صالح : " هذه القراءة فأين البكاء " ويقول في سجود التلاوة سبحان ربي الأعلى ثلاثاً { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ } [مريم : 59] فجاء من بعد هؤلاء المفضلين { خَلْفٌ } أولاد سوء
63
وبفتح اللام لعقب الخير عن ابن عباس هم اليهود { فَخَلَفَ مِن } تركوا الصلاة المفروضة { وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ } [مريم : 59] ملاذ النفوس وعن عليّ رضي الله عنه من بني الشديد وركب المنظور ولبس المشهور وعن قتادة رضي الله عنه هو في هذه الأمة { فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } [مريم : 59] جزاء

غي وكل شر عند العرب غي وكل خير رشاد وعن ابن عباس وابن مسعود وهو واد في جهنم أعدّ للمصرين على الزنا وشارب الخمر وآكل الربا والعاق وشاهد الزور

جزء : 3 رقم الصفحة : 63

{ إِلا مَن تَابَ } رجع عن كفره { وَءَامَنَ } شرطه { وَعَمِلَ صَالِحًا } [طه : 82] بعد إيمانه { فَأُولَائِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } [النساء : 124] بضم الياء وفتح الخاء مكي وبصري وأبو بكر { وَلا يُظْلَمُونَ شيئا } [مريم : 60] أي لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم أو لا يظلمون شيئاً من الظلم { جَنَّاتِ } بدل من الجنة لأن الجنة تشمل على جنات عدن لأنها جنس أو نصب على المدح { عَدْنٍ } معرفة لأنها علم لمعنى العدن وهو الإقامة أو علم لأرض الجنة لكونها مقام إقامة { الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ } [مريم : 61] أي عباده التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما سبق ذكرهم ولأنه أضافهم إليه وهو للاختصاص وهؤلاء أهل الاختصاص { بِالْغَيْبِ } أي وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها { إِنَّهُ } ضمير الشأن أو ضمير الرحمن { كَانَ وَعْدُهُ } [مريم : 61] أي موعوده وهو الجنة { مَأْتِيًّا } أي هم يأتونها { لا يَسْمَعُونَ فِيهَا } [مريم : 62] في الجنة { لَغْوًا } فحشاً أو كذباً أو ما لا طائل تحته من الكلام وهو المطروح منه وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره التي لا تكليف فيها { إِلا سَلَامًا } [مريم : 62] أي لكن يسمعون سلاماً من الملائكة أو من يعضهم على بعض أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة فهو استثناء منقطع عند الجمهور وقيل معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة كان ظاهر من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } [مريم : 62] أي يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ثم لأنهم في النور أبداً وإنما

64

يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بإرخائها والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك وقيل أراد دوام الرزق كما تقوم أنا عند فلان بكرة وعشياً تريد الدوام

جزء : 3 رقم الصفحة : 64

{ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا } [مريم : 63] أي نجعلها ميراث أعمالهم يعني ثمرتها وعاقبتها وقيل يرثون المساكن التي كانت لأهل النار وآمنوا لأن الكفر موت حكماً { مَن كَانَ تَقِيًّا } [مريم : 63] عن الشرك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام قال : " يا جبريل ما منعك

أن تزورنا أكثر مما تزورنا " فنزل { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ } [مريم : 64] والتنزل على معنيين معنى النزول على مهل ومعنى النزول على الإطلاق والأول أليق هنا يعني أن نزولنا في الأحايين وقتاً غب وقت ليس إلا بأمر الله { لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَالِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا } [مريم : 64] أي له ما قدامنا وما خلفنا من الأماكن وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الملك ومشيئته وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الأحوال لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأني لنا أن نتقلب في ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه { رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } [مريم : 65] بدل من ربك أو خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السماوات والأرض ثم قال : لرسوله لما عرفت أنه متصف بهذه الصفات { فَاعْبُدْهُ } فاثبت على عبادته { وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ } [مريم : 65] أي اصبر على مكافأة الحسود ، لعبادة المعبود ، واصبر على المشاق ، لأجل عبادة الخلاق ، أي لتتمكن من الإتيان بها { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم : 65] شبيها ومثلاً أو هل يسمى أحد باسم الله غيره لأنه مخصوص بالمعبود بالحق أي إذا صح أن لا معبود توجه إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها

65

فت أبيَّ بن خلف عظماً وقال : أنبعث بعد ما صرنا كذلك فنزل :

جزء : 3 رقم الصفحة : 65

{ وَيَقُولُ الانسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا } والعامل في إذا ما دل عليه الكلام وهو أبعث أي إذا مامت أبعث وانتصابه بأخرج ممتنع لأن ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها فلا تقول اليوم لزيد قائم ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال وتؤكد مضمون الجملة فلما جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحل معنى الحال وما في إذا ماللتوكيد أيضاً فكأنه قال : أحقًّا إنا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك على وجه الاستنكار والاستبعاد وتقديم الظرف وإيلائه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء إنكارهم { أَوَلا يَذْكُرُ الانسَانُ } خفيف شامي ونافع وعاصم من الذكر والسائر بتشديد الذال والكاف وأصله يتذكر كقراءة أبيّ فأدغمت التاء في الذال أي أو لا يتدبر والواو عطفت لا يذكر على يقول ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعني أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر النشأة الأخرى فإن تلك أدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود وأما الثانية فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة وردها إلى ما كَانتَ عليه مجموعة بعد التفريق { أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ } [مريم : 67] من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه { وَلَمْ يَكُ شيئا } [مريم : 67] هو ذليل على ما بينا وعلى أن المعدوم ليس بشيء خلافاً للمعتزلة { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ } [مريم : 68] أي الكفار المنكرين للبعث { وَالشَّيَاطِينَ } الواو للعطف وبمعنى مع أوقع أي يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة وفي أقسام الله باسمه ومضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله { ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا

} [مريم : 68] حال جمع جاث أي بارك على الركب ووزنه فعول لأن أصله جثوو كسجود وساجد أي يعتلون من المحشر إلى شاطىء جهنم عتلا على حالهم التي كانوا عليها في الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم
66

(41/3)

جزء : 3 رقم الصفحة : 66
{ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ } [مريم : 69] طائفة شاعت أي تبعت غاوياً من الغواة { أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيًّا } [مريم : 69] جرأة أو فجوراً أي لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغي أعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم وقيل المراد بأشدهم عتياً الرؤساء لتضاعف جرمهم لكونهم ضلالاً ومضلين قال سيبويه : أيهم مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلته وهو هو من هو أشد حتى لو جيء به لأعرب بالنصب ، وقيل أيهم هو أشد وهذا لأن الصلة توضح الموصول وتبينه كما أن المضاف إليه يوضح المضاف ويخصصه فكما أن خذف المضاف إليه في من قبل يوجب بناء المضاف وجب أن يكون حذف الصلة أو شيء منها موجباً للبناء وموضعها نصب بننزع ، وقال الخليل : هي معربة وهو مبتدأ وأشد خبره وهو رفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن عتياً ويجوز أن يكون النزع واقعاً على من كل شيعة كقوله ووهبنا لهم من رحمتنا أي لننزعن بعض كل شيعة فكأن قائلاً قال : من هم فقيل أيهم أشد عتياً وعلى يتعلق بأفعل أي عتوهم أشد على الرحمن { ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا } [مريم : 70] أحق بالنار { صِلِيًّا } تمييز أو دخولا والباء تتعلق بأولى { وَإِن مِّنكُمْ } [مريم : 71] أحد { إِلا وَارِدُهَا } [مريم : 71] داخلها والمراد النار والورود : الدخول عند علي وابن عباس رضي لله عنهم وعليه جمهور أهل السنة لقوله تعالى : فأوردهم النار ولقوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ولقوله ثم تنجى الذين اتقوا إذ النجاة إنما تكون بعد الدخول لقوله عليه السلام : " الورود الدخول لا يبقي بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم وتقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي " ، وقيل الورود بمعنى الدخول لكنه يختص بالكفار لقراءة ابن عباس وإن منهم وتحمل القراءة
67
المشهورة على الإلتفات وعن عبد الله الورود الحضور لقوله تعالى : ولما ورد ماء مدين وقوله أولئك عنها مبعدون وأجيب عنه بأن المراد عن عذابها وعن الحسن وقتادة الورود المرور على الصراط لأن الصراط ممدود عليها فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار وعن مجاهد ورود المؤمن النار هو مس

الحمى جسده في الدنيا لقوله عليه السلام : " الحمى حظ كل مؤمن من النار " وقال رجل من الصحابة لآخر أيقنت بالورود قال : نعم قال : وأيقنت بالصدر قال : لا قال : قال : ففيم الضحك وفيم التثاقل { كَانَ عَلَى رَبّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا } [مريم : 71] أي كان ورودهم واجباً كائناً محتوماً والحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى به الموجب كقولهم ضرب الأمير

جزء : 3 رقم الصفحة : 67

{ ثُمَّ نُنَجّى } [مريم : 72] وعلي بالتخفيف { الَّذِينَ اتَّقَوا } [الأعراف : 201] عن الشرك وهم المؤمنون { وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } [مريم : 72] فيه دليل على دخول الكل لأنه قال : ونذر ولم يقل وندخل والمذهب أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لا محاله وقالت : المرجئة الخبيثة لا يعاقب لأن المعصية لا تضر مع الإسلام عندهم وقالت : المعتزلة يخلد { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا } [يونس : 15] أي القرآن { بَيّنَاتٍ } ظاهرات الإعجاز أو حججا وبراهين حال مؤكدة كقوله وهو الحق مصدقاً إذ آيات الله لا تكون إلا واضحة وحججاً { قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الأحقاف : 7] أي مشركو قريش وقد رجلوا شعورهم وتكلفوا في زيهم { لِلَّذِينَ ءَامَنُوا } [العنكبوت : 12] للفقراء ورؤوسهم شعثة وثيابهم خشنة { أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ } [مريم : 73] نحن أم أنتم { خَيْرٌ مَّقَامًا } [مريم : 73] بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان والمسكن وبالضم مكي وهو موضع الإقامة والمنزل { وَأَحْسَنُ نَدِيًّا } [مريم : 73] مجلسا يجتمع القوم فيه للمشاورة ومعنى الآية أن الله تعالى يقول إذا أنزلنا إية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبر فيها إلى الافتخار بالثروة والمال وحسن المنزل والحال فقال تعالى :

68

جزء : 3 رقم الصفحة : 68

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مّن قَرْنٍ } [مريم : 74] فكم مفعول أهلكنا ومن تبيين لإبهامها أي كثيراً من القرون أهلكنا وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم { هُمْ أَحْسَنُ } [مريم : 74] في محل النصب صفة لكم ألا ترى أنك لو تركت هم كان أحسن نصباً على الوصفية { أَثَاثًا } هو متاع البيت أو ماجد من الفرش منظراً وهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت ورياً بغير همز مشدداً نافع وابن عامر على قلب الهمزة ياء لسكونها وإنكسار ما قبلها ثم الإدغام أو من الرى الذي هو النعمة { وَرِءْيًا * قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَـالَةِ } [مريم : 75] الكفر { فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا } [مريم : 75] جواب من لأنها شرطية وهذا الأمر بمعنى الخبر أي من كفر مد له الرحمن يعني أمهله وأملى له في العمر ليزداد طغياناً وضلالاً كقوله تعالى إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً وإنما أخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك وأنه

مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال { حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ } [مريم : 75] هي متصلة بقوله خير مقاماً وأحسن نديا وما بينهما اعتراض أي لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين { إِمَّا الْعَذَابَ } [مريم : 75] في الدنيا وهو تعذيب المسلمين إياهم بالقتل والأسر { وَإِمَّا السَّاعَةَ } [مريم : 75] أي القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال فهما بدلان مما يوعدون { فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا } [مريم : 75] منزلاً { وَأَضْعَفُ جُندًا } [مريم : 75] أعواناً وأنصاراً أي فحينئذ يعلمون أن الأمر على عكس ما قدروه وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً لا خير مقاماً وأحسن نديا وأن المؤمنين على خلاف صفتهم وجاز أن تتصل بما يليها والمعنى إن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم لا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة وحتى هي التي يحكى بعدها الجمل ألا ترى أن الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله إذا رأوا ما يوعدون.

فسيعلمون

جزء : 3 رقم الصفحة : 69

{ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوا هُدًى } [مريم : 76] معطوف على موضع فليمدد لوقوعه موضع الخبر تقديره من كان في الضلالة مد أو يمد له الرحمن ويزيد أي يزيد في

69

ضلال الضال بخذلانه ويزيد المهتدين أي المؤمنين هدى ثباتاً على الاهتداء أو يقينا وبصيرة بتوفيقه { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } [الكهف : 46] أعمال الآخرة كلها أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر { خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا } [الكهف : 46] مما يفتحر به الكافر { وَخَيْرٌ مَّرَدًّا } [مريم : 76] أي مرجعاً وعاقبة تهكم بالكفار لأنهم قالوا للمؤمنين أي الفرقين خير مقاماً وأحسن نديا

جزء : 3 رقم الصفحة : 69

{ أَفَرَءيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِـَايَاتِنَا وَقَالَ لاوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا } [مريم : 77] ثم.

وبضم الواو وسكون اللام في أربعة مواضع ههنا وفي الزخرف ونوح حمزة وعلى جمع ولد كأسد في أسد أو بمعنى الولد كالعرب في العرب ولما كانت رؤية الأشياء طريقاً إلى العلم بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت في معنى أخبر والفاء أفادت التعقيب كأنه قال : أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك وقوله لأوتين جواب قسم مضمر { أَطَّلَعَ الْغَيْبَ } [مريم : 78] من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه ، الهمزه للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة أي أنظر في اللوح

المحفوظ فرأى منيته { أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا } [مريم : 78] مؤثقاً أن يؤتيه ذلك أو العهد كلمة الشهادة وعن الحسن نزلت في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل فقد روي أن خباب بن الأرت صاغ للعاص بن وائل حلياً فاقتضاه الأجر فقال : إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن في الجنة ذهباً وفضة فأنا أقضيك ثم فإني أوتى مالاً وولداً حينئذ { كَلا } ردع وتنبيه على الخطأ أي هو مخطىء فيما تصوره لنفسه فليرتدع عنه { سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ } [مريم : 79] أي قوله والمراد سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله لأنه كما قال : كتب من غير تأخير قال الله تعالى : { مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18] وهو كقوله * إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة * أي علم وتبين بالانتساب أني لست بابن لئيمة { وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ } [مريم : 79] نزيده من العذاب كما يزيد في الافتراء

70

والاجتراء من المدد ، يقال مده وأمده { مَدًّا } أكد بالمصدر لفرط غضبه تعالى

جزء : 3 رقم الصفحة : 70

{ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ } [مريم : 80] أي نزوي عنه ما زعم أنه يناله في الآخرة والمعنى مسمى ما يقول وهو المال والولد { وَيَأْتِينَا فَرْدًا } [مريم : 80] حال أي بلا مال ولا ولد كقوله ولقد جئتمونا فرادى فما يجدي عليه تمينه وتألبه { وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً } [مريم : 81] أي اتخذ هؤلاء المشركون أصناماً يعبدونها { لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا } [مريم : 81] أي ليعتزوا بآلهتهم ويكونوا لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب { كَلا } ردع لهم عما ظنوا { سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ } [مريم : 82] الضمير للآلهة أي سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون أو للمشركين أي ينكرون أن يكونوا قد عبدوها كقوله والله ربنا ما كنا مشركين { وَيَكُونُونَ } أي المعبودون { عَلَيْهِم } على المشركين { ضِدًّا } خصماً لأن الله تعالى ينطقهم فيقولون : يا رب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك والضد يقع على الواحد والجمع وهو في مقابلة لهم عزا والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أي يكونون عليهم ضدا لما قصدوه أي يكونون عليهم ذلاً لا لهم عزا وإن رجع الضمير في سيكفرون ويكونون إلى المشركين فالمعنى ويكونون عليهم أي أعداءهم ضداً أي كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها ثم عجب نبيه عليه السلام بقوله : { أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ } [مريم : 83] أي خليناهم وإياهم من أرسلت البعير أطلقته أوسلطناهم عليهم بالإغواء { تَؤُزُّهُمْ أَزًّا } [مريم : 83] تغريهم على المعاصي إغراء

71

والأز والهز إخوان ومعناهما التهييج وشدة الإزعاج

جزء : 3 رقم الصفحة : 71

{ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ } [مريم : 84] بالعذاب { إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا } [مريم : 84] أي أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء وقرأها ابن السماك عند المأمون فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا } [مريم : 85] ركبانا على نوق رحالها ذهب وعلى نجائب سروجها ياقوت { وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ } [مريم : 86] الكافرين سوق الأنعام لأنهم كانوا أضل من الأنعام { إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا } [مريم : 86] عطاشا لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد المسير إلى الماء فيسمى به الواردون ، فالوفد جمع وافد كركب وراكب والورد جمع وارد ونصب يوم بمضمر أو يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يوصف أي اذكر يوم نحشر.

ذكر المتقون بأنهم يجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم والكافرون بأنهم يساقون إلى النار كانهم نعم عطاش تساق إلى الماء استخفافاً بهم { لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ } [مريم : 87] حال والواو إن جعل ضميراً فهو للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لأنهم على هذه القسمة ويجوز أن يكون علامة للجمع كالتي في أكلوني البراغيث والفاعل من اتخذ لأنه في معنى الجمع ومحل من اتخذ رفع على البدل من واو يملكون أو على الفاعلية أو نصب على تقدير حذف المضاف أي إلا شفاعة من اتخذ والمراد لا يمكلون أن يشفع لهم { إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا } [مريم : 87] بأن آمن.

في الحديث " من قال : لا إله إلا الله كان له عند الله عهد " وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : لأصحابه ذات يوم : " أيعجز أحدكم أن

يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً " قالوا : وكيف ذلك قال : " يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك وإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال : ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كان لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة " أو يكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به أي لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها

جزء : 3 رقم الصفحة : 72

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا } [مريم : 88] أي النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله { لَّقَدْ جِئْتُمْ شيئا إِدًّا } [مريم : 89] خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة وهو التفات أو أمر نبيه عليه السلام بأن يقول لهم ذلك ؛ والإد العجب أو العظيم المنكر والإدة الشدة وأدّني الأمر أثقلني وعظم عليّ أدًّا { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ } [الشورى : 5] تقرب وبالياء نافع وعليّ { يَتَفَطَّرْنَ } وبالنون بصري وشامي وحمزة

وخلف وأبو بكر.
الانفطار من فطره إذا شقه والتفطر من فطره إذا شققه { مِنْهُ } من عظم هذا القول { وَتَنشَقُّ الارْضُ } [مريم : 90] تنخسف وتنفصل أجزاؤها { وَتَخِرُّ الْجِبَالُ } [مريم : 90] تسقط { هَدًّا } كسراً أو قطعاً أو هدماً ، والهدة صوت الصاعقة من السماء وهو مصدر أي تهد هدّا من سماع قولهم أو مفعول له أو حال أي مهدودة { أَن دَعَوْا } [مريم : 91] لأن سموا ومحله جر بدل من الهاء في منه أو نصب مفعول له علل الخرور بالهد والهد يدعاء الولد للرحمن أو رفع فاعل هدا أي هدها دعاؤهم { أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا * وَمَا يَنابَغِى لِلرَّحْمَانِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا } انبغى مطاوع بغى إذ طلب أي ما يتأتي
73
له اتخاذ الولد وما يتطلب لو طلب مثلاً لأنه محال غير داخل تحت الصحة وهذا لأن اتخاذ الولد لحاجة ومجالسة وهو منزه عنهما وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره لأن أصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه ، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن

{ إِن كُلُّ مَن } [مريم : 93] نكرة موصوفة صفتها { فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [مريم : 93] وخبر كل { إِلا ءَاتِى الرَّحْمَانِ } [مريم : 93] ووحد آتى وآتيه حملاً على لفظ كل وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل أي يأتيه { عَبْدًا } حال أي خاضعاً ذليلاً منقاداً والمعنى ما كل من في السموات والأرض من الملائكة والناس إلا هو يأتي الله يوم القيامة مقراً بالعبودية والعبودية والبنوة تتنافيان حتى لو ملك لأب ابنه يعتق عليه ونسبة الجميع إليه نسبة العبد إلى المولى فكيف يكون البعض ولداً والبعض عبداً وقرأ ابن مسعود آت الرحمن على أصله قبل الإضافة { لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا } [مريم : 94] أي حصرهم بعلمه وأحاط بهم { وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا } [مريم : 95] أي كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا ما ولا ولد أو بلا معين ولا ناصر { إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا } [مريم : 96] مودة في قلوب العباد قال : الربيع يحببهم ويحببهم إلى الناس وفي الحديث يعطى المؤمن مِقَةً في قلوب الأبرار ومهابة في قلوب الفجار وعن قتادة وهرم ما
74
أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه وعن كعب ما يستقر لعبد ثناء في الأرض حتى يستقر له في السماء

جزء : 3 رقم الصفحة : 74

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ } [مريم : 97] سهلنا القرآن { بِلِسَانِكَ } بلغتك حال { لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ } [مريم : 97] المؤمنين { وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا } [مريم : 97] شداداً في الخصومة بالباطل أي الذين يأخذون في كل لديد أي شق من المراء والجدال جمْع ألدّ يَراد به أهل مكّة { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ } [مريم : 74] تخويف لهم وإنذار { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ } [مريم : 98] أي هل تجد أو ترى أو تعلم والإحساس الإدراك بالحاسة { أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا } [مريم : 98] صوتاً خفياً ومنه الركاز أي لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يرى ولا صوت يسمع يعني هلكوا كلهم فكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم.

75

سورة طه

مكية ، وهي مائة وخمس وثلاثون آية كوفي)

{ طه } فخم الطاء لاستعلائها وأمال الهاء ، أبو عمرو ، وأمالهما حمزة وعلي وخلف وأبو بكر ، وفخمهما على الأصل غيرهم.

وما روي عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم أن معناه يا رجل فإن صح فظاهر وإلا فالحق ما هو المذكور في سوة البقرة { مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ } [طه : 2] إن جعلت { طه } تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام ، وإن جعلتها اسماً للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهي في موضع المبتدأ ، و { الْقُرْءَانَ } ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن وأن يكون جواباً لها وهي قسم { لِتَشْقَى } لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا ، أو بقيام الليل فإنه روي أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقاً أي ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة { إِلا تَذْكِرَةً } [طه : 3] استثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة أو حال

76

{ لِّمَن يَخْشَى } [طه : 3] لمن يخاف الله أو لمن يئول أمره إلى الخشية.

جزء : 3 رقم الصفحة : 76

{ تَنزِيلا } بدل من { تَذْكِرَةً } إذا جعل حالاً ويجوز أن ينتصب بـ " نزل " مضمراً أو على المدح أو بـ { يَخْشَى } مفعولاً أي أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله { مِّمَّنْ خَلَقَ الارْضَ وَالسَّمَاوَاتِ } [طه : 4] { مِنْ } يتعلق بـ { تَنزِيلا } صلة له { الْعُلَى } جمع العليا تأنيث الأعلى ووصف السماوات بالعلى

دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها { الرَّحْمَانُ } رفع على المدح أي هو الرحمن { عَلَى الْعَرْشِ } [طه : 5] خبر مبتدأ محذوف { اسْتَوَى } استولى.
عن الزجاج ، ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره.
وقيل : لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقال استوى فلان على العرش أي ملك وإن لم يعقد على السرير البتة وهذا كقولك " يد فلان مبسوطة " أي جواد وإن لم يكن له يد رأساً ، والمذهب قول علي رضي الله عنه : الاستواء غير مجهول والتكييف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة لأنه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان.
{ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الارْضِ } [البقرة : 255] خبر ومبتدأ ومعطوف { وَمَا بَيْنَهُمَا } [الروم : 8] أي ذلك كله ملكه { وَمَا تَحْتَ الثَّرَى } [طه : 6] ما تحت سبع الأراضين أو هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة { وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ } [طه : 7] ترفع صوتك { فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ } [طه : 7] ما أسررته إلى غيرك { وَأَخْفَى } منه وهو ما أخطرته ببالك أو ما أسررته في نفسك وما ستسره فيها { اللَّهُ لا إِلَاهَ إِلا هُوَ لَهُ الاسْمَآءُ الْحُسْنَى } [طه : 8] أي هو واحد بذاته وإن افترقت عبارات صفاته رد لقولهم إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى والحسنى تأنيث الأحسن.
جزء : 3 رقم الصفحة : 77
{ وَهَلْ } أي وقد { أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى } [طه : 9] خبره قفاه بقصة موسى عليه السلام
77
ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى.
جزء : 3 رقم الصفحة : 77
{ إِذْ رَءَا } [طه : 10] ظرف لمضمر أي حين رأى { نَارًا } كان كيت وكيت أو مفعول به لاذكر.
روي أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً في الخروج إلى أمه وخرج بأهله فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة ، وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فرأى عند ذلك ناراً في زعمه وكان نوراً { فَقَالَ لاهْلِهِ امْكُثُوا } [طه : 10] أقيموا في مكانكم { إِنّى ءَانَسْتُ } [النمل : 7] أبصرت { نَارًا } والإيناس رؤية شيء يؤنس به { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى } [القصص : 29] بنى الأمر على الرجاء لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به { بِقَبَسٍ } نار مقتبسة في رأس عود أو فتيله { أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى } [طه : 10] ذوي هدى أو قوماً يهدونني الطريق.
ومعنى الاستعلاء في { عَلَى النَّارِ } [البقرة : 175] أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها.
{ فَلَمَّآ أَتَاهَا } [القصص : 30] أي النار وجد ناراً بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها ، وكانت شجرة العناب أو العوسج ولم يجد عندها أحداً.
وروي أنه كلما طلبها بعدت عنه فإذا تركها قربت منه فثم { نُودِىَ } موسى { وَقَالَ مُوسَى إِنّى } بكسر الهمزة أي نودي فقيل { وَقَالَ مُوسَى إِنّى } أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته ،

وبالفتح : مكي وأبو عمرو أي نودي بأني { أَنَا رَبُّكَ } [طه : 12] { إِنَّآ } مبتدأ أو تأكيد أو فصل وكرر الضمير لتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة.
روي أنه لما نودي يا موسى قال : من المتكلم؟ فقال الله عز وجل : { أَنَا رَبُّكَ } [طه : 12].
فعرف أنه كلام الله عز وجل بأنه سمعه من جميع جهاته الست وسمعه بجميع أعضائه.
{ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ } [طه : 12] انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادي المقدس ، أو لأنها كانت من جلد حمار ميت غير مدبوغ ، أو لأن الحفوة تواضع لله ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين ، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما وألقاهما من وراء الوادي { إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ } [طه : 12] المطهر أو المبارك { طُوًى } حيث كان منوّن : شامي

(47/3)

وكوفي لأنه اسم علم للوادي وهو بدل منه ، وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة.
وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين.

{ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ } [طه : 13] اصطفيتك للنبوة ، { وَأَنَا } حمزة { اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى } [طه : 13] إليك للذي يوحى أو للوحي ، واللام يتعلق بـ { اسْتَمَعَ } أو بـ { اخْتَرْتُكَ } { إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَـاهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِى } [طه : 14] وحدني وأطعني { إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ } [طه : 14] لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار أو لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها ، أو لأن أذكرك بالمدح والثناء ، أو لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري ، أو لتكون لي ذاكراً غير ناس ، أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة لقوله : { فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَواةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا } [النساء : 103] (النساء : 301).
وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها وذا يصح بتقدير حذف المضاف أي لذكر صلاتي ، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها.
{ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ } [طه : 15] لا محالة { أَكَادُ } أريد عن الأخفش وقيل صلة { أُخْفِيهَا } قيل : هو من الأضداد أي أظهرها أو أسترها عن العباد فلا أقول هي آتية لإرادتي إخفاءها ، ولولا ما في الأخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها في كل وقت لما أخبرت به { لِتُجْزَى } متعلق بـ { ءَاتِيَةٌ } { كُلُّ نَفْس بِمَا تَسْعَى } [طه : 15] بسعيها من خير أو شر { فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا } [طه : 16] فلا يصرفنك عن العمل للساعة أو عن إقامة الصلاة أو عن الإيمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به أمته { مَن لا يُؤْمِنُ بِهَا } [طه : 16] لا يصدق بها { وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } [طه : 16] في مخالفة أمره { فَتَرْدَى } فتهلك { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ

يَامُوسَى } " ما " مبتدأ و { تِلْكَ } خبره وهي بمعنى هذه
79
و { بِيَمِينِكَ } حال عمل فيها معنى الإشارة أي قارة أو مأخوذة بيمينك.
أو { تِلْكَ } موصول صلته { بِيَمِينِكَ } والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت ، أو للتوطين لئلا يهوله انقلابها حية ، أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة
جزء : 3 رقم الصفحة : 79
{ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا } [طه : 18] أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة { وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي } [طه : 18] أخبط ورق الشجر على غنمي لتأكل { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ } [طه : 18] . { وَلِيَ } . حفص جمع مأربة بالحركات الثلاث وهي الحاجة { أُخْرَى } والقياس أخر.
وإنما قال { أُخْرَى } رداً إلى الجماعة أو لنسق الآي وكذا { الْكُبْرَى } ولما ذكر بعضها شكراً أجمل الباقي حياء من التطويل ، أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد في الإكرام.
والمآرب الأخر أنها كانت تماشيه وتحدثه وتحارب العدو والسباع وتصير رشاء فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلواً وتكونان شمعتين بالليل وتحمل زاده ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب ، وكانت تقيه الهوام.
والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكراً ، أو لأنها جواب سؤال آخر لأنه لما قال { هِيَ عَصَايَ } [طه : 18] قيل له : ما تصنع بها فأخذ يعدد منافعها.
{ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى } اطرح عصاك لتفزع مما تتكيء عليه فلا تسكن إلا بنا وترى فيها كنه ما فيها من المآرب فتعتمد علينا في المطالب { فَأَلْقَاهَا } فطرحها { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } [طه : 20] تمشي سريعاً قيل انقلبت ثعباناً يبتلع الصخر والشجر ، فلما رآها تبتلع كل شيء خاف.
وإنما وصفت بالحية هنا وبالثعبان ـ وهو العظيم من الحيات وبالجان وهو الدقيق ـ في غيرها لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير ، وجاز أن تنقلب حية صفراء دقيقة ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعباناً فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها ، أو لأنها كانت
80

(48/3)

في عظم الثعبان وسرعة الجان.
وقيل : كان بين لحييها أربعون ذراعاً.
ولما { قَالَ } له ربه { خُذْهَا وَلَا تَخَفْ } [طه : 21] بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده في فمها وأخذ

بلحييها { سَنُعِيدُهَا } سنردها { سِيَرتَهَا الاولَى } [طه : 21] تأنيث الأول ، والسيرة : الحالة التي يكون عليها الإنسان غريزية كانت أو مكتسبة وهي في الأصل فعلة من السير كالركبة من الركوب ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة.

وانتصبت على الظرف أي سنعيدها في طريقتها الأولى أي في حال ما كانت عصا.

والمعنى نردها عصاً كما كانت ، وأرى ذلك موسى عند المخاطبة لئلا يفزع منها إذا انقلبت حية عند فرعون ، ثم نبه على آية أخرى فقال.

جزء : 3 رقم الصفحة : 80

{ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ } [طه : 22] إلى جنبك تحت العضد وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر سميا جناحين لأنه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران والمعنى أدخلها تحت عضدك { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ } [طه : 22] لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر { مِنْ غَيْرِ سُواءٍ } [طه : 22] برص { أُخْرَى * لِنُرِيَكَ } [طه : 22 ، 23] لنبوتك بيضاء وآية حالان معاً ومن غير سوء صلة بيضاء كقولك " ابيضت من غير سوء " وجاز أن ينتصب { ءَايَةً } بفعل محذوف يتعلق به لام.

{ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى } [طه : 23] أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى ، أو نريك بهما الكبرى من آياتنا أو المعنى فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى.

{ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } [طه : 24] جاوز حد العبودية إلى دعوى الربوبية ، ولما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي وعرف أنه كلف أمراً عظيماً يحتاج إلى صدر فسيح.

81

جزء : 3 رقم الصفحة : 80

{ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى } [طه : 25] وسعه ليحتمل الوحي والمشاق ورديء الأخلاق من فرعون وجنده { وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى } وسهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

واشرح لي صدري آكد من اشرح صدري لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل لأنه يقول اشرح لي ويسر لي علم أن ثمة مشروحاً وميسراً ثم رفع الإبهام بذكر الصدر والأمر { وَاحْلُلْ } افتح { عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى } [طه : 27] وكان في لسانه رتة للجمرة التي وضعها على لسانه في صباه ، وذلك أن موسى أخذ لحية فرعون ولطمه لطمة شديدة في صغره فأراد قتله فقالت آسية : أيها الملك إنه صغير لا يعقل فجعلت في طشت ناراً وفي طشت يواقيت ووضعتهما لدى موسى فقصد اليواقيت فأمال الملك يده إلى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه فاحترق لسانه فصار لكنة منها.

وروي أن يده احترقت واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال : إلى أي رب تدعوني؟ قال : إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها.

و { مِّن لِّسَانِى } [طه : 27] صفة لعقدة كأنه قيل : عقدة من عقد لساني ، وهذا يشعر بأنه لم تزل العقدة بكمالها وأكثرهم على ذهاب جميعها { يَفْقَهُوا قَوْلِي } [طه : 28] عند تبليغ الرسالة.
{ وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا } [طه : 29] ظهيراً اعتمد عليه من الوزر الثقل لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته ، أو من الوزر الملجأ لأن الملك يعتصم برأيه ويلتجيء إليه في أموره ، أو معيناً من الموازرة وهي المعاونة فـ
جزء : 3 رقم الصفحة : 82
{ وَزِيرًا } مفعول أول لـ { أَجَعَلَ } والثاني { مِّنْ أَهْلِى } [طه : 29] أو { وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا } مفعولاه وقوله { هَارُونَ } عطف بيان لـ { وَزِيرًا } وقوله { أَخِى } بدل أو عطف بيان آخر أو { وَزِيرًا } و { هَارُونَ } مفعولاه وقدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة { اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى } [طه : 31] قو به ظهري وقيل الأزر القوة
82

(49/3)

{ وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى } اجعله شريكي في النبوة والرسالة.
{ اشْدُدْ } و على حكاية النفس شامي على الجواب ، والباقون على الدعاء والسؤال { أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ } [طه : 33] نصلي لك وننزهك تسبيحاً { كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا } في الصلوات وخارجها { إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا } [طه : 35] عالماً بأحوالنا فأجابه الله تعالى حيث { قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى } أعطيت مسئوولك فالسؤل الطلبة فعل بمعنى مفعول كخبز بمعنى مخبوز.
بلا همز : أبو عمرو.
جزء : 3 رقم الصفحة : 82
{ مُبِينٌ * وَلَقَدْ مَنَنَّا } [الصافات : 114] أنعمنا { عَلَيْكَ مَرَّةً } [طه : 37] كرة { أُخْرَى } قبل هذه ثم فسرها فقال { إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى } [طه : 38] إلهاماً أو مناماً حين ولدت وكان فرعون يقتل أمثالك.
و { إِذْ } ظرف لـ { مَنَنَّا } ثم فسر ما يوحى بقوله { أَنِ اقْذِفِيهِ } [طه : 39] ألقيه { فِى التَّابُوتِ } [طه : 39] و { ءَانٍ } مفسرة لأن الوحي بمعنى القول { فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ } [طه : 39] النيل { فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ } [طه : 39] الجانب وسمي ساحلاً لأن الماء يسحله أي يقشره ، والصيغة أمر لمناسب ما تقدم ومعناه الإخبار أي يلقيه اليم بالساحل { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ } [طه : 39] يعني فرعون والضمائر كلها راجعة إلى موسى عليه السلام ، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يفضي إلى تناثر النظم والمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل وإن كان هو التابوت لكن موسى

في جوف التابوت.
روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه وقيرته ثم ألقته في اليم ، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فإذا بصبي أصبح الناس وجهاً
83
فأحبه فرعون حباً شديداً فذلك قوله { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى } [طه : 39] يتعلق { مِّنِّى } بـ يعني إني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب فما راه أحد إلا أحبه.
قال قتادة : كان في عيني موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه { مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ } [طه : 39] معطوف على محذوف تقديره وألقيت عليك محبة لتحب ولتصنع { عَلَى عَيْنِى } [طه : 39] أي لتربى بمرأى مني وأصله من صنع الفرس أي أحسن القيام عليه يعني أنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به { وَلِتُصْنَعَ } بسكون اللام والجزم : يزيد على أنه أمر منه.
جزء : 3 رقم الصفحة : 82
{ إِذْ تَمْشِى } [طه : 40] بدل من { إِذْ أَوْحَيْنَآ } [طه : 38] لأن مشي أخته كان منة عليه { أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ } [طه : 40] روي أن أخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدي امرأة فقالت : هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه فيربيه وأرادت بذلك المرضعة الأم.
وتذكير الفعل للفظ { مِنْ } ، فقالوا : نعم فجاءت بالأم فقبل ثديها وذلك قوله { فَرَجَعْنَاكَ } فرددناك { إِلَى أُمِّكَ } [طه : 40] كما وعدناها بقولنا { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ } [القصص : 7] (القصص : 7) { كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا } [طه : 40] بلقائك { وَلا تَحْزَنَ } [العنكبوت : 33] على فراقك { وَقَتَلْتَ نَفْسًا } [طه : 40] قبطياً كافراً { فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ } [طه : 40] من القود.
قيل الغم : القتل بلغة قريش وقيل : اغتم بسبب القتل خوفاً من عقاب الله تعالى ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له باستغفاره
جزء : 3 رقم الصفحة : 84
{ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى } [القصص : 16] (القصص : 61) ونجاه من فرعون بأن ذهب به من مصر إلى مدين { وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا } [طه : 40] ابتليناك ابتلاء بإيقاعك في المحن وتخليصك منها ، والفتون مصدر كالقعود أو جمع فتنة أي فتناك ضروباً من الفتن ، والفتنة المحنة وكل ما يبتلي الله به عباده فتنة { وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الأنبياء : 35] (الأنبياء : 53) { فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ } [طه : 40] هي بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر.
قال وهب : لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة ، عشر منها مهر لصفوراء ،
84

وأقام عنده ثمان عشرة سنة بعدها حتى ولد له أولاد.

{ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى } أي موعد ومقدار للرسالة وهو أربعون سنة { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى } [طه : 41] اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرف على إرادتي ومحبتي.

قال الزجاج : اخترتك لأمري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 84

{ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ } بمعجزاتي { بِاَايَاتِى وَلا تَنِيَا } [طه : 42] تفترا من الوني وهو الفتور والتقصير { فِى ذِكْرِى } أي اتخذا ذكري جناحاً تطيران به أو أريد بالذكر تبليغ الرسالة فالذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها { اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ } [طه : 43] كرر لأن الأول مطلق والثاني مقيد { إِنَّهُ طَغَى } [طه : 24] جاوز الحد بإدعائه الربوبية { فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا } [طه : 44] الطفا له في القول لما له من حق تربية موسى ، أو كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث : أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة.

أو عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع عنه إلا بالموت ، أو هو قوله { هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } (النازعات : 91) فظاهره الإستفهام والمشورة { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } [طه : 44] أي يتعظ ويتأمل فيذعن للحق { أَوْ يَخْشَى } [طه : 44] أي يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة.

وإنما قال { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } [طه : 44] مع علمه أنه لا يتذكر لأن الترجي لهما ، أي إذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرمن يطمع أن يثمر عمله.

وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة.

وقيل : معناه لعله يتذكر متذكر أو يخشى خاش وقد كان ذلك من كثير من الناس.

وقيل : { لَعَلَّ } من الله تعالى واجب وقد تذكر ولكن حين لم ينفعه التذكر.

وقيل : تذكر فرعون وخشي وأراد اتباع موسى فمنعه هامان وكان لا يقطع أمراً دونه.

وتليت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال : هذا رفقك بمن يقول أنا إله فكيف بمن قال أنت الإله؟ وهذا رفقك بمن قال أنا ربكم الأعلى فكيف بمن قال سبحان ربي الأعلى.

85

{ قَالا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ } [طه : 45] يعجل علينا بالعقوبة ومنه الفارط يقال فرط عليه أي عجل { أَوْ أَن يَطْغَى } [طه : 45] يجاوز الحد في الإساءة إلينا { قَالَ لا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 84

طه : 46] أي حافظكما وناصركما { أَسْمَعُ } أقوالكما { وَأَرَى } أفعالكما.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلاتهتما { فَأْتِيَاهُ } أي فرعون { فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ } [طه : 47] إليك { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ } [طه : 47] أي أطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق { وَلا تُعَذِّبْهُمْ } [طه : 47] بتكليف المشاق { قَدْ جِئْنَاكَ بِاَايَةٍ مِّن رَّبِّكَ } [طه : 47] بحجة على صدق ما ادعيناه ، وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى ـ وهي { إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ } [طه : 47] ـ مجرى البيان والتفسير والتفصيل لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها وهي المجيء بالآي فقال فرعون : وما هي؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس { وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى } [طه : 47] أي سلم من العذاب من أسلم وليس بتحية.

وقيل : وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين.

{ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ } [طه : 48] في الدنيا والعقبى { عَلَى مَن كَذَّبَ } [طه : 48] بالرسل { وَتَوَلَّى } أعرض عن الإيمان وهي أرجى آي القرآن لأنه جعل جنس السلام للمؤمن وجنس العذاب على المكذب وليس وراء الجنس شيء ، فأتياه وأديا الرسالة وقالا له ما أمرا به.

{ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى } خاطبهما ثم نادى أحدهما لأن موسى هو الأصل في النبوة وهارون تابعه { قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ } [طه : 50] { خَلْقَهُ } أول مفعولي { أَعْطَى } أي أعطى

(51/3)

خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، أو ثانيهما أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذا الأنف والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها ، وقرأ نصير { خَلْقَهُ } صفة للمضاف أو للمضاف إليه أي أعطى كل شيء مخلوق عطاء { ثُمَّ هَدَى } [طه : 50] عرف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة في الدنيا والسعادة في العقبى.

جزء : 3 رقم الصفحة : 84

{ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الاولَى } [طه : 51] فما حال الأمم الحالية والرمم البالية ، سأله عن حال من تقدم من القرون وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد { قَالَ } موسى مجيباً { عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى } [طه : 52] مبتدأ وخبر { فِي كِتَابٍ } [الانفال : 75] أي اللوح خبر ثانٍ أي هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب ، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ { لا يَضِلُّ رَبِّى } [طه : 52] أي لا يخطيء شيئاً يقال : ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له أي لا يخطيء في سعادة

الناس وشقاوتهم { وَلا يَنسَى } [طه : 52] ثوابهم وعقابهم.
وقيل : لا ينسى ما علم فيذكره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة أن معمول الخلق يوافق معلومه.
{ الَّذِى } مرفوع صفة لـ { رَبِّى } أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح
جزء : 3 رقم الصفحة : 87
{ جَعَلَ لَكُمُ الارْضَ مَهْدًا } [الزخرف : 10] كوفي وغيرهم { مَهْدًا } وهما لغتان لما يبسط ويفرش { وَسَلَكَ } أي جعل { لَكُمْ فِيهَا سُبُلا } [الزخرف : 10] طرقاً { وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } [البقرة : 22] أي مطراً { فَأَخْرَجْنَا بِهِ } [طه : 53] بالماء.
نقل الكلام من الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للافتتان.
وقيل : تم كلام موسى ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله { فَأَخْرَجْنَا بِهِ } [طه : 53] وقيل : هذا كلام موسى أي فأخرجنا نحن بالحراثة والغرس { أَزْوَاجًا } أصنافاً { مِّن نَّبَاتٍ } [طه : 53] هو مصدر سمي به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع { شَتَّى } صفة للأزواج أو للنبات جمع شتيت كمريض ومرضى أي إنها مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل بعضها
87
للناس وبعضها للبهائم ، ومن نعمة الله تعالى أن أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجاتنا مما لا نقدر على أكله قائلين { كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ } [طه : 54] حال من الضمير في { فَأَخْرَجْنَا } والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] في الذي ذكرت { لايَاتٍ } لدلالات { لاوْلِى النُّهَى } [طه : 54] لذوي العقول واحدها نهية لأنها تنهى عن المحظور أو ينتهى إليها في الأمور { مِّنْهَا } من الأرض { خَلَقْنَاكُمْ } أي أباكم آدم عليه السلام.
وقيل : يعجن كل نطفة بشيء من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معاً أو لأن النطفة من الأغذية وهي من الأرض { وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } [طه : 55] إذا متم فدفنتم { وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ } [طه : 55] عند البعث { تَارَةً أُخْرَى } [طه : 55] مرة أخرى والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر ، عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها ، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤوا ، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم وهي أصلهم الذي منه تفرعوا ، وأمهم التي منها ولدوا وهي كفانهم إذا ماتوا.
{ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ } [طه : 56] أي فرعون { كُلَّهَا فَكَذَّبَ } [طه : 56] وهي تسع آيات : العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل { فَكَذَّبَ } الآيات { وَأَبَى } قبول الحق { قَالَ } فرعون { أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا } [طه : 57] مصر { بِسِحْرِكَ يَامُوسَى } فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديداً وقوله { بِسِحْرِكَ } تعلل وإلا فأي ساحر يقدر أن يخرج ملكاً من

أرضه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 87

(52/3)

{ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ } [طه : 58] فلنعارضنك بسحر مثل سحرك { فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا } [طه : 58] هو مصدر بمعنى الوعد ويقدر مضاف أي مكان موعد.

والضمير في

88

{ لا نُخْلِفُهُ } [طه : 58] للموعد.

قرأ يزيد بالجزم على جواب الأمر وغيره بالرفع على الوصف للموعد { نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا } [طه : 58] هو بدل من المكان المحذوف ، ويجوز أن لا يقدر مضاف ويكون المعنى اجعل بيننا وبينك وعداً لا نخلفه ، وانتصب { مَكَانًا } بالمصدر أو بفعل يدل عليه المصدر { سُوًى } بالكسر حجازي وأبو عمرو وعليّ وغيرهم بالضم وهو نعت لـ { مَكَانًا } أي منصفاً بيننا وبينك وهو من الاستواء لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية.

{ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ } [طه : 59] مبتدأ وخبر وهو يوم عيد كان لهم أو يوم النيروز أو يوم عاشوراء.

وإنما استقام الجواب بالزمان وإن كان السؤال عن المكان على التأويل الأول ، لأن اجتماعهم يوم الزينة يكون في مكان لا محالة فبذكر الزمان علم المكان ، وعلى الثاني تقديره وعدكم وعد يوم الزينة { وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ } [طه : 59] أي تجمع في موضع رفع أوجر عطفاً على { يَوْمُ } أو { الزِّينَةِ } { ضُحًى } أي وقت الضحوة لتكون أبعد عن الريبة وأبين لكشف الحق وليشيع في جميع أهل الوبر والمدر { فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ } [طه : 60] أدبر عن موسى معرضاً { فَجَمَعَ كَيْدَهُ } [طه : 60] مكره وسحرته وكانوا اثنين وسبعين أو أربعمائة أو سبعين ألفاً { ثُمَّ أَتَى } [طه : 60] للموعد { قَالَ لَهُم مُّوسَى } [يونس : 80] أي للسحرة { وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [طه : 61] لا تدعوا آياته ومعجزاته سحراً { فَيُسْحِتَكُم } كوفي غير أبي بكر يهلككم وبفتح الياء والحاء غيرهم ، والسحت والإسحات بمعنى الإعدام وانتصب على جواب النهي { بِعَذَابٍ } عظيم { وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى } [طه : 61] من كذب على الله { فَتَنَازَعُوا } اختلفوا أي السحرة فقال بعضهم : هو ساحر مثلنا.

وقال بعضهم : ليس هذا بكلام السحرة أي { لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [طه : 61] الآية { أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى } [طه : 62] أي تشاوروا في السر وقالوا : إن كان ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر ، والنجوى يكون مصدراً واسماً.

ثم لفقوا هذا الكلام يعني
جزء : 3 رقم الصفحة : 87
{ قَالُوا إِنْ هَاذَانِ لَسَاحِرَانِ } [طه : 63] يعني موسى وهارون.
قرأ أبو عمرو { إِنْ هَاذَانِ لَسَاحِرَانِ } وهو ظاهر ولكنه مخالف للإمام ، وابن كثير وحفص والخليل وهو أعرف بالنحو واللغة { إِنْ هَاذَانِ لَسَاحِرَانِ } [طه : 63] بتخفيف { ءَانِ } مثل قولك " إن زيد لمنطلق " واللام هي الفارقة بين " إن " النافية والمخففة من الثقيلة.
وقيل : هي بمعنى " ما " واللام بمعنى إلا أي ما هذان إلا ساحران دليله قراءة أبيّ { ءَانِ } وغيرهم { وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَاذَانِ لَسَاحِرَانِ } [طه : 63] قيل هي لغة بلحارث بن كعب وخثعم ومراد وكنانة فالتثنية في لغتهم بالألف أبداً فلم يقلبوها يا ء في الجر والنصب كعصا وسعدى قال :
إن أباها وأبا أباها
قد بلغا في المجد غايتاها
وقال الزجاج : إن بمعنى نعم ، قال الشاعر :
ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنه أي نعم والهاء للوقف.
و { هَاذَانِ } مبتدأ و خبر مبتدأ محذوف واللام داخلة على المبتدأ المحذوف تقديره : هذان لهما ساحران فيكون دخولهما في موضعها الموضوع لها وهو الابتداء ، وقد يدخل اللام في الخبر كما يدخل في المبتدأ قال :
جزء : 3 رقم الصفحة : 90
خالي لأنت ومن جرير خاله

(53/3)

قال : فعرضته على المبرد فرضيه وقد زيفه أبو عليّ.
{ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم } [طه : 63] مصر { بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ } [طه : 63] بدينكم وشريعتكم { الْمُثْلَى } الفضلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل { فَأَجْمِعُوا } فأحكموا أي اجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا { فَأَجْمِعُوا } أبو عمرو ويعضده { فَجَمَعَ كَيْدَهُ } [طه : 60] { كَيْدَكُمْ } هو ما يكاد به { ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا } [طه : 64] مصطفين حال أمروا بأن يأتوا صفاً لأنه أهيب في صدور الرائين { وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى } [طه : 64] وقد فاز من غلب وهو اعتراض.
{ قَالُوا } أي السحرة { يَامُوسَى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ } [الأعراف : 115] عصاك أولاً

{ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى } [طه : 65] ما معنا وموضع " أن " مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر ، أو رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه اختر أحد الأمرين ، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا.
وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت إليهم بركته وعلم موسى اختيار إلقائهم أولاً حتى { قَالَ بَلْ أَلْقُوا } [طه : 66] أنتم أولاً ليبرزوا ما معهم من مكايد السحر ويظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين فألقوا { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ } [طه : 66] يقال في { إِذَآ } هذه : إذا المفاجأة والتحقيق أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها ، وخصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير والتقدير : ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي { يُخَيَّلُ } وبالتاء : ابن ذكوان { إِلَيْهِ } إلى موسى { مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } [طه : 66] رفع بدل اشتمال من الضمير في { يُخَيَّلُ } أي يخيل الملقى.
روي أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيلت ذلك.
جزء : 3 رقم الصفحة : 90
{ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى } [طه : 67] أضمر في نفسه خوفاً ظنًّا منه أنها تقصده للجبلة البشرية أو خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه { قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الاعْلَى } [طه : 68] الغالب القاهر.
وفي ذكر " إن " و " أنت " وحرف التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة مبالغة بينة.
{ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ } [طه : 69] بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف : حفص و { تَلْقَفْ } : ابن ذكوان ، الباقون { تَلْقَفْ } { مَا صَنَعُوا } [طه : 69] زوراً وافتعلوا أي اطرح عصاك تبتلع عصيهم وحبالهم.
ولم يقل عصاك تعظيماً لها أي لا تحتفل بما صنعوا فإن ما في يمينك أعظم منها ، أو تحقيراً أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد
91
الذي في يمينك فإنه بقدرتنا يتلقفها على وحدته وكثرتها { إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ } [طه : 69] كوفي غير عاصم سحر بمعنى ذي سحر أو ذوي سحر أو هم لتوغلهم في السحر كأنهم السحر ، و { كَيْدُ } بالرفع على القراءتين و " ما " موصولة أو مصدرية.
وإنما وحد { سَاحِرٌ } ولم يجمع لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد ، فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله { وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ } [طه : 69] أي هذا الجنس { حَيْثُ أَتَى } [طه : 69] أينما كان فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فلعظم ما رأوا من الآية وقعوا إلى السجود فذلك قوله { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا } [طه : 70] قال الأخفش : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا فما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد

ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين.
روي أنهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها في السجود فرفعوا رؤوسهم ثم { قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى } [طه : 70] وإنما قدم " هارون " هنا وأخر في الشعراء محافظة للفاصلة ولأن الواو لا توجب ترتيباً { قَالَ ءَامَنتُمْ } [طه : 71] بغير مد : حفص ، وبهمزة ممدودة : بصري وشامي وحجازي ، وبهمزتين : غيرهم
جزء : 3 رقم الصفحة : 90

(54/3)

{ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ } [الشعراء : 49] أي لموسى.
يقال : آمن له وآمن به { إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } [طه : 71] لعظيمكم أو لمعلمكم ، تقول أهل مكة للمعلم : أمرني كبيري { فَلاقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ } [طه : 71] القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال ، و " من " لابتداء الغاية لأن القطع مبتدأ وناشيء من مخالفة العضو ، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال يعني لأقطعنها مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضاً فقد اتصفت بالاختلاف ، شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن المظروف في الظرف فلهذا قال { وَلاصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ } [طه : 71] وخص النخل لطول جذوعها { وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا } [طه : 71] أنا على ترك إيمانكم
92
بي أو رب موسى على ترك الإيمان به.
وقيل : يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله { لَهُ قَبْلَ } [طه : 71] واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله كقوله { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } [التوبة : 61] (التوبة : 16) { وَأَبْقَى } أدوم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 90
{ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ } [طه : 72] لن نختارك { عَلَى مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ } [طه : 72] القاطعة الدالة على صدق موسى { وَالَّذِى فَطَرَنَا } [طه : 72] عطف على { مَا جَآءَنَا } [المائدة : 19] أي لن نختارك على الذي جاءنا ولا على الذي خلقنا ، أو قسم وجوابه { لَن نُّؤْثِرَكَ } [طه : 72] مقدم على القسم { فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ } [طه : 72] فاصنع ما أنت صانع من القتل والصلب قال : وعليهما مسرودتان قضاهما ، أي صنعهما أو احكم ما أنت حاكم { قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا } [طه : 72] أي في هذه الحياة الدنيا فانتصب على الظرف أي إنما تحكم فينا مدة حياتنا.

جزء : 3 رقم الصفحة : 93

{ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ } " ما " موصولة منصوبة بالعطف على { خَطَايَانَا } { مِنَ السِّحْرِ } [طه : 73] حال من " ما " ، روي أنهم قالوا لفرعون : أرنا موسى نائماً ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا : ما هذا بسحر الساحر إذا نام بطل سحره فكرهوا معارضته خوف الفضيحة فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر وضر فرعون جهله به ونفعهم علمهم بالسحر فكيف بعلم الشرع { وَاللَّهُ خَيْرٌ } [الجمعة : 11] ثواباً لمن أطاعه { وَأَبْقَى } عقاباً لمن عصاه وهو رد لقول فرعون { وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } [طه : 71].

{ إِنَّهُ } هو ضمير الشأن { مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا } [طه : 74] كافراً { فَإِنَّ لَهُ } [طه : 74] للمجرم { جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا } [طه : 74] فيستريح بالموت { وَلا يَحْيَى } [طه : 74] حياة ينتفع بها { وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا } [طه : 75] مات على الإيمان { قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ } [طه : 75] بعد الإيمان { فَأُوالَائكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى } [طه : 75] جمع العليا

93

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ } [مريم : 61] بدل من { الدَّرَجَاتُ } { تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا } [البينة : 8] دائمين { وَذَالِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّى } [طه : 76] تطهر من الشرك بقول لا إله إلا الله.

قيل : هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم.

وقيل : خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية وهو أظهر { بِعِبَادِى } لما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلاً ويأخذ بهم طريق البحر { فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ } [طه : 77] اجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهماً { يَبَسًا } أي يا بساً وهو مصدر وصف به يقال : يبس يَبسا ويُبسا

جزء : 3 رقم الصفحة : 93

(55/3)

{ لا تَخَافُ } [طه : 77] حال من الضمير في { فَاضْرِبْ } أي اضرب لهم طريقاً غير خائف.

{ لا تَخَفْ } [هود : 70] حمزة على الجواب { دَرَكًا } هو اسم من الإدراك أي لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك { وَلا تَخْشَى } [طه : 77] الغرق وعلى قراءة حمزة { وَلا تَخْشَى } [طه : 77] استئناف أي وأنت لا تخشى أو يكون الألف للإطلاق كما في { وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا } [الأحزاب : 10] (الأحزاب : 01) فخرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين ألفاً وقد استعاروا حليهم فركب فرعون في ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم فذلك قوله { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ } [طه : 78] هو حال أي خرج خلفهم ومعه جنوده { فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ } [طه : 78] أصابهم من البحر { مَا غَشِيَهُمْ }

[طه : 78] هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ } [طه : 79] عن سبيل الرشاد { وَمَا هَدَى } [طه : 79] وما أرشدهم إلى الحق والسداد وهذا رد لقوله { وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ } [غافر : 29] (غافر : 92).

ثم ذكر منته على بني إسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر وأهلك فرعون وقومه بقوله { يَابَنِى إِسْرَاءِيلَ } [البقرة : 40] أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي وقلنا يا بني إسرائيل { قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ } [طه : 80] أي فرعون { وَوَاعَدْنَاكُمْ } بإيتاء الكتاب { جَانِبَ الطُّورِ الايْمَنَ } [مريم : 52]

94

وذلك أن الله عز وجل وعد موسى أن يأتي هذا المكان ويختار سبعين رجلاً يحضرون معه لنزول التوراة.

وإنما نسب إليهم المواعدة لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم وإليهم رجعت منافعها التي قام بها شرعهم ودينهم.

و { الايْمَنَ } نصب لأنه صفة { جَانِبَ } وقرىء بالجر على الجوار { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى } [طه : 80] في التيه وقلنا لكم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 93

{ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ } [البقرة : 57] حلالات { مَا رَزَقْنَاكُمْ } [الروم : 28] كوفي غير عاصم { رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ } [طه : 81] ولا تتعدوا حدود الله فيه بأن تكفروا النعم وتنفقوها في المعاصي أو لا يظلم بعضكم بعضاً { فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى } [طه : 81] عقوبتي { وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى } [طه : 81] هلك أو سقط سقوطاً لا نهوض بعده ، وأصله أن يسقط من جبل فيهلك وتحقيقه سقط من شرف الإيمان إلى حفرة من حفر النيران.

قرأ علي { فَيَحِلَّ } و { يَحْلِلْ } والباقون بكسرهما.

فالمكسور في معنى الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه ، والمضموم في معنى النزول { وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ } [طه : 82] عن الشرك { وَءَامَنَ } وحد الله تعالى وصدقه فيما أنزل { وَعَمِلَ صَالِحًا } [طه : 82] أدى الفرائض { ثُمَّ اهْتَدَى } [طه : 82] ثم استقام وثبت على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

{ وَمَآ أَعْجَلَكَ } [طه : 83] أي وأي شيء عجل بك { عَن قَوْمِكَ يَامُوسَى } أي عن السبعين الذين اختارهم وذلك أنه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه قال الله تعالى { وَمَآ أَعْجَلَكَ } [طه : 83] أي أي شيء أوجب عجلتك استفهام إنكار و { مَآ } مبتدأ و { أَعْجَلَكَ } الخبر { قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِى } [طه : 84] أي هم خلفي يلحقون بي وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة.

ثم ذكر موجب العجلة فقال { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ } [طه : 84] أي إلى الموعد الذي وعدت { لِتَرْضَى

} لتزداد عني رضاً وهذا دليل على جواز الاجتهاد.
95
جزء : 3 رقم الصفحة : 93

(56/3)

{ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ } [طه : 85] ألقيناهم في فتنة { مِن بَعْدِكَ } [طه : 85] من بعد خروجك من بينهم والمراد بالقوم الذين خلفهم مع هارون { وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } [طه : 85] بدعائه إياهم إلى عبادة العجل وإجابتهم له وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة.
وقيل : كان علجاً من كرمان فاتخذ عجلاً واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً { فَرَجَعَ مُوسَى } [طه : 86] من مناجات ربه { إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا } [الأعراف : 150] شديد الغضب أو حزيناً { قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا } وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور وكانت ألف سورة كل سوره ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملاً ولا وعد أحسن من ذلك { أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ } [طه : 86] أي مدة مفارقتي إياكم ، والعهد الزمان ، يقال : طال عهدي بك أي طال زماني بسبب مفارقتك { أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ } [طه : 86] أي أردتم أن تفعلوا فعلاً يجب به عليكم الغضب من ربكم { فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى } [طه : 86] وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الآيات فأخلفوا موعده باتخاذ العجل.
جزء : 3 رقم الصفحة : 96
{ قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا } [طه : 87] بفتح الميم : مدني وعاصم ، وبضمها : حمزة وعلي ، وبكسرها : غيرهم ، أي ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفنا موعدك ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده { وَلَـاكِنَّا حُمِّلْنَآ } [طه : 87] بالضم والتشديد : حجازي وشامي وحفص ، وبفتح الحاء والميم مع التخفيف : غيرهم { أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ } [طه : 87] أثقالاً من حلي القبط ، أو أرادوا بالأوزار أنها آثام وتبعات لأنهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلة أن لنا غداً عيداً ، فقال السامري : إنما حبس موسى لشؤم حرمتها لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ فأحرقوها
96
فخبأ في حفرة النار قالب عجل فانصاغت عجلاً مجوفاً فخار بدخول الريح في مجار منه أشباه العروق.
وقيل : نفخ فيه تراباً من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فحيي

فخار ومالت طباهم إلى الذهب فعبدوه { فَقَذَفْنَاهَا } في نار السامري التي أوقدها في الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلي { فَكَذَالِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ } [طه : 87] ما معه من الحلي في النار أو ما معه من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام.

جزء : 3 رقم الصفحة : 96

(57/3)

{ فَأَخْرَجَ لَهُمْ } [طه : 88] السامري من الحفرة { عِجْلا } خلقه الله تعالى من الحلي التي سبكتها النار ابتلاء { جَسَدًا } مجسداً { لَّهُ خُوَارٌ } [الأعراف : 148] صوت وكان يخور كما تخور العجاجيل { فَقَالُوا } أي السامري وأتباعه { هَاذَآ إِلَـاهُكُمْ وَإِلَـاهُ مُوسَى } [طه : 88] فأجاب عامتهم إلا اثني عشر ألفاً { فَنَسِىَ } أي فنسي موسى ربه هنا وذهب يطلبه عند الطور ، أو هو ابتداء كلام من الله تعالى أي نسي السامري ربه وترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر ، أو نسي السامري الاستدلال على أن العجل لا يكون إلهاً بدليل قوله { أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ } [طه : 89] أي أنه لا يرجع ف { ءَانٍ } مخففة من الثقيلة { إِلَيْهِمْ قَوْلا } [طه : 89] أي لا يجيبهم { وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا } [طه : 89] أي هو عاجز عن الخطاب والضر والنفع فكيف تتخذونه إلهاً وقيل : إنه ما خار إلا مرة { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ } [طه : 90] لمن عبدوا العجل { هَارُونُ مِن قَبْلُ } [طه : 90] من قبل رجوع موسى إليهم { يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ } [طه : 90] ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه { وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَانُ } [طه : 90] لا العجل { فَاتَّبِعُونِى } كونوا على ديني الذي هو الحق { وَأَطِيعُوا أَمْرِى } [طه : 90] في ترك عبادة العجل { قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ } [طه : 91] أي لن نزال مقيمين على العجل وعبادته { حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى } [طه : 91] فننظره هل يعبده كما عبدناه وهل صدق السامري أم لا.

فلما رجع موسى { قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا } بعبادة العجل.

97

{ أَلا تَتَّبِعَنِ } [طه : 93] بالياء في الوصل والوقف : مكي ، وافقه أبو عمرو ونافع في الوصل ، وغيرهم بلا ياء أي ما دعاك إلى ألا تتبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشي وبين الداعي إلى تركه.

وقيل : " لا " مزيدة والمعنى أي شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك وتلحق بي وتخبرني؟ أو ما منعك أن تتبعني في الغضب لله ، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً؟

جزء : 3 رقم الصفحة : 96

{ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى } [طه : 93] أي الذي أمرتك به من القيام بمصالحهم.
ثم أخذ بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله عضباً وإنكاراً عليه لأن الغيرة في الله ملكته { قَالَ يَبْنَؤُمَّ } [طه : 94] وبخفض الميم : شامي وكوفي غير حفص ، وكان لأبيه وأمه عند الجمهور ولكنه ذكر الأم استعطافاً وترفيقاً { لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى } [طه : 94] ثم ذكر عذره فقال { إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ } [طه : 94] إن قاتلت بعضهم ببعض { فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ } [طه : 94] أو خفت أن تقول إن فارقتهم واتبعتك ولحق بي فريق وتبع السامري فريق : { فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ } [طه : 94] { وَلَمْ تَرْقُبْ } [طه : 94] ولم تحفظ { قَوْلِي } اخلفني في قومي وأصلح.
وفيه دليل على جواز الاجتهاد.
ثم أقبل موسى على السامري منكراً عليه حيث { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ } [طه : 95] ما أمرك الذي تخاطب عليه؟ { يَاسَامِرِيُّ } { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ } [طه : 96] وبالتاء : حمزة وعلي ، وقال الزجاج : بصر علم وأبصر نظر أي علمت ما لم يعلمه بنو اسرائيل.
قال موسى : وما ذاك؟ قال : رأيت جبريل على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثره فما ألقيته على شيء إلا صار له روح ولحم ودم { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً } [طه : 96] القبضة المرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر لـ " ضرب " الأمير.
وقريء { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً } فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ } [طه : 96] أي من أثر فرس الرسول وقريء بها { فَنَبَذْتُهَا } فطرحتها في جوف العجل 98
{ وَكَذَالِكَ سَوَّلَتْ } [طه : 96] زينت { لِى نَفْسِى } [طه : 96] أن أفعله ففعلته اتباعاً لهواي وهو اعتراف بالخطأ واعتذار.
جزء : 3 رقم الصفحة : 96

{ قَالَ } له موسى { فَاذْهَبْ } من بيننا طريداً { قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ } [طه : 97] ما عشت { أَن تَقُولَ } [طه : 94] لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك { لا مِسَاسَ } [طه : 97] أي لا يمسني أحد ولا أمسه فمنع من مخالطة الناس منعاً كلياً وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ، وإذا اتفق أن يماس أحداً حم الماس والممسوس.
وكان يهيم في البرية يصيح لا مساس ويقال : إن ذلك موجود في أولاده إلى الان.
وقيل : أراد موسى عليه السلام أن يقتله فمنعه الله تعالى منه لسخائه { وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ } [طه : 97] أي لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض ينجزه لك في

الآخرة بعدما عاقبك بذاك في الدنيا { لَّن تُخْلَفَهُ } [طه : 97] مكي وأبو عمر وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً { وَانظُرْ إِلَى إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ } [طه : 97] وأصله ظللت فحذف اللام الأولى تخفيفاً { عَاكِفًا } مقيماً { لَّنُحَرِّقَنَّهُ } بالنار { ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ } [طه : 97] لنذرينه { فِى الْيَمِّ نَسْفًا } [طه : 97] فحرقه وذراه في البحر فشرب بعضهم من مائة حباً له فظهرت على شفاههم صفرة الذهب.

{ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَـٰهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا } [طه : 98] تمييز أي وسع علمه كل شيء.

جزء : 3 رقم الصفحة : 99

ومحل الكاف في { كَذَالِكَ } نصب أي مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون { نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنابَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ } [طه : 99] من أخبار الأمم الماضية تكثيراً لبيناتك وزيادة في معجزاتك { وَقَدْ ءَاتَيْنَـاكَ } [طه : 99] أي أعطيناك { مِن لَّدُنَّا } [النساء : 67] من عندنا { ذِكْرًا } قرآناً فهو ذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة لمن أقبل عليه ، وهو مشتمل على الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار

99

{ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ } [طه : 100] عن هذا الذكر وهو القرآن ولم يؤمن به { فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ وِزْرًا } [طه : 100] عقوبة ثقيلة سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذي ينقض ظهره ويلقى عليه بهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم { خَالِدِينَ } حال من الضمير في { يَحْمِلُ } وإنما جمع على المعنى ووحد في { فَإِنَّهُ } حملاً على لفظ من { فِيهِ } في الوزر أي في جزاء الوزر وهو العذاب { وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ حِمْلا } [طه : 101] ساء في حكم بئس وفيه مبهم يفسره { حِمْلا } وهو تمييز واللام في { لَهُمُ } للبيان كما في { هَيْتَ لَكَ } [يوسف : 23] (يوسف : 32) والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره ساء الحمل حملاً وزرهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 99

{ يَوْمَ يُنفَخُ } [الأنعام : 73] بدل من { يَوْمَ الْقِيَـامَةِ } [القيامة : 6] ، أبو عمرو { وَنُفِخَ فِى الصُّورِ } [ق : 20] القرن أو هو جمع صورة أي ننفخ الأرواح فيها دليله قراءة قتادة الصور بفتح الوّاو جمع صورة { وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَاـاِذٍ زُرْقًا } [طه : 102] حال أي عمياً كما قال { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا } [الإسراء : 97] (الإسراء : 79) وهذا لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق { يَتَخَـافَتُونَ } يتسارون { بَيْنَهُمْ } أي يقول بعضهم لبعض سراً لهول ذلك اليوم { إِن لَّبِثْتُمْ } [طه : 103] ما لبثتم في الدنيا { إِلا عَشْرًا } [طه : 103] أي عشر ليال يستقصرون مدة لبثهم في القبور أو في الدنيا لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر ، لأن أيام السرور قصار ، أو لأنها ذهبت عنهم والذاهب وإن طالت مدته قصير

بالانتهاء ، أو لاستطالتهم الآخرة لأنها أبداً يستقصر إليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة ، وقد رجح الله قول من يكون أشد تقالاً منهم بقوله { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً } [طه : 104] أعد لهم قولاً

100

{ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا يَوْمًا } [طه : 104] وهو كقوله { قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْاَلِ الْعَآدِّينَ } [المؤمنون : 113] (المؤمنون : 311).

(59/3)

{ وَيَسْاَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ } [طه : 105] سألوا النبي صلى الله عليه وسلّم ما يصنع بالجبال يوم القيامة؟ وقيل : لم يسئل وتقديره إن سألوك { فَقُلْ } ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله { وَيَسْاَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى } [البقرة : 222] (البقرة : 222) وقوله { فِى الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ وَيَسْاَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ } [البقرة : 220] (البقرة : 022) و { يَسْاَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ } [البقرة : 219] (البقرة : 912) { يَسْاَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي } [الأعراف : 187] (الأعراف : 781) { وَيَسْاَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ } [الإسراء : 85] (الإسراء : 58) { وَيَسْاَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا } [الكهف : 83] (الكهف : 38) لأنها سؤالات تقدمت فورد جوابها ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء.

جزء : 3 رقم الصفحة : 99

{ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا } [طه : 105] أي يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذري الطعام.

وقال الخليل : يقلعها { فَيَذَرُهَا } فيذر مقارها أو يجعل الضمير للأرض للعلم بها كقوله { مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا } [فاطر : 45] (فاطر : 54) { قَاعًا صَفْصَفًا } [طه : 106] مستوية ملساء { لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا } [طه : 107] انخفاضاً { وَلا أَمْتًا } [طه : 107] ارتفاعاً والعوج بالكسر إن كان في المعاني كما أن المفتوح في الأعيان والأرض عين ، ولكن لما استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه ما وإن دقت الحيلة ولطفت جرت مجرى المعاني { يَوْمَاإِذٍ } أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال أي يوم إذ نسفت وجاز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة { يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ } [طه : 108] إلى المحشر أي صوت الداعي وهو إسرافيل حين ينادي على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمي إلى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب

101

إلى صوبه لا يعدلون عنه { لا عِوَجَ لَهُ } [طه : 108] أي لا يعوج له مدعو بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته { وَخَشَعَتِ } وسكنت { الاصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ } [طه : 108] هيبة وإجلالاً { فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا } [طه : 108] صوتاً خفيفاً لتحريك الشفاه.

وقيل : هو من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت أي لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر.

جزء : 3 رقم الصفحة : 99

{ يَوْمَاإِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ } [طه : 109] محل من رفع على البدل من { الشَّفَاعَةَ } بتقدير حذف المضاف أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن أي أذن للشافع في الشفاعة { وَرَضِىَ لَهُ قَوْلا } [طه : 109] أي رضي قولاً لأجله بأن يكون المشفوع له مسلماً أو نصب على أنه مفعول { تَنفَعُ } { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [البقرة : 255] أي يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه { وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } [طه : 110] أي بما أحاط به علم الله فيرجع الضمير إلى " ما " أو يرجع الضمير إلى الله لأنه تعالى ليس بمحاط به { وَعَنَتِ } خضعت وذلت ومنه قيل للأسير : عانٍ { الْوُجُوهُ } أي أصحابها { لِلْحَىِّ } الذي لا يموت وكل حياة يتعقبها الموت فهي كأن لم تكن { الْقَيُّومِ } الدائم القائم على كل نفس بما كسبت أو القائم بتدبير الخلق { وَقَدْ خَابَ } [طه : 61] يئس من رحمة الله { مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا } [طه : 111] من حمل إلى موقف القيامة شركاً لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ } [النساء : 124] الصالحات الطاعات { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } [الإسراء : 19] مصدق بما جاء به محمد عليه السلام ، وفيه دليل أنه يستحق اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة وأن الإيمان شرط قبولها { فَلا يَخَافُ } [الجن : 13] أي فهو لا يخاف { فَلا يُخَفَّفُ } [البقرة : 86] على النهي : مكي { ظُلْمًا } أن يزداد في سيئاته { وَلا هَضْمًا } [طه : 112] ولا ينقص من حسناته وأصل الهضم النقص والكسر.

102

جزء : 3 رقم الصفحة : 102

{ وَكَذَالِكَ } عطف على كذلك نقص أي ومثل ذلك الإنزال { وَكَذَالِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا } [يوسف : 2] بلسان العرب { وَصَرَّفْنَا } كررنا { فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [طه : 113] يجتنبون الشرك { أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ } [طه : 113] الوعيد أو القرآن { ذِكْرًا } عظة أو شرفاً بإيمانهم به وقيل " أو " بمعنى الواو.

{ فَتَعَالَى اللَّهُ } [الأعراف : 190] ارتفع عن فنون الظنون وأوهام الأفهام وتنزه عن مضاهاة الأنام ومشابهة الأجسام { الْمَلِكُ } الذي يحتاج إليه الملوك { الْحَقُّ } المحق في الألوهية.
ولما ذكر القرآن وإنزاله قال استطراداً : وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك { وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ } [طه : 114] بقراءته { مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ } [طه : 114] من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ { وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا } [طه : 114] بالقرآن ومعانيه.
وقيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 103
{ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَى ءَادَمَ } أي أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة.
يقال في أوامر الملوك ووصاياهم تقدم الملك إلى فلان وأوصى إليه وعزم عليه وعهد إليه ، فعطف قصة آدم على { وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ } [طه : 113] والمعنى وأقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة { مِّن قَبْلِهِ } [يوسف : 6] من قبل وجودهم فخالف إلى ما نهي عنه كما أنهم يخالفون يعني أن أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه { فَنَسِىَ } العهد أي النهي والأنبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذي لو تكلفوا لحفظوه { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } [طه : 115] قصداً إلى الخلاف لأمره أو لم يكن آدم من أولي العزم.
والوجود بمعنى العلم ومفعولاه { لَهُ عَزْمًا } [طه : 115] أو بمعنى نقيض العدم أي وعد منا له عزما و { لَهُ } متعلق بـ { نَجِدْ } { وَإِذْ قُلْنَا } [البقرة : 58] منصوب بـ " اذكر " { لِلْمَلَائكَةِ اسْجُدُوا لادَمَ } [البقرة : 34] قيل : هو السجود اللغوي الذي هو الخضوع والتذلل أو كان آدم كالقبلة لضرب تعظيم له فيه
103
{ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ } [طه : 116] عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس كان ملكاً من جنس المستثنى منهم.
وقال الحسن : الملائكة لباب الخليقة من الأرواح ولا يتناسلون وإبليس من نار السموم.
وإنما صح استثناؤه منهم لأنه كان يصحبهم ويعبد الله معهم { أَبَى } جملة مستأنفة كأنه جواب لمن قال لم لم يسجد ، والوجه أن لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله { فَسَجَدُوا } وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف
جزء : 3 رقم الصفحة : 103
{ فَقُلْنَا يَاءَادَمُ إِنَّ هَاذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ } حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك { فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ } [طه : 117] فلا يكونن سبباً لإخراجكما { فَتَشْقَى } فتتعب في طلب القوت ولم يقل " فتشقيا " مراعاة لرؤوس الآي ، أو دخلت تبعاً ، أو لأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة.
وروي أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه { إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا } [طه : 118] في الجنة { وَلا تَعْرَى } [طه : 118] عن الملابس لأنها معدة أبداً فيها { وَأَنَّكَ }

بالكسر : نافع وأبو بكر عطفاً على " إن " الأولى ، وغيرهما بالفتح عطفاً على { أَلا تَجُوعَ } [طه : 118] ومحله نصب بـ " أن " وجاز للفصل كما تقول " إن في علمي أنك جالس " { لا تَظْمَؤُا فِيهَا } [طه : 119] لا تعطش لوجود الأشربة فيها { وَلا تَضْحَى } [طه : 119] لا يصيبك حر الشمس إذ ليس فيها شمس فأهلها في ظل ممدود.

(61/3)

{ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ } [طه : 120] أي أنهى إليه الوسوسة كأسر إليه { قَالَ يَاءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ } أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود لأن من أكل منها خلد بزعمه ولا يموت { وَمُلْكٍ لا يَبْلَى } [طه : 120] لا يفنى { فَأَكَلا } أي آدم وحواء { مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا } عوراتهما { سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا } [الأعراف : 22] طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وهو كـ كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعاً إلا أنه للشروع في أول الأمر وكاد للدنو منه { يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ } [الأعراف : 22] أي يلزقان الورق بسواتهما للتستر وهو ورق التين { وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } ضل عن
104
الرأي.

وعن ابن عيسى خاب ، والحاصل أن العصيان وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهي ، وقد يكون عمداً فيكون ذنباً وقد لا يكون عمداً فيكون زلة.

ولما وصف فعله بالعصيان خرج فعله من أن يكون رشداً فكان غياً ، لأن الغي خلاف الرشد.

وفي التصريح بقوله { وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } والعدول عن قوله و زل آدم مزجرة بليغة وموعظة كافة للمكلفين كأنه قيل لهم : انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلاً عن الكبائر

جزء : 3 رقم الصفحة : 104

{ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ } [طه : 122] قربه إليه اصطفاه.

وقريء به وأصل الكلمة الجمع يقال جبى إلى كذا فاجتبيته { فَتَابَ عَلَيْهِ } [البقرة : 37] قبل توبته { وَهَدَى } وهداه إلى الاعتذار والاستغفار.

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعَا } [طه : 123] يعني آدم وحواء { بَعْضُكُمْ } يا ذرية آدم { لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [الزخرف : 67] بالتحاسد في الدنيا والاختلاف في الدين { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى } [البقرة : 38] كتاب وشريعة { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ } [طه : 123] في الدنيا
105
{ وَلا يَشْقَى } [طه : 123] في العقبى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة يعني أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين ، فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى } [طه : 124] عن القرآن { فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا } [طه : 124] ضيقاً وهو مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث.

عن ابن جبير : يسلبه القناعة حتى لا يشبع فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياته طيبة ، ومع الإعراض الحرص والشح فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتصوفة : لا يعرض أحدكم عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه { وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } [طه : 124] عن الحجة.

عن ابن عباس : أعمى البصر وهو كقوله : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا } [الإسراء : 97] وهو الوجه { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا } [طه : 125] في الدنيا

جزء : 3 رقم الصفحة : 105

{ قَالَ كَذَالِكَ } [طه : 126] أي مثل ذلك فعلت أنت.

ثم فسر فقال { أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَالِكَ الْيَوْمَ تُنسَى } [طه : 126] أي أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر وتركتها وعميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

(62/3)

{ وَكَذَالِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِـَايَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه : 127] لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين : المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في العقبى ختم آيات الوعيد بقوله ولعذاب الآخرة أشد وأبقى أي للحشر على العمى الذي يزول أبداً أشد من ضيق العيش المنقضي { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ } [طه : 128] أي الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب بالنون { كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ } [طه : 128] حال من الضمير المجرور في لهم { فِى مَسَاكِنِهِمْ } [طه : 128] يريد أن قريشاً يمشون في مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم { إِنَّ فِى ذَالِكَ لايَاتٍ لاوْلِى النُّهَى } لذوي العقول إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا { وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ } [يونس : 19] أي الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلّم { لَكَانَ لِزَامًا } [طه : 129] لازماً فاللزام مصدر لزم فوصف به { وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } [طه : 129] القيامة وهو معطوف على كلمة ، والمعنى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 106
{ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } [طه : 130] فيك { وَسَبِّحْ } وصل { بِحَمْدِ رَبِّكَ } [غافر : 55] في موضع الحال وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ } [ق : 39] يعني صلاة الفجر { وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } [طه : 130] يعني الظهر والعصر لأنهما واقعتان في
106
النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها { وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ } أي وتعهد أناء الليل أي ساعاته وأطراف النهار مختصاً لها بصلاتك.
وقد تناول التسبيح في آناء الليل وصلاة العتمة ، وفي أطراف النهار صلاة المغرب ، وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله { حَافِظُوا عَلَى } [البقرة : 238] عند البعض.
وإنما جمع وأطراف النهار وهما طرفان لأمن الإلباس وهو عطف على قبل { لَعَلَّكَ تَرْضَى } [طه : 130] لعل للمخاطب أي اذكر الله في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك.
وترضى علي وأبو بكر أي يرضيك ربك.
جزء : 3 رقم الصفحة : 106
{ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } [طه : 131] أي نظر عينيك ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به ، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك أن يباده الشيء بالنظر ثم يغض الطرف.
ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في ملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن : لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة ، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب.
وهذا لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها { إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ } [الحجر : 88] أصنافاً من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير والفعل واقع على منهم كأنه قال إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناساً منهم { زَهْرَةَ الْحَيَوَاةِ الدُّنْيَا } [طه : 131] زينتها وبهجتها وانتصب على الذم أو على إبداله من محل به أو على إبداله من أزواجا على تقدير ذوي زهرة { لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } [طه : 131] لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم أو لنعذبهم في الآخرة بسببه { وَرِزْقُ رَبِّكَ } [طه : 131] ثوابه وهو الجنة أو الحلال الكافي { خَيْرٌ وَأَبْقَى } [طه : 73] مما رزقوا { وَأْمُرْ أَهْلَكَ } [طه : 132] أمتك أو أهل بيتك { وَأْمُرْ أَهْلَكَ } [طه : 132] أنت دوام { عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا } [طه : 132] أي لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك
107

{ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ } [طه : 132] وإياهم فلا تهتم لأمر الرزق وفرغ بالك لأمر الآخرة لأن من كان في عمل الله كان الله في عمله.

عن عروة بن الزبير أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ : ولا تمدن عينيك.

الآي ثم ينادي الصلاة ، الصلاة رحمكم الله.

وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا بهذا أمر الله ورسوله.

وعن مالك بن دينار مثله.

وفي بعض المسانيد أنه عليه السلام كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية { وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه : 132] أي وحسن العاقبة لأهل التقوى بحذف المضافين.

جزء : 3 رقم الصفحة : 107

{ وَقَالُوا } أي الكافرون { لَوْلا يَأْتِينَا بِاَايَةٍ مِّن رَّبِّهِ } [طه : 133] هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوته { أَوَلَمْ تَأْتِهِم } أو لم تأتهم مدني وحفص وبصري { بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الاولَى } [طه : 133] أي الكتب المتقدمة يعني أنهم اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة فقيل لهم : أو لم تأتكم آية هي أم الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني القرآن من قبل أن القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقره إلى شهادته على صحة ما فيها { وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ } [طه : 134] من قبل الرسول أو القرآن { لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ } هلا { أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ } [طه : 134] بالنصب على جواب الاستفهام بالفاء { مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى } [طه : 134] بنزول العذاب { وَنَخْزَى } في العقبى { قُلْ كُلٌّ } [طه : 135] أي كل واحد منا ومنكم { مُّتَرَبِّصٌ } منتظر للعاقبة ولما

108

يؤول إليه أمرنا وأمركم { فَتَرَبَّصُوا } أنتم إذا جاءت القيامة { لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ } [فاطر : 6] مبتدأ وخبر ومحلهما نصب { الصِّرَاطِ السَّوِيِّ } [طه : 135] المستقيم { وَمَنِ اهْتَدَى } [طه : 135] إلى النعيم المقيم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم " لا يقرأ أهل الجنة إلا سورة طه ويس "

109

سورة الأنبياء

مكية ، وهي مائة واثنتا عشرة آية كوفي وإحدى عشرة آية مدني وبصري)

{ اقْتَرَبَ } دنا { لِلنَّاسِ } اللام صلة لاقتراب.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالناس المشركون لأن ما يتلوه من صفات المشركين { حِسَابَهُم } وقت محاسبة الله إياهم ومجازاته على أعمالهم يعني يوم القيامة ، وإنما وصفه بالاقتراب لقلة ما بقي بالإضافة إلى ما مضى ولأن كل آتٍ قريب { وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ } [الأنبياء : 1] عن حسابهم

وعما يفعل بهم ثم { مُّعْرِضُونَ } عن التأهب لذلك اليوم فالاقتراب عام والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين ، فرب غافل عن حسابه لاستغراقه في دنياه وإعراضه عن مولاه ، ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه وإعراضه عن دنياه فهو لا يفيق إلا برؤية المولى ، والأول إنما يفيق في عسكر الموتى فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب وتتنبه للعرض قبل أن تنبه ، وتعرض عن الغافلين وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين لتفوز بلقاء رب العالمين { مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ } [الأنبياء : 2] شيء من القرآن { مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ } [الأنبياء : 2] في التنزيل

إثباته ، مبتدأة تلاوته ، قريب عهده باستماعهم ، والمراد به الحروف المنظومة.

ولا خلاف في حدوثه { إِلا اسْتَمَعُوهُ } [الأنبياء : 2] من النبي عليه السلام أو غيره ممن يتلوه { وَهُمْ يَلْعَبُونَ } [الأعراف : 98] يستهزئون به.

جزء : 3 رقم الصفحة : 110

(64/3)

{ لاهِيَةً } حال من ضمير يلعبون أو وهم يلعبون ولاهية حالان من الضمير في استمعوه.

ومن قرأ { لاهِيَةً } بالرفع يكون خبراً بعد خبر لقوله : وهم وارتفعت { قُلُوبِهِمْ } بلاهية وهي من لها عنه إذا ذهل وغفل ، والمعنى قلوبهم غافلة عما يراد بها ، ومنها قال أبو بكر الوارق : القلب اللاهي المشغول بزينة الدنيا وزهرتها الغافل عن الآخرة وأهوالها { وَأَسَرُّوا } وبالغوا في إخفاء { النَّجْوَى } وهي اسم من التناجي.

ثم أبدل { الَّذِينَ ظَلَمُوا } [البقرة : 165] من واو وأسروا إيذاناً بأنهم الموسومون بالظلم فيما أسروا به ، أو جاء على لغة من قال " أكلوني البراغيث " ، أو هو مجرور المحل لكونه صفة أو بدلاً من الناس ، أو هو منصوب المحل على الذم ، أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى فقدم عليه أي والذين ظلموا أسروا النجوى { هَلْ هَاذَآ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ } [الأنبياء : 3] هذا الكلام كله في محل النصب بدل من النجوى أي وأسروا هذا الحديث ويجوز أن يتعلق بـ " قالوا " مضمراً والمعنى أنهم اعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة فهو ساحر ومعجزته سحر ، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر { قَالَ رَبِّى } [الشعراء : 188] حمزة وعلي وحفص أي قال محمد وغيرهم قل ربي أي قل يا محمد للذين أسروا النجوى { يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَآءِ وَالارْضِ } [الأنبياء : 4] أي يعلم قول كل قائل هو في السماء أو الأرض سراً كان أو جهراً { وَهُوَ السَّمِيعُ } [الشورى : 11] لأقوالهم { الْعَلِيمُ } بما في ضمائرهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 111
{ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَام بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ } [الأنبياء : 5] أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام رآها في نومه فتوهمها وحياً من الله إليه ، ثم إلى أنه كلام
111
مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج والمبطل رجاع غير ثابت على قول واحد ، ثم قالوا إن كان صادقاً في دعواه وليس الأمر كما يظن { بَلْ قَالُوا } [الأنبياء : 5] بمعجزة { كَمَآ أُرْسِلَ الاوَّلُونَ } [الأنبياء : 5] كما أرسل من قبله باليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى ، وصحة التشبيه في قوله كما أرسل الأولون من حيث إنه في معنى كما أتى الأولون بالآيات لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ، ألا ترى أنه لا فرق بين قولك " أرسل محمد " وبين قولك " أتى بالمعجزة " فرد الله عليهم قولهم بقوله
جزء : 3 رقم الصفحة : 111
{ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ } [الأنبياء : 6] من أهل قرية { أَهْلَكْنَاهَآ } صفة لـ قرية عند مجيء الآيات المقترحة لأنهم طلبوها تعنتاً { أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ } [الأنبياء : 6] أي أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا مع أنهم أعني منهم ، والمعنى أن أهل القرى اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون لنكثوا أيضاً.
{ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالا } [الأنبياء : 7] هذا جواب قولهم هل هذا إلا بشر مثلكم { نُّوحِى إِلَيْهِمْ } [الأنبياء : 7] { نُوحِى } حفص { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن } [النحل : 43] العلماء بالكتابين فإنهم يعرفون أن الرسل الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة وكان أهل مكة يعتمدون على قولهم { إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] ذلك.
ثم بين أنه كمن تقدمه من الأنبياء بقوله { وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا } [الأنبياء : 8] وحد الجسد لإرادة الجنس { لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } [الأنبياء : 8] صفة لـ جسداً يعني وما جعلنا الأنبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين
112

{ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ } [الأنبياء : 8] كأنهم قالوا هلا كان ملكاً لا يطعم ويخلد ، إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون أو مسمين بقاءهم الممتد وحياتهم المتطاولة خلودا { ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ } [الأنبياء : 9] بإنجائهم والأصل في الوعد مثل { وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ } [الأعراف : 155] أي من

قومه { فَأَنجَيْنَاهُمْ } مما حل بقومهم { وَمَن نَّشَآءُ } [الأنبياء : 9] هم المؤمنون { وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ } [الأنبياء : 9] المجاوزين الحد بالكفر ودل الإخبار بإهلاك المسرفين على أن من نشاء غيرهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 112

{ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ } [الأنبياء : 10] يا معشر قريش { كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ } [الأنبياء : 10] شرفكم إن عملتم به أو لأنه بلسانكم أو فيه موعظتكم أو فيه ذكر دينكم ودنياكم والجملة أي فيه ذكركم صفة لـ كتاباً { أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنوا { وَكَمْ } نصب بقوله { قَصَمْنَا } أي أهلكنا { مِن قَرْيَةٍ } [الشعراء : 208] أي أهلها بدليل قوله { كَانَتْ ظَالِمَةً } [الأنبياء : 11] كافرة وهي واردة عن غضب شديد وسخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم فإنه كسر بلا إبانة { وَأَنشَأْنَا } خلقنا { بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ } [الأنبياء : 11] فسكنوا مساكنهم.

{ فَلَمَّآ أَحَسُّوا } [الأنبياء : 12] أي المهلكون { بَأْسَنَآ } عذابنا أي علموا علم حس ومشاهدة { إِذَا هُم مِّنْهَا } [الأنبياء : 12] من القرية وإذا للمفاجأة وهم مبتدأ والخبر { يَرْكُضُونَ } يهربون مسرعين ، والركض ضرب الدابة بالرجل فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ، أو شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فقيل لهم { لا تَرْكُضُوا } [الأنبياء : 13] والقائل بعض الملائكة { وَارْجِعُوا إِلَى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ } [الأنبياء : 13] نعمتم فيه من الدنيا ولين العيش.

قال الخليل : المترف الموسع عليه عيشه القليل فيه همه

113

{ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } [الأنبياء : 13] أي يقال لهم استهزاء بهم : ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غداً عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتى يسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقولوا لكم بم تأمرون وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدمين ، أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب ، أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحاب أكفكم ، أو قال بعضهم لبعض : لا تركضوا وارجعوا إلى منازلكم وأموالكم لعلكم تسألون مالاً وخراجاً فلا تقتلون ، فنودي من السماء يا لثارات الأنبياء وأخذتهم السيوف فثم

جزء : 3 رقم الصفحة : 113

{ إِلا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } اعترافهم بذلك حين لا ينفعهم الاعتراف.

{ فَمَا زَالَت تِّلْكَ } [الأنبياء : 15] هي إشارة إلى يا ويلنا { دَعْوَاهُمْ } دعاءهم وتلك مرفوع على أنه اسم زالت ودعواهم الخبر ويجوز العكس { حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا } [الأنبياء : 15] مثل الحصيد أي الزرع المحصود ولم يجمع كما لم يجمع المقدر { خَامِدِينَ } ميتين خمود النار و حصيدا خامدين مفعول ثان لـ " جعل " أي جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود كقولك " جعلته حلواً حامضاً "

أي جعلته جامعاً للطعمين.
{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـاعِبِينَ } [الأنبياء : 16] اللعب فعل يروق أوله ولا ثبات له ، ولاعبين حال من فاعل خلقنا والمعنى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلق للهو واللعب ، وإنما سويناها ليستدل بها على قدرة مدبرها ولنجازي المحسن والمسيء على ما تقتضيه حكمتنا ، ثم نزه ذاته عن سمات الحدوث بقوله { لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا } [الأنبياء : 17] أي ولداً أو امرأة كأنه رد على من قال : عيسى ابنه ومريم صاحبته { اتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ } [الأنبياء : 17] من الولدان أو الحور { إِن كُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 17] أي إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله لاستحالته في حقنا.
وقيل : هو

(66/3)

نفي كقوله وإن أدري أي ما كنا فاعلين
جزء : 3 رقم الصفحة : 114
{ بَلْ نَقْذِفُ } [الأنبياء : 18] " بل " إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو بل من سنتنا أن نقذف أي نرمي ونسلط { بِالْحَقِّ } بالقرآن { عَلَى الْبَاطِلِ } [الأنبياء : 18] الشيطان أو بالإسلام على الشرك أو بالجد على اللعب { فَيَدْمَغُهُ } فيكسره ويدحض الحق الباطل ، وهذه استعارة لطيفة لأن أصل استعمال القذف والدمغ في الأجسام ، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل والدمغ لإذهاب الباطل فالمستعار منه حسي والمستعار له عقلي فكأنه قيل : بل نورد الحق الشبيه بالجسم القوي على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف فيبطله إبطال الجسم القوي الضعيف { فَإِذَا هُوَ } [النحل : 4] أي الباطل { زَاهِقٌ } هالك ذاهب { وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } [الأنبياء : 18] الله به من الولد ونحوه.
{ وَلَهُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الأنبياء : 19] خلقاً وملكاً فأنى يكون شيء منه ولداً له وبينهما تنافٍ ويوقف على الأرض لأن ومن عنده منزلة ومكانة لا منزلاً ولا مكاناً يعني الملائكة مبتدأ خبره { لا يَسْتَكْبِرُونَ } [المائدة : 82] لا يتعظمون { عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ } [الأنبياء : 19] ولا يعيون { يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ } [الأنبياء : 20] حال من فاعل يسبحون أي تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر فتسبيحهم جارٍ مجرى التنفس منا.
ثم أضرب عن المشركين منكراً عليهم وموبخاً فجاء بـ " أم " التي بمعنى " بل " والهمزة فقال { أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الارْضِ هُمْ يُنشِرُونَ } [الأنبياء : 21] يحيون الموتى ومن الأرض صفة لـ الهة لأن

الهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب والفضة والحجر أو تعبد في الأرض فنسبت إليها كقولك " فلان من المدينة " أي مدني ، أو متعلق بـ اتخذوا ويكون فيه بيان غاية الاتخاذ ، وفي قوله هم ينشرون زيادة توبيخ وإن لم يدعوا
115
أن أصنامهم تحيي الموتى ، وكيف يدعون ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات لأنه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشار ، لأن العاجز عنه لا يصح أن يكون إلاهاً إذ لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور والإنشار من جملة المقدورات.
وقرأ الحسن ينشرون بفتح الياء وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أي أحياها
جزء : 3 رقم الصفحة : 115
{ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلا اللَّهُ } [الأنبياء : 22] أي غير الله وصفت الهة بـ " إلا " كما وصفت بـ " غير " لو قيل الهة غير الله ، ولا يجوز رفعه على البدل لأن " لو " بمنزلة " إن " في أن الكلام معه موجب والبدل لا يسوغ إلا في الكلام غير الموجب كقوله تعالى { وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ } [هود : 81] ولا يجوز نصبه استثناء لأن الجمع إذا كان منكراً لا يجوز أن يستثنى منه عند المحققين لأنه لا عموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء ، والمعنى لو كان يدبر أمر السماوات والأرض آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما { لَفَسَدَتَا } لخربتا لوجود التمانع وقد قررناه في أصول الكلام.
ثم نزه ذاته فقال { فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنبياء : 22] من الولد والشريك.
{ لا يُسْاَلُ عَمَّا يَفْعَلُ } [الأنبياء : 23] لأنه المالك على الحقيقة ، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس وجواز الخطأ عليه وعدم الملك الحقيقي لاستقبح ذلك وعد سفهاً ، فمن هو مالك الملوك ورب الأرباب وفعله صواب كله أولى بأن لا يعترض عليه { وَهُمْ يُسْاَلُونَ } [الأنبياء : 23] لأنهم مملوكون خطاؤون فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم في كل شيء فعلوه.
وقيل : وهم يسئلون يرجع إلى المسيح والملائكة أي هم مسئولون فكيف يكونون آلهة والألوهية تنافي الجنسية والمسئولية { أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً } [الأنبياء : 24] الإعادة لزيادة الإفادة فالأول للإنكار من حيث العقل ، والثاني من حيث النقل أي وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك فقيل لمحمد { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } [البقرة : 111] حجتكم على ذلك وذا عقلي وهو يأباه كما مر ،
116

أو نقلي وهو الوحي وهو أيضاً يأباه فإنكم لا تجدون كتاباً من الكتب السماوية إلا وفيه توحيده وتنزيهه عن الأنداد { هَاذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ } [الأنبياء : 24] يعني أمته { وَذِكْرُ مَن قَبْلِى } [الأنبياء : 24] يعني أمم الأنبياء من قبلي وهو وارد في توحيد الله ونفي الشركاء عنه.

معي حفص.

فلما لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم فقال { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ } [الأنبياء : 24] أي القرآن وهو نصب بـ يعلمون وقرىء الحق أي هو الحق { فَهُمُ } لأجل ذلك { مُّعْرِضُونَ } عن النظر فيما يجب عليهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 116

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِى إِلَيْهِ } [الأنبياء : 25] { إِلا نُوحِى } [الأنبياء : 25] كوفي غير أبي بكر وحماد { أَنَّهُ لا إِلَاهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء : 25] وحدوني فهذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ } [الأنبياء : 26] نزلت في خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله فنزه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد بقوله { بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } [الأنبياء : 26] أي بل هم عباد مكرمون مشرفون مقربون وليسوا بأولاد إذ العبودية تنافي الولادة { لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ } [الأنبياء : 27] أي بقولهم فأنيبت اللام مناب الإضافة ، والمعنى أنهم يتبعون قوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يتقدمون قوله بقولهم { وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء : 27] أي كما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً مبني على أمره لا يعملون عملاً لم يأمروا به { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [البقرة : 255] أي ما قدموا وأخروا من أعمالهم { وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى } [الأنبياء : 28] أي لمن رضي الله عنه وقال لا إله إلا الله { وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء : 28] خائفون 117

جزء : 3 رقم الصفحة : 117

{ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ } [الأنبياء : 29] من الملائكة { إِنِّى إِلَاهٌ مِّن دُونِهِ } [الأنبياء : 29] من دون الله إني مدني وأبو عمرو { فَذَالِكَ } مبتدأ أي فذلك القائل خبره { نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ } [الأنبياء : 29] وهو جواب الشرط { كَذَالِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ } [يوسف : 75] الكافرين الذين وضعوا الإلاهية في غير موضعها وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والضحاك : قد تحقق الوعيد في إبليس فإنه ادعى الإلاهية لنفسه ودعا إلى طاعة نفسه وعبادته.

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الأنبياء : 30] ألم ير مكي { أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ كَانَتَا } [الأنبياء : 30] أي جماعة السماوات وجماعة الأرض فلذا لم يقل كن { رَتْقًا } بمعنى المفعول أي كانتا مرتوقتين وهو مصدر فلذا صلح أن يقع موقع مرتوقتين { فَفَتَقْنَاهُمَا } فشققناهما ، والفتق الفصل بين الشيئين والرتق ضد الفتق.

فإن قيل : متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا : إنه وارد في القرآن الذي هو معجزة فقام

مقام المرئي المشاهد ، ولأن الرؤية بمعنى العلم وتلاصق الأرض والسماء وتباينهما جائزان في العقل ، فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بد له من مخصص وهو القديم ﷻ.

ثم قيل : إن السماء كانت لاصقة بالأرض لافضاء بينهما ففتقناهما أي فصلنا بينهما بالهواء.

وقيل : كانت السماوات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله تعالى وجعلها سبع سماوات ، وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع أرضين.

وقيل : كانت السماء رتقاً لا تمطر والأرض رتقاً لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيّ } [الأنبياء : 30] أي خلقنا من الماء كل حيوان كقوله { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مّن مَّآءٍ } [النور : 45] أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله { خُلِقَ الانْسَانُ مِنْ عَجَلٍ } [الأنبياء : 37] { أَفَلا يُؤْمِنُونَ } [الأنبياء : 30] يصدقون بما يشاهدون.

جزء : 3 رقم الصفحة : 118

(68/3)

{ وَجَعَلْنَا فِى الارْضِ رَوَاسِىَ } [الأنبياء : 31] جبالاً ثوابت من رسا إذا ثبت { أَن تَمِيدَ بِهِمْ } [الأنبياء : 31] لئلا تضطرب بهم فحذف " لا " واللام ، وإنما جاز حذف " لا " لعدم الالتباس كما 118

تزاد لذلك في { لِّئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ } [الحديد : 29] { وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا } [الأنبياء : 31] أي طرقاً واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع ونصب على الحال من { سُبُلا } متقدمة ، فإن قلت : أي فرق بين قوله تعالى { لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا } [نوح : 20] وبين هذه؟ قلت : الأول للإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة ، والثاني لبيان أنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثم { لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [الأنبياء : 31] ليهتدوا بها إلى البلاد المقصودة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 118

{ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا } [الأنبياء : 32] في موضعه عن السقوط كما قال { وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الارْضِ إِلا بِإِذْنِهِ } [الحج : 65] أو محفوظاً بالشهب عن الشياطين كما قال : { وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ } [الحجر : 17] { وَهُمْ } أي الكفار { عَنْ ءَايَاتِهَا } [الأنبياء : 32] عن الأدلة التي فيها كالشمس والقمر والنجوم { مُّعْرِضُونَ } غير متفكرين فيها فيؤمنون.

{ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ } [الأنبياء : 33] لتسكنوا فيه { وَالنَّهَارَ } لتتصرفوا فيه { وَالشَّمْسُ } لتكون سراج النهار { وَالْقَمَرِ } ليكون سراج الليل { كُلٌّ } التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أي كلهم والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع ، وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم وهو

السباحة { فِى فَلَكٍ } [الأنبياء : 33] عن ابن عباس رضي الله عنهما : الفلك السماء.
والجمهور على أن الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم وكل مبتدأ خبره { يَسْبَحُونَ } يسيرون أي يدورون والجملة في محل النصب على الحال من الشمس والقمر { وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ } [الأنبياء : 34] البقاء الدائم { وَمَا جَعَلْنَآ } [الأنبياء : 34] بكسر الميم مدني وكوفي غير أبي بكر { فَهُمُ الْخَالِدُونَ } [الأنبياء : 34] والفاء الأول لعطف جملة على جملة والثاني لجزاء الشرط ، كانوا يقدرون أنه سيموت فنفى الله عنه الشماتة بهذا أي قضي الله أن لا يخلد في الدنيا بشر أفإن مت أنت أيبقى هؤلاء
119
جزء : 3 رقم الصفحة : 119

(69/3)

{ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم } [الأنبياء : 35] ونختبركم سمي ابتلاء وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لأنه في صورة الاختبار { بِالشَّرِّ } بالفقر والضر { وَالْخَيْرِ } الغني والنفع { فِتْنَةً } مصدر مؤكد لـ نبلوكم من غير لفظه { وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء : 35] فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر.
وعن ابن ذكوان ترجعون.
{ وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ } [الأنبياء : 36] ما يتخذونك { إِلا هُزُوًا } [الفرقان : 41] مفعول ثان لـ يتخذونك نزلت في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلّم فضحك وقال : هذا نبي بني عبد مناف { أَهَاذَا الَّذِى يَذْكُرُ } [الأنبياء : 36] يعيب { ءَالِهَتَكُمْ } والذكر يكون بخير وبخلافه فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء وإن كان عدواً فذم { وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ } [الأنبياء : 36] أي بذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية { هُمْ كَافِرُونَ } [هود : 19] لا يصدقون به أصلاً فهم أحق أن يتخذوا هزواً منك فإنك محق وهم مبطلون.
وقيل : بذكر الرحمن أي بما أنزل عليك من القرآن هم كافرون جاحدون ، والجملة في موضع الحال أي يتخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية وهي الكفر بالله تعالى ، وكرر { هُمْ } للتأكيد ، أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر فأعيد المبتدأ { خُلِقَ الانْسَانُ مِنْ عَجَلٍ } [الأنبياء : 37] فسر بالجنس.
وقيل : نزلت حين كان النضر ابن الحارث يستعجل بالعذاب.
والعجل والعجلة مصدران ، وهو تقديم الشيىء على وقته ، والظاهر أن المراد الجنس وأنه ركب فيه العجلة فكأنه خلق من العجل ولأنه يكثر منه ، والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم " خلق من الكرم "

فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها ثم منعه وزجره كأنه قال : ليس ببدع منه أن يستعجل فإنه مجبول على ذلك وهو طبعه وسجيته فقد ركب فيه.

وقيل : العجل الطين بلغه حمير قال شاعرهم :

جزء : 3 رقم الصفحة : 120

والنخل ينبت بين الماء والعجل

120

وإنما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه كما أمره بقمع الشهوة وقد ركبها فيه ، لأنه أعطاه القوة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة ومن عجل حال أي عجلاً { خَلَقَ الانسَانَ } [الأنبياء : 37] نقماتي { فَلا تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37] بالإتيان بها وهو بالياء عند يعقوب وافقه سهل وعباس في الوصل.

جزء : 3 رقم الصفحة : 120

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْوَعْدُ } [يونس : 48] إتيان العذاب أو القيامة { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 23] قيل : هو أحد وجهي استعجالهم { لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ } [الأنبياء : 39] جواب " لو " محذوف وحين مفعول به ليعلم أي لو يعلمون الوقت الذي يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ولا يجدون ناصراً ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هونه عندهم { بَلْ تَأْتِيهِم } [الأنبياء : 40] الساعة { بَغْتَةً } فجأة { فَتَبْهَتُهُمْ } فتحيرهم أي لا يكفونها بل تفجأهم فتغلبهم { فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا } [الأنبياء : 40] فلا يقدرون على دفعها { وَلا هُمْ يُنظَرُونَ } [البقرة : 162] يمهلون { وَلَقَدِ اسْتُهْزِىَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ } [الأنعام : 10] فحل ونزل { بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم } [الأنعام : 10] جزاء { مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } [النحل : 34] سلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن استهزائهم به بأن له في الأنبياء أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا

121

جزء : 3 رقم الصفحة : 121

{ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم } [الأنبياء : 42] يحفظكم { قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ } [الأنبياء : 42] أي من عذابه إن أتاكم ليلاً أو نهاراً { بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ } [الأنبياء : 42] أي بل هم معرضون عن ذكره ولا يخطورنه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالىء

فصلحوا للسؤال عنه ، والمعنى أنه أمر رسوله بسؤالهم عن الكاليء ، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم.

ثم أضرب عن ذلك بقوله { أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا } [الأنبياء : 43] لما في " أم " من معنى " بل " فقال : ألهم الهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا.

ثم استأنف بقوله { لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ } [الأنبياء : 43] فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره.

ثم قال { بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء وَءَابَآءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ } [الأنبياء : 44] أي ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا ، وما كلأناهم وآناءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وظنوا أنهم دائمون على ذلك وهو أمل كاذب { أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الارْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ } [الأنبياء : 44] أي نقص أرض الكفر ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام ، وذكر { نَأْتِى } يشير بأن الله يجريه على أيدي المسلمين وإن عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها { أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الأنبياء : 44] أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم أي ليس كذاك بل يغلبهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه بنصرنا.

جزء : 3 رقم الصفحة : 122

{ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْىِ } [الأنبياء : 45] أخوفكم من العذاب القرآن { وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ } [الأنبياء : 45] بفتح الياء والميم ورفع الصم ، ولا تسمع الصم شامي على خطاب

122

النبي صلى الله عليه وسلّم { إِذَا مَا يُنذَرُونَ } [الأنبياء : 45] يخوفون.

واللام في الصم للمعهد وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين ، والأصل ولا يسمعون إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا ما أنذروا

جزء : 3 رقم الصفحة : 122

{ وَلَـاِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ } [الأنبياء : 46] دفعة يسيرة { مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ } [الأنبياء : 46] صفة لـ نفحة { لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } أي ولئن مسهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لذلوا ودعوا بالويل على أنفسهم وأقروا أنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا ، وقد بولغ حيث ذكر المس والنفحة لأن النفح يدل على القلة يقال نفحه بعطية : رضخه بها مع أن بناءها للمرة.

وفي المس والنفحه ثلاث مبالغات لأن النفح في معنى القلة والنزارة يقال : نفحته الدابة وهو رمح لين ، ونفحه بعطية رضخه والبناء للمرة.

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ } [الأنبياء : 47] جمع ميزان وهو ما يوزن به الشيء فتعرف كميته.
وعن الحسن : هو ميزان له كفتان ولسان.
وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها كما في قوله { لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ } والوزن لصحائف الأعمال في قول { الْقِسْطَ } وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها في نفسها قسط ، أو على حذف المضاف أي ذوات القسط { لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } [الأنبياء : 47] لأهل يوم القيامة أي لأجلهم { فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئا } [الأنبياء : 47] من الظلم { وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ } [الأنبياء : 47] وإن كان الشيء مثقال حبة مثقال بالرفع : مدني وكذا في " لقمان " على " كان " التامة { مِّنْ خَرْدَلٍ } [الأنبياء : 47] صفة لـ حبة { أَتَيْنَا بِهَا } [الأنبياء : 47] أحضرناها.
وأنت ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم " ذهبت بعض أصابعه " { وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء : 47] عالمين حافظين ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : لأن من حفظ شيئاً حسبه وعلّه.
{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا } [الأنبياء : 48] قيل : هذه الثلاثة هي التوراة فهي فرقان بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به ويتوصل به إلى سبيل النجاة ، وذكر أي شرف أو وعظ وتنبيه أو ذكر ما يحتاج الناس إليه في مصالح دينهم.
ودخلت الواو على الصفات كما في قوله { وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا } [آل عمران : 39] وتقول " مررت
123
بزيد الكريم والعالم والصالح " .
ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله { لِّلْمُتَّقِينَ }
جزء : 3 رقم الصفحة : 123
ومحل { الَّذِينَ } جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه { يَخْشَوْنَ رَبَّهُم } [الملك : 12] يخافونه { بِالْغَيْبِ } حال أي يخافونه في الخلاء { وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ } [الأنبياء : 49] القيامة وأهوالها { مُشْفِقُونَ } خائفون { وَهَاذَآ } القرآن { ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ } [الأنبياء : 50] كثير الخير غزير النفع { أَنزَلْنَاهُ } على محمد { أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } [الأنبياء : 50] استفهام توبيخ أي جاحدون أنه منزل من عند الله.
{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ } [الأنبياء : 51] هداه { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] من قبل موسى وهرون أو من قبل محمد عليه السلام { وَكُنَّا بِهِ } [الأنبياء : 51] بابراهيم أو برشده { عَالِمِينَ } أي علمنا أنه أهل لما آتيناه { إِذْ } إما أن تتعلق بـ اتيناه أو بـ رشده { قَالَ لابِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَاذِهِ التَّمَاثِيلُ } [الأنبياء : 52] أي الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان ، وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها { الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } [الأنبياء : 52] أي لأجل عبادتها مقيمون.

فلما عجزوا عن الإتيان بالدليل على ذلك.

{ قَالُوا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ } [الأنبياء : 53] فقلدناهم { قَالَ } إبراهيم { لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ } [الأنبياء : 54] أراد أن المقلدين والمقلدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر لا يخفى على عاقل ، وأكد بـ أنتم ليصح العطف لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع { قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ } [الأنبياء : 55] بالجد { أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّـٰعِبِينَ } [الأنبياء : 55] أي أجاد أنت فيما تقول أم لاعب استعظاماً منهم إنكاره عليهم واستبعاداً لأن يكون ما هم عليه ضلالاً ،

124

فثم أضرب عنهم مخبراً بأنه جاد فيما قال غير لاعب مثبتاً لربوبية الملك العلام وحدوث الأصنام بقوله

جزء : 3 رقم الصفحة : 124

{ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ } [الأنبياء : 56] أي التماثيل فأنى يعبد المخلوق ويترك الخالق { وَأَنَا عَلَى ذَالِكُم } [الأنبياء : 56] المذكور في التوحيد شاهد { مِّنَ الشَّـٰهِدِينَ } [آل عمران : 81].

{ وَتَاللَّهِ } أصله والله وفي التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطة نمروذ.

(72/3)

{ لاكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم } [الأنبياء : 57] لأكسرنها { بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } [الأنبياء : 57] بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم ، قال ذلك سراً من قومه فسمعه رجل واحد فعرض بقوله { إِنِّى سَقِيمٌ } [الصافات : 89] أي سأسقم ليتخلف.

فرجع إلى بيت الأصنام { فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا } [الأنبياء : 58] قطعاً من الجذ وهو القطع جمع جذاذة كزجاجة وزجاج جذاذا بالكسر : علي ، جمع جذيذ أي مجذوذ كخفيف وخفاف { إِلا كَبِيرًا لَّهُمْ } [الأنبياء : 58] للأصنام أو للكفار أي فكسرها كلها بفأس في يده إلا كبيرها فعلق الفأس في عنقه { لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ } [الأنبياء : 58] إلى الكبير { يَرْجِعُونَ } فيسألونه عن كاسرها فتبين لهم عجزه ، أو إلى إبراهيم ليحتج عليهم ، أو إلى الله لما رأوا عجز التهم { قَالُوا } أي الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك { مَن فَعَلَ هَاذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّـٰلِمِينَ } [الأنبياء : 59] أي إن من فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والتعظيم { قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُا إِبْرَاهِيمُ } [الأنبياء : 60] الجملتان صفتان لـ فتى إلا أن الأول وهو يذكرهم أي يبيعهم لا بد منه للسمع لأنك لا تقول " سمعت زيداً " وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع بخلاف الثاني.

وارتفاع إبراهيم بأنه فاعل يقال فالمراد الاسم المسمى أي الذي يقال له هذا الاسم { قَالُوا } أي نمروذ وأشراف قومه { فَأْتُوا بِهِ } [الأنبياء : 61] أحضروا إبراهيم { عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ } [الأنبياء : 61] في محل الحال بمعنى معايناً مشاهداً أي بمرأى منهم ومنظر

125

{ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } [الأنبياء : 61] عليه بما سمع منه أو بما فعله كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة أو يحضرون عقوبتنا له.

جزء : 3 رقم الصفحة : 125

فلما أحضروه { قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَاذَا بِـَالِهَتِنَا يَـاإِبْرَاهِيمُ } إبراهيم { بَلْ فَعَلَهُ } [الأنبياء : 63] عن الكسائي : إنه يقف عليه أي فعله من فعله ، وفيه حذف الفاعل وأنه لا يجوز ، وجاز أن يكون الفاعل مسنداً إلى الفتى المذكور في قوله سمعنا فتى يذكرهم أو إلى إبراهيم في قوله يا إبراهيم ثم قال { كَبِيرُهُمْ هَاذَا } [الأنبياء : 63] وهو مبتدأ وخبر.

والأكثر أنه لا وقف ، والفاعل كبيرهم وهذا وصف أو بدل ، ونسب الفعل إلى كبيرهم وقصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي تبكيتاً لهم وإلزاماً للحجة عليهم لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم وأنه لا يصلح إلهاً ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق أنيق : أأنت كتبت هذا وصاحبك أمي فقلت له " بل كتبته أنت " كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي ، لأن إثباته للعاجز منكما والأمر كائن بينكما استهزاء به وإثبات للقادر ، ويمكن أن يقال : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه لأن الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه ، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا.

ويحكى أنه قال : غضب أن تعبد هذه الصغار معه وهو أكبر منها فكسرهن ، أو هو متعلق بشرط لا يكون وهو نطق الأصنام فيكون نفياً للمخبر عنه أي بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون ، وقوله { فَسْـَلُوهُمْ } اعتراض.

وقيل : عرض بالكبير لنفسه وإنما أصناف نفسه إليهم لاشتراكهم في الحضور { فَسْـَلُوهُمْ } عن حالهم { إِن كَانُوا يَنطِقُونَ } [الأنبياء : 63] وأنتم تعلمون عجزهم عنه.

{ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ } [الأنبياء : 64] فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم { فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّـالِمُونَ } [الأنبياء : 64] على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين فإن من لا يدفع عن رأسه

126

الفاس ، كيف يدفع عن عابديه البأس؟

جزء : 3 رقم الصفحة : 126

{ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ } قال أهل التفسير : أجرى الله تعالى الحق على لسانهم في القول الأول ، ثم أدركتهم الشقاوة أي ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم ، يقال : نكسته قلبته فجعلت أسفله أعلاه أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤوا بالفكرة الصالحة ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ } [الأنبياء : 65] فكيف تأمرنا بسؤالها؟ والجملة سدت مسد مفعولي علمت والمعنى لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم؟ { قَالَ } محتجاً عليهم { أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شيئا } هو في موضع المصدر أي نفعاً { وَلا يَضُرُّكُمْ } [الأنبياء : 66] إن لم تعبدوه { أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [الأنبياء : 67] " أف " صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر ، ضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق فتأفف بهم واللام لبيان المتأفف به أي لكم ولالهتكم هذا التأفف أف مدني وحفص ، أفّ مكي وشامي أفّ غيرهم { أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] أن من هذا وصفه لا يجوز أن يكون إلهاً.

فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب { قَالُوا حَرِّقُوهُ } [الأنبياء : 68] بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظع { وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ } [الأنبياء : 68] بالانتقام منه { إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } [يوسف : 10] أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له أهول المعاقبات وهو الإحراق بالنار وإلا فرطتم في نصرتها ، والذي أشار بإحراقه نمروذ أو رجل من أكراد فارس.

وقيل : إنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً بكوثى وجمعوا شهراً أصناف الخشب ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجو من وهجها ،

127

ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فرموا به فيها وهو يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، وقال له جبريل : هل لك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا.

قال : فسل ربك.

قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي.

وما أحرقت النار إلا وثاقه.

وعن ابن عباس : إنما نجا بقوله " حسبي الله ونعم الوكيل " .

جزء : 3 رقم الصفحة : 127

{ قُلْنَا يَانَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } أي ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام { عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] أراد أبردي فيسلم منك إبراهيم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها.

والمعنى أن الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق كما كانت وهو على كل شيء قدير { وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا } [الأنبياء : 70] إحراقاً { فَجَعَلْنَاهُمُ الاخْسَرِينَ } [الأنبياء : 70] فأرسل على نمروذ وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت بعوضة في دماغ نمروذ فأهلكته { وَنَجَّيْنَاهُ } أي إبراهيم { وَلُوطًا } ابن أخيه هاران من العراق { إِلَى الارْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 71] أي أرض الشام وبركتها أن أكثر الأنبياء منها فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغني والفقير.

وقيل : ما من ماء عذب في الأرض إلا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس.

روي أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

وقال عليه السلام " إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم " .

{ وَوَهَبْنَا لَهُا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً } [الأنبياء : 72] قيل : هو مصدر كالعافية من غير لفظ

الفعل السابق أي وهبنا له هبة : وقيل : هي ولد الولد وقد سأل ولداً فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة أي زيادة فضلاً من غير سؤال وهي حال من يعقوب { وَكُلا } أي إبراهيم وإسحق ويعقوب وهو المفعول الأول لقوله { جَعَلْنَآ } والثاني { صَالِحِينَ } في الدين والنبوة

(74/3)

{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَاِمَّةً } [القصص : 41] يقتدى بهم في الدين { يَهْدُونَ } الناس { بِأَمْرِنَا } بوحينا { وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ } [الأنبياء : 73] وهي جميع الأعمال الصالحة وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات.

وكذلك قوله { وَجَعَلْنَاهُمْ أَاِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } [الأنبياء : 73] والأصل وإقامة الصلاة إلا أن المضاف إليه جعل بدلاً من الهاء { وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء : 73] لا للإصنام فأنتم يا معشر العرب أولاد إبراهيم فاتبعوه في ذلك.

{ وَلُوطًا } انتصب بفعل يفسره { حُكْمًا وَعِلْمًا } [يوسف : 22] حكمة وهي ما يجب فعله من العمل أو فصلاً بين الخصوم أو نبوة { وَعِلْمًا } فقهاً { وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ } [الأنبياء : 74] من أهلها وهي سدوم { الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ } [الأنبياء : 74] اللواطة والضراط وحذف المارة بالحصى وغيرها { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ } [الأنبياء : 74] خارجين عن طاعة الله { وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَآ } [الأنبياء : 75] في أهل رحمتنا أو في الجنة { إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } [الأنبياء : 75] أي جزاء له على صلاحه كما أهلكنا قومه عقاباً على فسادهم { وَنُوحًا } أي واذكر نوحاً { إِذْ نَادَى } [الأنبياء : 83]

أي دعا على قومه بالهلاك
129
{ مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] من قبل هؤلاء المذكورين { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } [الأنبياء : 84] أي دعاءه { فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ } [الشعراء : 170] أي المؤمنين من ولده وقومه { مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ } [الأنبياء : 76] من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان
جزء : 3 رقم الصفحة : 129
{ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَآ } [الأنبياء : 77] منعناه منهم أي من أذاهم { إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ } [الأنبياء : 77] صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم.
{ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ } أي واذكرهما { إِذْ } بدل منهما { يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ } [الأنبياء : 78] في الزرع أو الكرم { إِذْ } ظرف لـ يحكمان { نَفَشَتْ } دخلت { فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ } [الأنبياء : 78] ليلاً فأكلته وأفسدته والنفش انتشار الغنم ليلاً بلا راع { وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ } [الأنبياء : 78] أرادهما والمتحاكمين إليهما { شَاهِدِينَ } أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا.
{ فَفَهَّمْنَاهَا } أي الحكومة أو الفتوى { سُلَيْمَانُ } وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان صلوات الله عليه.
وقصته أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلاً فتحاكما إلى داود فحكم بالغنم لأهل الحرث وقد استوت قيمتاهما أي قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة غير هذا أرفق بالفريقين ، فعزم عليه ليحكمن فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادان.
فقال : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك ، وكان ذلك باجتهاد منهما وهذا كان في شريعتهم ، فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد ، وعند الشافعي رحمه الله يجب الضمان بالليل.
وقال الجصاص : إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها.
ونسخ الضمان بقوله عليه السلام
130
" العجماء جبار " (1).
وقال مجاهد : كان هذا صلحاً وما فعله داود كان حكماً والصلح خير { وَكُلا } من داود وسليمان { حُكْمًا وَعِلْمًا } [الأنبياء : 79] نبوة { وَعِلْمًا } معرفة بموجب الحكم { وَسَخَّرْنَا } وذللنا { مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ } وهو حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلاً قال : كيف سخرهن؟ فقال : يسبحن { وَالطَّيْرُ } معطوف على الجبال أو مفعول معه ، وقدمت الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد.

روي أنه كان يمر بالجبال مسبحاً وهي تتجاوبه : وقيل : كانت تسير معه حيث سار { وَكُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 79] بالأنبياء مثل ذلك وإن كان عجباً عندكم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 130

(75/3)

{ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ } [الأنبياء : 80] أي عمل اللبوس والدروع واللبوس اللباس والمراد الدرع { لِتُحْصِنَكُم } شامي وحفص أي الصنعة ، وبالنون : أبو بكر وحماد أي الله عز وجل ، وبالياء : غيرهم أي اللبوس أو الله عز وجل { مِّن بَأْسِكُمْ } [الأنبياء : 80] من حرب عدوكم { فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ } [الأنبياء : 80] استفهام بمعنى الأمر أي فاشكروا الله على ذلك { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ } [الأنبياء : 81] أي وسخرنا له الريح { عَاصِفَةً } حال أي شديدة الهبوب ووصفت في موضع آخر بالرخاء لأنها تجري باختياره ، وكانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم إرادته { تَجْرِى بِأَمْرِهِ } [ص : 36] بأمر سليمان { إِلَى الارْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا } [الأنبياء : 71] بكثرة الأنهار والأشجار والثمار والمراد الشام ، وكان منزله بها وتحمله الريح من نواحي الأرض إليها { وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ } [الأنبياء : 81] وقد أحاط علمنا بكل شيء فتجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا { وَمِنَ الشَّيَاطِينِ } [الأنبياء : 82] أي وسخرنا منهم { مَن يَغُوصُونَ لَهُ } [الأنبياء : 82] في البحار بأمره لاستخراج الدر وما يكون فيها { وَيَعْمَلُونَ عَمَلا دُونَ ذَالِكَ } [الأنبياء : 82] أي دون الغوص وهو بناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان { وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } [الأنبياء : 82] أن يزيغوا
131
عن أمره أو يبدلوا أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه.
جزء : 3 رقم الصفحة : 131
{ وَأَيُّوبَ } أي واذكر أيوب { إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى } [الأنبياء : 83] أي دعا بأني { مَسَّنِىَ الضُّرُّ } [الأنبياء : 83] الضر بالفتح الضرر في كل شيء وبالضم الضرر في النفس من مرض أو هزال { وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [الأعراف : 151] ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه قال : أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر الذي مسه.
عن أنس رضي الله عنه : أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة ولم يشتك وكيف يشكو من قيل له { إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ } [ص : 44] وقيل : إنما شكا إليه تلذذاً بالنجوى لا منه تضرراً بالشكوى ، والشكاية إليه غاية القرب كما أن الشكاية منه غاية البعد {

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } [الأنبياء : 84] أجبنا دعاءه { فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ } [الأنبياء : 84] فكشفنا ضره إنعاماً عليه { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا } [الأنبياء : 84] روي أن أيوب عليه السلام كان روميا من ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام وله سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة الاف شاة وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو ثلاث سنين ، وقالت له امرأته يوماً : لو دعوت الله عز وجل.

فقال : كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت : ثمانين سنة.

فقال : أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي.

فلما كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم ورزقه مثلهم معهم { رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا } [الأنبياء : 84] هو مفعول له { وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } [الأنبياء : 84] يعني رحمة لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 132

{ وَإِسْمَاعِيلَ } بن إبراهيم { وَإِدْرِيسَ } بن شيت بن آدم { وَذَا الْكِفْلِ } [الأنبياء : 85] أي اذكرهم وهو الياس أو زكريا أو يوشع بن نون ، وسمي به لأنه ذو الحظ من الله

132

والكفل الحظ { كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ } [الأنبياء : 85] أي هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر

جزء : 3 رقم الصفحة : 132

{ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ } [الأنبياء : 86] نبوتنا أو النعمة في الآخرة { إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ } [الأنبياء : 86] أي ممن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد.

(76/3)

{ وَذَا النُّونِ } [الأنبياء : 87] أي اذكر صاحب الحوت والنون الحوت فأضيف إليه { إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا } [الأنبياء : 87] حال أي مراغماً لقومه.

ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها.

روي أنه برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله وبغضاً للكفر وأهله وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ } [الأنبياء : 87] نضيق { عَلَيْهِ } وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه دخل يوماً على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك.

قال : وما هي يا معاوية؟ فقرأ الآية.
فقال : أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة { فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ } [الأنبياء : 87] أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ } [البقرة : 17] أو ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت { ءَانٍ } أي بأنه { لا إِلَاهَ إِلا أَنتَ } [الأنبياء : 87] أو بمعنى أي { سُبْحَانَكَ إِنّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء : 87] لنفسي في خروجي من قوى قبل أن تأذن لي في الحديث " ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له " وعن الحسن : ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم.
{ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ } [الأنبياء : 88] غم الزلة والوحشة والوحدة { وَكَذَالِكَ نُاجِى الْمُؤْمِنِينَ } [الأنبياء : 88] إذا دعونا واستغاثوا بنا.
شامي وأبو بكر بإدغام النون في الجيم عند البعض لأن النون لا تدغم في الجيم.
وقيل : تقديره نجى النجاء المؤمنين فسكن الياء تخفيفاً وأسند الفعل إلى المصدر ونصب المؤمنين بالنجاء لكن فيه إقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول وهذا لا يجوز ، وفيه تسكين الياء وبابه الضرورات.
133
وقيل : أصله " ننجى " من التنجية فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين كما حذفت إحدى التاءين في { أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائكَةُ } [القدر : 4]
جزء : 3 رقم الصفحة : 133
{ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْدًا } [الأنبياء : 89] سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولا يدعه وحيداً بلا وارث ، ثم رد أمره إلى الله مستسلماً فقال { وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ } [الأنبياء : 89] أي فإن لم تزرقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث أي باق { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ } ولداً { يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُا } [الأنبياء : 90] جعلناها صالحة للولادة بعد العقار أي بعد عقرها أو حسنة وكانت سيئة الخلق { أَنَّهُمْ } أي الأنبياء المذكورين { كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ } [الأنبياء : 90] أي أنهم إنما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها { وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } [الأنبياء : 90] أي طمعاً وخوفاً كقوله { يَحْذَرُ الاخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبّهِ } وهما مصدران في موضع الحال أو المفعول له أي للرغبة فينا والرهبة منا { وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء : 90] متواضعين خائفين.
{ وَالَّتِى } أي واذكر التي { أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا } [التحريم : 12] حفظته من الحلال والحرام { فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا } [الأنبياء : 91] أجرينا فيها روح المسيح أو أمرنا جبريل فنفخ في جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها ، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام { وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ ءَايَةً } [الأنبياء : 91] مفعول ثان { لّلْعَالَمِينَ } وإنما لم يقل آيتين كما قال { وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ } [الإسراء : 12] لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير

فحل ، أو التقدير وجعلناها آية وابنها كذلك فـ آية مفعول المعطوف عليه ويدل عليه قراءة من قرأ آيتين
134
جزء : 3 رقم الصفحة : 134

(77/3)

{ إِنَّ هَاذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [الأنبياء : 92] لأمة الملة وهذه إشارة إلى ملة الإسلام وهي ملة جميع الأنبياء.

و { أُمَّةً وَاحِدَةً } [يونس : 19] أي متوحدة غير متفرقة والعالم ما دل عليه اسم الإشارة أي أن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء : 92] أي ربيتكم اختياراً فاعبدوني شكراً وافتخاراً والخطاب للناس كافة.

{ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ } [الأنبياء : 93] أصل الكلام وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، والمعنى وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً وصاروا فرقاً وأحزاباً.

ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة { كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } [الأنبياء : 93] فنجازيهم على أعمالهم { فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ } [الأنبياء : 94] شيئاً { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } [الإسراء : 19] بما يجب الإيمان به { فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ } [الأنبياء : 94] أي فإن سعيه مشكور مقبول والكفران مثل في حرمان الثواب كما أن الشكر مثل في إعطائه وقد نفى نفي الجنس ليكون أبلغ { وَإِنَّا لَهُ } [الأنبياء : 94] للسعي أي الحفظة بأمرنا { كَاتِبُونَ } في صحيفة عمله فنثيبه به { وَحَرَامٌ } وحرم كوفي غير حفص وخلف وهما لغتان كحل وحلال وزناً وضده معنى والمراد بالحرام الممتنع وجوده { عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ } [الأنبياء : 95] والمعنى وممتنع على مهلك غير ممكن أن لا يرجع إلى الله بالبعث ، أو حرام على قرية أهلكناها أي قدرنا إهلاكهم أو حكمنا بإهلاكهم ذلك وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور أنهم لا يرجعون من الكفر إلى الإسلام.

جزء : 3 رقم الصفحة : 135

{ حَتَّى } هي التي يحكى بعدها الكلام والكلام المحكي الجملة من الشرط والجزاء أعني { إِذَآ } و " ما " في حيزها { فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ } [الأنبياء : 96] أي فتح
135
سدهما فحذف المضاف كما حذف المضاف إلى قرية فتّحت : شامي وهما قبيلتان من جنس الإنس.

يقال : الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج { وَهُمْ } راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر.

وقيل : هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد { مِّن كُلِّ حَدَبٍ } [الأنبياء : 96] نشز من الأرض أي ارتفاع { يَنسِلُونَ } يسرعون

جزء : 3 رقم الصفحة : 135

{ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ } [الأنبياء : 97] أي القيامة وجواب إذا { فَإِذَا هِىَ } [الأعراف : 108] وهي " إذا " المفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله { إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } [الروم : 36] فإذا جاءت الفاء معها تعاونتاً على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ، ولو قيل فهي شاخصة أو إذا هي شاخصة كان سديداً وهي ضمير مبهم يوضحه الأبصار ويفسره { شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الأنبياء : 97] أي مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه { يَاوَيْلَنَآ } متعلق بمحذوف تقديره يقولون يا ويلنا و يقولون حال من الذين كفروا { قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَاذَا } [الأنبياء : 97] اليوم { بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ } [الأنبياء : 97] بوضعنا العبادة في غير موضعها.

{ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [الأنبياء : 98] يعني الأصنام وإبليس وأعوانه لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم { حَصَبُ } حطب وقرىء حطب { جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } [الأنبياء : 98] فيها داخلون { لَوْ كَانَ هؤلاء ءَالِهَةً } [الأنبياء : 99] كما زعمتم { مَّا وَرَدُوهَا } [الأنبياء : 99] ما دخلوا النار { وَكُلٌّ } أي العابد والمعبود { فِيهَآ } في النار { خَالِدُونَ * لَهُمْ } للكفار { فِيهَا زَفِيرٌ } [هود : 106] أنين وبكاء وعويل.

جزء : 3 رقم الصفحة : 136

{ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ } [الأنبياء : 100] شيئاً ما لأنهم صاروا صماً وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى } [الأنبياء : 101] الخصلة المفضلة في الحسن

136

تأنيث الأحسن وهي السعادة أو البشرى بالثواب أو التوفيق للطاعة فنزلت جواباً لقول ابن الزبعري عند تلاوته عليه السلام على صناديد قريش { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [الأنبياء : 98] إلى قوله خالدون أليس اليهود عبدوا عزيراً ، والنصارى المسيح ، وبنو مليح الملائكة على أن قوله وما تعبدون لا يتناولهم لأن " ما " لمن لا يعقل إلا أنهم أهل عناد فزيد في البيان { أُوْلَئك } يعني عزيراً والمسيح والملائكة { عَنْهَا } عن جهنم { مُبْعَدُونَ } لأنهم لم يرضوا بعبادتهم.

وقيل : المراد بقوله إن الذين سبقت لهم منا الحسنى جميع المؤمنين لما روي أن عليًّا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : " أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن

عوف " وقال الجنيد رحمه الله : سبقت لهم منا العناية في البداية فظهرت لهم الولاية في النهاية
جزء : 3 رقم الصفحة : 136
{ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا } [الأنبياء : 102] صوتها الذي يحس وحركة تلهبها وهذه مبالغة في الإبعاد عنها أي لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها { وَهُمْ فِى مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ } [الأنبياء : 102] من النعيم { خَالِدُونَ } مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة { لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الاكْبَرُ } [الأنبياء : 103] النفخة الأخيرة { وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائكَةُ } [الأنبياء : 103] أي تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون { هَاذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ } [الأنبياء : 103] أي هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم في الدنيا.
العامل في { يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ } [الأنبياء : 104] لا يحزنهم أو تتلقاهم تطوى السماء يزيد ، وطيها تكوير نجومها ومحو رسومها أو هو ضد النشر نجمعها ونطويها
137
{ كَطَىِّ السِّجِلِّ } [الأنبياء : 104] أي لصحيفة { لِلْكُتُبِ } حمزة وعلي وحفص أي للمكتوبات أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة وغيرهم للكتاب أي كما يطوى الطومار للكتابة ، أو لما يكتب فيه لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب.
وقيل : السجل : ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه.
وقيل : كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلّم.
والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها والطي مضاف إلى الفاعل وعلى الأول إلى المفعول { كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ } [الأنبياء : 104] انتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده و " ما " موصولة أي نعيد مثل الذي بدأناه نعيده ، و أول خلق ظرف لـ بدأنا أي أول ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى.
وأول الخلق إيجاده أي فكما أوجده أو لا يعيده ثانياً تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء.
والتنكير في خلق مثله في قولك " هو أول رجل جاءني " تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع { وَعْدًا } مصدر مؤكد لأن قوله تعيده عدة للإعادة { عَلَيْنَآ } أي وعدا كائناً لا محالة { إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 104] ذلك أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال.
جزء : 3 رقم الصفحة : 137
{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ } [الأنبياء : 105] كتاب داود عليه السلام { مِن بَعْدِ الذِّكْرِ } [الأنبياء : 105] التوراة { إِنَّ الارْضَ } [الأعراف : 128] أي الشام { يَرِثُهَا عِبَادِىَ } [الأنبياء : 105] ساكنة الياء : حمزة غيره بفتح الياء { الصَّالِحُونَ } أي أمة محمد عليه السلام ، أو الزبور بمعنى المزبور أي

المكتوب يعني ما أنزل على الأنبياء من الكتب.
والذكر أم الكتاب يعني اللوح لأن الكل اخذوا منه.
دليله قراءة حمزة وخلف بضم الزاي على جمع الزبر بمعنى المزبور والأرض أرض الجنة.
{ إِنَّ فِى هَاذَا } [الأنبياء : 106] أي القرآن أو في المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ { لَبَلَـٰغًا } لكفاية وأصله ما تبلغ به البغية { لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ } [الأنبياء : 106] موحدين وهم أمة محمد عليه السلام { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً } [الأنبياء : 107] قال عليه السلام " إنما أنا رحمة مهداة "
138

(79/3)

{ لِّلْعَالَمِينَ } لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ومن لم يتبع فإنما أتي من نفسه حيث ضيع نصيبه منها.
وقيل : هو رحمة للمؤمنين في الدارين وللكافرين في الدنيا بتأخير العقوبة فيها.
وقيل : هو رحمة للمؤمنين والكافرين في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال والمسخ والخسف.
و رحمة مفعول له أو حال أي ذا رحمة
جزء : 3 رقم الصفحة : 138
{ قُلْ إِنَّمَآ } [الأعراف : 203] إنما لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم نحو " إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد " .
وفاعل { يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ } [الكهف : 110] والتقدير يوحي إليَّ وحدانية إلهي ، ويجوز أن يكون المعنى أن الذي يوحي إليّ فتكون " ما " موصولة { فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ } [هود : 14] استفهام بمعنى الأمر أي أسلموا { فَإِن تَوَلَّوْا } [المائدة : 49] عن الإسلام { فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ } [الأنبياء : 109] أعلمتكم ما أمرت به { عَلَى سَوَآءٍ } [الانفال : 58] حال أي مستوين في الإعلام به ولم أخصص بعضكم ، وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية { وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ } [الأنبياء : 109] أي لا أدري متى يكون يوم القيامة لأن الله تعالى لم يطلعني عليه ولكني أعلم بأنه كائن لا محالة ، أو لا أدري متى يحل بكم العذاب إن لم تؤمنوا { إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ } [الأنبياء : 110] إنه عالم بكل شيء يعلم ما تجاهرونني به من الطعن في الإسلام وما تكتمونه في صدوركم من الأحقاد للمسلمين وهو مجازيكم عليه.
{ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ } [الأنبياء : 111] وما أدري لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون { وَمَتَـٰعٌ إِلَى حِينٍ } [البقرة : 36] وتمتيع لكم إلى الموت ليكون ذلك حجة

عليكم { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ } [الأنبياء : 112] اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل ، أو بما يحق
139
عليهم من العذاب ولا تحابهم وشدد عليهم كما قال " واشدد وطأتك على مضر " .
قال رب حفص على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم رب احكم يزيد ربي أحكم زيد عن يعقوب { وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ } [الأنبياء : 112] العاطف على خلقه { الْمُسْتَعَانُ } المطلوب منه المعونة { عَلَى مَا تَصِفُونَ } [يوسف : 18] وعن ابن ذكوان بالياء ، كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين وخذلهم
140

سورة الحج

مكية وهي ثمان وسبعون آية

{ تُفْلِحُونَ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ } [النساء : 1] أمر بني آدم بالتقوى ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة بقوله { إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ } [الحج : 1] لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى الذي يؤمنهم من تلك الأفزاع.

والزلزلة شدة التحريك والإزعاج ، وإضافة الزلزلة إلى الساعة إضافة المصدر إلى فاعله كأنها هي التي تزلزل الأرض على المجاز الحكمي ، أو إلى الظرف لأنها تكون فيها كقوله (بل مكر الليل والنهار).

ووقتها يكون يوم القيامة أو عند طلوع الشمس من مغربها ، ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً فإن هذا اسم لها حال وجودها وانتصب { يَوْمَ تَرَوْنَهَا } [الحج : 2] أي الزلزلة أو الساعة بقوله { تَذْهَلُ } تغفل.

والذهول : الغفلة { كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ } [الحج : 2] عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل.

وقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا حدث وقد ألقمت
141

الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة إذ المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به { وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ } [الحج : 2] أي حبلى { حَمْلَهَا } ولدها قبل تمامه.

عن الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام { وَتَرَى النَّاسَ } [الحج : 2] أيها الناظر { سُكَارَى } على التشبيه لما شاهدوا بساط العزة وسلطنة الجبروت وسرادق الكبرياء حتى قال كل نبي : نفسي نفسي { وَمَا هُم بِسُكَارَى } [الحج : 2] على التحقيق { وَلَاكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } [الحج : 2] فخوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه.

وعن الحسن : وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب.

سكرى فيهما بالإمالة : حمزة وعلي وهو كعطشى في عطشان.

روي أنه نزلت الآيتان ليلاً في غزوة بني المصطلق فقرأهما النبي عليه السلام فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 141

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ } [الحج : 3] في دين الله { بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : 25] حال.

نزلت في النضر بن الحرث وكان جدلاً يقول الملائكة : بنات الله.

والقرآن : أساطير الأولين.

والله غير قادر على إحياء من بلي ، أو هي عامة في كل من يخاصم في الدين بالهوى { وَيَتَّبِعُ } في ذلك { كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ } [الحج : 3] عاتٍ مستمر في الشر.

ولا وقف على مريد لأن ما بعده صفته { كُتِبَ عَلَيْهِ } [الحج : 4] قضي على الشيطان

142

{ أَنَّهُ مَن تَوَلاهُ } [الحج : 4] تبعه أي تبع الشيطان { فَأَنَّهُ } فأن الشيطان { يُضِلُّهُ } عن سواء السبيل { وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } [الحج : 4] النار.

قال الزجاج : الفاء في فأنه للعطف و " أن " مكررة للتأكيد.

ورد عليه أبو علي وقال : إن " من " إن كان للشرط فالفاء دخل لجزاء الشرط ، وإن كان بمعنى الذي فالفاء دخل على خبر المبتدأ والتقدير : فالأمر أنه يضله.

قال : والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الأول ، والمعنى كتب على الشيطان إضلال من تولاه وهدايته إلى النار.

ثم ألزم الحجة على منكري البعث فقال

جزء : 3 رقم الصفحة : 142

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ } [الحج : 5] يعني إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم وقد كنتم في الابتداء تراباً وماء ، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا وهو صيرورة الخلق تراباً وماء { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم } [الحج : 5] أي أباكم { مِّن تُرَابٍ ثُمَّ } [الروم : 20] خلقتم { مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } [الحج : 5] أي قطعة دم جامدة { ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ } [الحج : 5] أي لحمة صغيرة قدر ما يمضغ { مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ } [الحج : 5] المخلقة المسواة الملساء من النقصان

والعيب كأن الله عز وجل يخلق المضغة متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم.

وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة { لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } [الحج : 5] بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً ولا مناسبة بين التراب والماء وقدر أن يجعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً قادر على إعادة ما بدأه { وَنُقِرُّ } بالرفع عند غير المفضل مستأنف بعد وقف.

أي نحن نثبت { فِى الارْحَامِ مَا نَشَآءُ } [الحج : 5] ثبوته { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [نوح : 4] أي وقت الولادة وما لم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام

جزء : 3 رقم الصفحة : 143

{ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ } [الحج : 5] من الرحم { طِفْلا } حال وأريد به الجنس فلذا لم يجمع ، أو أريد به ثم نخرج كل واحد منكم طفلاً { ثُمَّ لِتَبْلُغُوا } [غافر : 67] ثم نربيكم لتبلغوا { أَشُدَّكُمْ } كمال عقلكم وقوتكم وهو من ألفاظ الجموع التي لا يستعمل لها واحد { وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى } [غافر : 67] عند بلوغ الأشد أو قبله أو بعده { وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ } [النحل : 70] أخسه يعني الهرم والخرف

143

(81/3)

{ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شيئا } [الحج : 5] أي لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه أو لكيلا يستفيد علماً وينسى ما كان عالماً به.

ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال { وَتَرَى الارْضَ هَامِدَةً } [الحج : 5] ميتة يا بسة { فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ } [الحج : 5] تحركت بالنبات { وَرَبَتْ } وانتفخت.

وربأت حيث كان : يزيد ارتفعت { وَأَنابَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ } [الحج : 5] صنف { بَهِيجٍ } حسن صار للناظرين إليه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 143

{ ذَالِكَ } مبتدأ خبره { بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ } [الحج : 62] أي ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا وهو أن الله هو الحق أي الثابت الوجود { وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى } [الحج : 6] كما أحيا الأرض { وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [الحج : 6] قادر { وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ } [الحج : 7] أي أنه حكيم لا يخلف الميعاد وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى

اللَّهِ } [الحج : 3] في صفاته فيصفه بغير ما هو له.
نزلت في أبي جهل { بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : 25] ضروري { وَلا هُدًى } [الحج : 8] أي استدلال لأنه يهدي إلى المعرفة { وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ } [الحج : 8] أي وحي والعلم للإنسان من أحد هذه الوجود الثلاثة { ثَانِيَ عِطْفِهِ } [الحج : 9] حال أي لاوياً عنقه عن طاعة الله كبراً وخيلاء.
وعن الحسن : ثاني عطفه بفتح العين أي مانع تعطفه إلى غيره { لِيُضِلَّ } تعليل للمجادلة.
ليضل مكي وأبو عمرو { عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [محمد : 1] دينه { لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } [الحج : 9] أي القتل يوم بدر { وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الحج : 9] أي جمع له عذاب الدارين { ذَالِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ } [الحج : 10] أي السبب في عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه
144
من الكفر والتكذيب ، وكنى عنها باليد لأن اليد آلة الكسب { وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } [آل عمران : 182] فلا يأخذ أحداً بغير ذنب ولا بذنب غيره وهو عطف على بما أي وبأن الله.
وذكر الظلام بلفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع وهو العبيد ، ولأن قليل الظلم منه مع علمه بقبحه واستغنائه كالكثير منا.
جزء : 3 رقم الصفحة : 144
{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ } [الحج : 11] على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة وهو حال أي مضطرباً { فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ } [الحج : 11] صحة في جسمه وسعة في معيشته { اطْمَأَنَّ } سكن واستقر { بِهِ } بالخير الذي أصابه أو بالدين فعبد الله { وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ } [الحج : 11] شر وبلاء في جسده وضيق في معيشته { انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ } [الحج : 11] جهته أي ارتد ورجع إلى الكفر كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه.
قالوا : نزلت في أعاريب قدموا المدينة مهاجرين وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سوياً وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن ، وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شراً وانقلب عن دينه { خَسِرَ الدُّنْيَا وَالاخِرَةَ } [الحج : 11] حال " وقد " مقدرة دليله قراءة روح وزيد خاسر الدنيا والآخرة والخسران في الدنيا بالقتل فيها وفي الآخرة بالخلود في النار { ذَالِكَ } أي خسران الدارين { هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [الحج : 11] الظاهر الذي لا يخفي على أحد.
{ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ } [البقرة : 221–74] يعني الصنم فإنه بعد الردة يفعل كذلك { مَا لا يَضُرُّهُ } [الحج : 12] إن لم يعبده { وَمَا لا يَنفَعُهُ } [الحج : 12] إن عبده { ذَالِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } [إبراهيم : 18] عن الصواب
145
جزء : 3 رقم الصفحة : 145

{ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُا أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ } والإشكال أنه تعالى نفي الضر والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية وأثبتهما لها هنا.

والجواب أن المعنى إذا فهم ذهب هذا الوهم ، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً وهو يعتقد فيه أنه ينفعه ثم قال يوم القيامة : يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ولا يرى لها أثر الشفاعة لمن ضره أقرب من نفعه { لَبِئْسَ الْمَوْلَى } [الحج : 13] أي الناصر الصاحب { وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ } [الحج : 13] المصاحب أو كرر يدعوا كأنه قال : يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً.

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ } [الحج : 14] هذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبد الله على حرف { مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ } [الحج : 15] المعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن ظن من أعاديه غير ذلك { فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ } [الحج : 15] بحبل { إِلَى السَّمَآءِ } [الحج : 15] إلى سماء بيته { ثُمَّ لْيَقْطَعْ } [الحج : 15] ثم ليختنق به ، وسمي الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه.

وبكسر اللام بصري وشامي { فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ } [الحج : 15] أي الذي يغيظه أو " ما " مصدرية أي غيظه ، والمعنى فليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه.

وسمي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ { وَكَذَالِكَ أَنزَلْنَاهُ } [الحج : 16] ومثل ذلك الإنزال أنزل القرآن كله { بَيِّنَاتٍ فَسْالْ } [الإسراء : 101] واضحات { وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ } [الحج : 16] أي ولأن الله يهدي به الذين يعلم أنهم يؤمنون ، أو يثبت الذي آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيّناً.

146

جزء : 3 رقم الصفحة : 146

{ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِاِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } [الحج : 17] قيل : الأديان خمسة : أربعة للشيطان وواحد للرحمن ، والصابئون نوع من النصارى فلا تكون ستة { إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الحج : 17] في الأحوال والأماكن فلا يجازيهم جزاء واحداً ولا يجمعهم في موطن واحد.

وخبر إن الذين آمنوا إن الله يفصل بينهم كما تقول " إن زيداً إن أباه قائم " { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ

شَهِيدٌ } [الحج : 17] عالم به حافظ له فلينظر كل امريء معتقده ، وقوله وفعله وهو أبلغ وعيد.
{ أَلَمْ تَرَ } ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام العيان { أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الارْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ } [الحج : 18] قيل : إن الكل يسجد له ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها قال الله تعالى : { وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَاكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } [الإسراء : 44].
وقيل : سمي مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجوداً له تشبيهاً لمطاوعته بسجود المكلف الذي كل خضوع دونه { وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ } [الحج : 18] أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، أو هو مرفوع على الابتداء ومن الناس صفة له والخبر محذوف وهو مثاب ويدل عليه قوله { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } [الحج : 18] أي وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود { وَمَن يُهِنِ اللَّهُ } [الحج : 18] بالشقاوة { فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ } [الحج : 18] بالسعادة { إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } [الحج : 18] من الإكرام والإهانة وغير ذلك ، وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم لأنهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء.
جزء : 3 رقم الصفحة : 147
{ هَاذَانِ خَصْمَانِ } [الحج : 19] أي فريقان مختصمان ؛ فالخصم صفة وصف بها

الفريق وقوله { اخْتَصَمُوا } للمعنى وهذان للفظ والمراد المؤمنون والكافرون.
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : رجع إلى أهل الأديان المذكورة : فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم { فِى رَبِّهِمْ } [الحج : 19] في دينه وصفاته ، ثم بين جزاء كل خصم بقوله { فَالَّذِينَ كَفَرُوا } [الحج : 19] وهو فصل الخصومة المعني بقوله إن الله يفصل بينهم يوم القيامة { قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ } [الحج : 19] كأن الله يقدر لهم نيراناً على مقادير جثتهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة ، واختير لفظ الماضي لأنه كائن لا محالة فهو كالثابت المتحقق { يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ } بكسر الهاء والميم ، بصري ، وبضمهما : حمزة وعلي وخلف ، وبكسر الهاء وضم الميم : غيرهم { الْحَمِيمُ } الماء الحار.
عن ابن عباس رضي الله عنهما : لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها
جزء : 3 رقم الصفحة : 147
{ يُصْهَرُ } يذاب { بِهِ } بالحميم { مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ } [الحج : 20] أي يذيب أمعاءهم

وأحشاءهم كما يذيب جلودهم فيؤثر في الظاهر والباطن { وَلَهُم مَّقَامِعُ } [الحج : 21] سياط مختصة بهم { مِنْ حَدِيدٍ } [الحج : 21] يضربون بها { كُلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا } [الحج : 22] من النار { مِنْ غَمٍّ } [الحج : 22] بدل الاشتمال من منها بإعادة الجار ، أو الأولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من أجل يعني كلما أرادوا الخروج من النار من أجل غم يلحقهم فخرجوا { أُعِيدُوا فِيهَا } [الحج : 22] بالمقامع ، ومعنى الخروج عند الحسن أن النار تضربهم بلهبها فتلقيهم إلى أعلاها فضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ، والمراد إعادتهم إلى معظم النار لا أنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون إليها { وَذُوقُوا } أي وقيل لهم ذوقوا { عَذَابَ الْحَرِيقِ } [آل عمران : 181] هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال :

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ } جمع أسورة جمع سوار { مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا } [الحج : 23] بالنصب : مدني وعاصم وعلي ويؤتون لؤلؤاً وبالجر : غيرهم عطفاً على من ذهب وبترك الهمزة الأولى في كل القرآن : أبو بكر وحماد

148

{ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } [الحج : 23] إبريسم

{ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ } [الحج : 24] أي أرشد هؤلاء في الدنيا إلى كلمة التوحيد و إلى صراط الحميد أي الإسلام أو هداهم الله في الآخرة وألهمهم أن يقولوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده وهداهم إلى طريق الجنة.

والحميد الله المحمود بكل لسان.

(84/3)

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [الحج : 25] أي يمنعون عن الدخول في الإسلام ويصدون ، حال من فاعل كفروا أي وهم يصدون أي الصدود منهم مستمر دائم كما يقال " فلان يحسن إلى الفقراء " فإنه يراد به إستمرار وجود الإحسان منه في الحال والاستقبال { وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [الحج : 25] أي ويصدون عن المسجد الحرام والدخول فيه { الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ } [الحج : 25] مطلقاً من غير فرق بين حاضر وبادٍ ، فإن أريد بالمسجد الحرام مكة ففيه دليل لا تباع دور مكة وإن أريد به البيت فالمعنى أنه قبلة لجميع الناس { سَوَآءً } بالنصب : حفص مفعول ثانٍ لـ جعلناه أي جعلناه مستوياً { الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } [الحج : 25] وغير المقيم.

بالياء : مكي وافقه أبو عمرو في الوصل وغيره بالرفع على أنه خبر والمبتدأ مؤخر أي العاكف فيه والباد سواء ، والجملة مفعول ثانٍ للناس حال { وَمَن يُرِدْ فِيهِ } [الحج : 25] في المسجد الحرام { بِإِلْحَاد بِظُلْمٍ } [الحج : 25] حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال : ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً ، فالإلحاد العدول عن القصد { نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [الحج : 25] في الآخرة وخبر " ان " محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لاِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ } [الحج : 26] واذكر يا محمد حين جعلنا

149

لإبراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أساسه القديم { ءَانٍ } هي المفسرة للقول المقدر أي قائلين له { لا تُشْرِكْ بِى شيئا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ } [الحج : 26] من الأصنام والأقذار : وبفتح الياء : مدني وحفص { لِلطَّآ ئِفِينَ } لمن يطوف به { وَالْقَآ ئِمِينَ } والمقيمين بمكة { وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [البقرة : 125] المصلين جمع راكع وساجد.

جزء : 3 رقم الصفحة : 149

{ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ } [الحج : 27] ناد فيهم ، والحج هو القصد البليغ إلى مقصد منيع.

روي أنه صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم.

فأجاب من قدر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك.

وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلّم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع.

والأول أظهر وجواب الأمر { يَأْتُوكَ رِجَالا } [الحج : 27] مشاة جمع راجل كقائم وقيام { وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ } [الحج : 27] حال معطوفة على رجال كأنه قال : رجالاً وركباناً.

والضامر البعير المهزول ، وقدم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشات كما ورد في الحديث { يَأْتِينَ } صفة لـ كل ضامر لأنه في معنى الجمع.

وقرأ عبد الله يأتون صفة للرجال والركبان { مِن كُلِّ فَجٍّ } [الحج : 27] طريق { عَمِيقٍ } بعيد.

قال محمد بن يا سين : قال لي شيخ في الطواف : من أين أنت؟ فقلت : من خراسان.

قال : كم بينكم وبين البيت؟ قلت : مسيرة شهرين أو ثلاثة.

قال : فأنتم جيران البيت؟ فقلت : أنت من أين جئت؟ قال : من مسيرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاكتهلت.

قلت : والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فقال :

150

زر من هويت وإن شطت بك الدار

وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعدٌ عن زيارته
إن المحب لمن يهواه زوّار
جزء : 3 رقم الصفحة : 150

(85/3)

واللام في { لِّيَشْهَدُوا } ليحضروا متعلق بـ أذن أو بـ يأتوك { مَنَافِعَ لَهُمْ } [الحج : 28] نكرها لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادة ، وهذا لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم ، أو بالمال كالزكاة ، وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال وخلع الأسباب وقطيعة الأصحاب وهجر البلاد والأوطان وفرقة الأولاد والخلان ، والتنبيه على ما يستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء.
فالحاج إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلا على عتاده ، ولا يأكل إلا من زاده ، فكذا المرء إذا خرج من شاطيء الحياة وركب بحر الوفاء لا ينفع وحدته إلا ما سعى في معاشه لمعاده ، ولا يؤنس وحشته إلا ما كان يأنس به من أوراده ، وغسل من يحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط وتطيبه مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه.
مطيباً بالحنوط ملفاً في كفن غير مخيط.
ثم المحرم يكون أشعث حيران فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان ، ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغباً ورهباً سائلين خوفاً وطمعاً وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العرصات { لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ } [هود : 105] والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء ، ومنى هو موقف المنى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين ، وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف ، والبيت الحرام الذي من دخله كان آمناً من الإيذاء والقتال أنموذج لدار السلام التي هي من نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال غير أن الجنة حفت بمكاره النفس العادية كما أن الكعبة حفت بمتالف البادية ، فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي شوقاً إلى اللقاء يوم التنادي.
{ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ } [الحج : 28] عند الذبح { فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ } [الحج : 28] هي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة رحمه الله وآخرها يوم النحر وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وأكثر المفسرين رحمهم الله وعند صاحبيه هي
151
أيام النحر وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما { عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الانْعَامِ } [الحج : 28] أي على ذبحه وهو يؤيد قولهما والبهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام

وهي الإبل والبقر والضأن والمعز.

جزء : 3 رقم الصفحة : 151

{ فَكُلُوا مِنْهَا } [البقرة : 58] من لحومها ، والأمر للإباحة ، ويجوز الأكل من هدي التطوع والمتعة والقران لأنه دم نسك فأشبه الأضحية ، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا { وَأَطْعِمُوا الْبَآ ئِسَ } [الحج : 28] الذي أصابه بؤس أي شدة { الْفَقِيرَ } الذي أضعفه الإعسار

جزء : 3 رقم الصفحة : 151

{ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } [الحج : 29] ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم كذا قاله نفطويه.

قيل : قضاء التفث قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد ، والتفث : الوسخ والمراد قضاء إزالة التفث.

وقال ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما : قضاء التفث مناسك الحج كلها { وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ } [الحج : 29] مواجب حجهم والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه : وفى بنذره وإن لم ينذر ، أو ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم ، وليوفوا بسكون اللام والتشديد : أبو بكر { وَلْيَطَّوَّفُوا } طواف الزيارة الذي هو ركن الحج ويقع به تمام التحلل.

اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عياش وأبي عمرو { بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ } [الحج : 29] القديم لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم ثم جدده إبراهيم ، أو الكريم ومنه عتاق الخيل لكرائمها ، وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية ، أو لأنه أعتق من الغرق لأنه رفع زمن الطوفان ، أو من أيدي الجبابرة ؛ كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله ، أو من أيدي الملاك فلم يملك قط وهو مطاف أهل الغبراء كما أن العرش مطاف أهل السماء ، فإن الطالب إذا هاجته معيه الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الأرض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل ، فإذا عاين البيت لم يزده التسلي به إلا اشتياقاً ولم يفده التشفي باستلام الحجر إلا احتراقاً ، فيرده الأسف لهفان ويرده اللهف حوله في الدوران ، وطواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث ، وأولها الإحرام وهو عقد 152

(86/3)

الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الإسلام حتى لا يرتفض بارتكاب ما هو محظور فيه ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه ، كما أن عقد الإسلام لا ينحل بازدحام الآثام وترتفع ألف حوبة بتوبة.

وثانيها الوقوف بعرفات بسمة الابتهال في صفة الاهتبال ، وصدق الاعتزال عن دفع الاتكال على مراتب الأعمال وشواهد الأحوال.

جزء : 3 رقم الصفحة : 152

{ ذَالِكَ } خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك أو تقديره ليفعلوا ذلك { وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ } [الحج : 30] الحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله عز وجل بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها ، فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصاً بما يتعلق بالحج.

وقيل : حرمات الله البيت الحرام والمشعر الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام { فَهُوَ } أي التعظيم { خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ } [الحج : 30] ومعنى التعظيم العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها { وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الانْعَامُ } [الحج : 30] أي كلها { إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } [المائدة : 1] آية تحريمه وذلك قوله { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة : 3] الآية.

والمعنى أن الله تعالى أحل لكم الأنعام كلها إلا ما بيّن في كتابه ، فحافظوا على حدوده ولا تحرموا شيئاً مما أحل كتحريم البحيرة ونحوها ، ولا تحلوا مما حرم كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغيرهما.

ولما حث على تعظيم حرماته أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور بقوله { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الاوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } [الحج : 30] لأن ذلك من أعظم الحرمات وأسبقها حظراً.

ومن الأوثان بيان للرجس لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء كأنه قيل : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان.

وسمي الأوثان رجساً على طريقة التشبيه يعني أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس فعليكم أن تنفروا عنها.

وجمع بين الشرك وقول الزور أي الكذب والبهتان أو شهادة الزور وهو من الزور وهو الانحراف ، لأن الشرك من باب الزور إذ المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة.

{ حُنَفَآءَ لِلَّهِ } [الحج : 31] مسلمين { غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } [الحج : 31] حال كحنفاء { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ } [الحج : 31] سقط { مِنَ السَّمَآءِ } [الشعراء : 4] إلى الأرض { فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ } [الحج : 31] أي تسلبه بسرعة فتخطّفه أي تتخطفه مدني { أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ } [الحج : 31] أي تسقطه والهوي السقوط { فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ } [الحج : 31] بعيد.

يجوز أن يكون هذا تشبيهاً مركباً ، ويجوز أن يكون مفرقاً.

فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق قطعاً في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة.

وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي أشرك بالله بالساقط من السماء.

والأهواء المردية بالطير المتخطفة والشيطان الذي هو يوقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

{ ذَالِكَ } أي الأمر ذلك { وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ } [الحج : 32] تعظيم الشعائر وهي الهدايا لأنها

من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حساناً ثماناً غالية الأثمان { فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ } [الحج : 32] أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات.

وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى { لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ } [

جزء : 3 رقم الصفحة : 154

الحج : 33] من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة { إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى } [نوح : 4] إلى أن تنحر { ثُمَّ مَحِلُّهَآ } [الحج : 33] أي وقت وجوب نحرها منتهية { إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ } [الحج : 33] والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت إذ الحرم حريم البيت ومثله في الاتساع قولك " بلغ البلد " وإنما اتصل مسيرك بحدوده.

وقيل : الشعائر المناسك كلها وتعظيمها إتمامها ومحلها إلى البيت العتيق يأباه { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ } [الأعراف : 34] جماعة مؤمنة قبلكم { جَعَلْنَا مَنسَكًا } [الحج : 34] حيث كان بكسر

154

(87/3)

السين بمعنى الموضع : علي وحمزة أي موضع قربان.

وغيرهما : بالفتح على المصدر أي إراقة الدماء وذبح القرابين { لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ } [الحج : 34] دون غيره { عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الانْعَامِ } [الحج : 28] أي عند نحرها وذبحها { فَإِلَـاهُكُمْ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ } [الحج : 34] أي اذكروا على الذبح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد ، وفيه دليل على أن ذكر اسم الله شرط الذبح يعني أن الله تعالى شرع لكل أمة أن ينسكوا له أي يذبحوا له على وجه التقرب ، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك.

وقوله { فَلَهُ أَسْلِمُوا } [الحج : 34] أي أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه له سالماً أي خالصاً لا تشوبوه بإشراك { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } [الحج : 34] المطمئنين بذكر الله أو المتواضعين الخاشعين من الخبت وهو المطمئن من الأرض.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وقيل : تفسيره ما بعده أي

جزء : 3 رقم الصفحة : 154

{ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الانفال : 2] خافت منه هيبة { وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ } [الحج : 35] من المحن والمصائب { الَّذِينَ إِذَا } [الحج : 35] في أوقاتها { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [البقرة : 3] يتصدقون.

{ وَالْبُدْنَ } جمع بدنة سميت لعظم بدنها وفي الشريعة يتناول الإبل والبقر ، وقريء برفعها وهو كقوله

{ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ } [يس : 39] { جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ } [الحج : 36] أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله ، وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها ومن شعائر الله ثاني مفعولي جعلنا { لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ } [الحج : 36] النفع في الدنيا والأجر في العقبى { فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا } [الحج : 36] عند نحرها { صَوَآفَّ } حال من الهاء أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن { فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا } [الحج : 36] وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط أي إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها وسكنت حركتها

155

{ فَكُلُوا مِنْهَا } [البقرة : 58] إن شئتم { وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ } [الحج : 36] السائل من قنعت إليه إذا خضعت له وسألته قنوعاً { وَالْمُعْتَرَّ } الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل.

وقيل : القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعاً وقناعة ، والمعتر المتعرض للسؤال { كَذَالِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ } [الحج : 36] أي كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم ، أو هو كقوله ذلك ومن يعظم ثم استأنف فقال سخرناها لكم أي ذللناها لكم مع قوتها وعظم أجرامها لتتمكنوا من نحرها { لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة : 52] لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 155

{ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَآؤُهَا وَلَاكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ } [الحج : 37] أي لن يتقبل الله اللحوم والدماء ولكن يتقبل التقوى ، أو لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المراقة بالنحر والمراد أصحاب اللحوم والدماء ، والمعنى لن يرضي المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص ورعاية شروط التقوى.

وقيل : كان أهل الجاهلية إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت { كَذَالِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ } [الحج : 37] أي البدن { لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ } [الحج : 37] لتسموا الله عند الذبح أو لتعظموا الله { عَلَى مَا هَدَاكُمْ } [الحج : 37] على ما أرشدكم إليه { وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } [الحج : 37] الممتثلين أوامره بالثواب { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ } [الحج : 38] مكي وبصري وغيرهما يدافع أي يبالغ في الدفع عنهم { يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا } [الحج : 38] أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ونحوه { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا } [غافر : 51] ثم علل ذلك بقوله { إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ } [الحج : 38] في أمانة الله { كَفُورٍ } لنعمة الله أي لأنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها.

{ أُذِنَ } مدني وبصري وعاصم { لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ } [الحج : 39] بفتح التاء مدني وشامي وحفص ، والمعنى أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه { بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا } [الحج : 39] بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، كان مشركو
156
مكة يؤذونهم أذىً شديداً وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلّم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية ، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية { وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ } [الحج : 39] على نصر المؤمنين { لَقَدِيرٌ } قادر وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة وهو مثل قوله إن الله يدافع عن الذين آمنوا
جزء : 3 رقم الصفحة : 156
{ الَّذِينَ } في محل جر بدل من الذين أو نصب بـ " أعني " أو رفع بإضمارهم { أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم } [الحج : 40] بمكة { بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } [الحج : 40] أي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب التمكين لا موجب الإخراج ومثله { هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ } [المائدة : 59] ومحل أن يقولوا جر بدل من حق والمعنى ما أخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم { وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ } [البقرة : 251] دفاع مدني ويعقوب { النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ } [الحج : 40] وبالتخفيف حجازي { صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ } [الحج : 40] أي لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعاً ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات أي كنائس.
وسميت الكنيسة صلاة لأنها يصلي فيها ولا للمسلمين مساجد ، أو لغلب المشركون في أمة محمد صلى الله عليه وسلّم على المسلمين وعلى أهل اكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين ، وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجوداً أو لقربها من التهديم { يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا } [الحج : 40] في المساجد أو في جميع ما تقدم { وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُا } [الحج : 40] أي ينصر دينه وأوليائه { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ } [الحج : 40] على نصر أوليائه { عَزِيزٌ } على انتقام أعدائه.
جزء : 3 رقم الصفحة : 157
{ الَّذِينَ } محله نصب بدل من من ينصره أو جر تابع لـ الذين أخرجوا { الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الارْضِ أَقَامُوا الصَّلَواةَ وَءَاتَوُا الزكاة وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ } [الحج : 41]
157
هو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين ، وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة.
وعن الحسن : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلّم { وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الامُورِ } [الحج : 41] أي مرجعها إلى

حكمه وتقديره ، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمته.
جزء : 3 رقم الصفحة : 157

(89/3)

{ وَإِن يُكَذِّبُوكَ } [فاطر : 25] هذه تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلّم من تكذيب أهل مكة إياه أي لست بأوحدي في التكذيب { فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ } [الحج : 42] قبل قومك { قَوْمُ نُوحٍ } [هود : 89] نوحاً { وَعَادٌ } هوداً { وَثَمُودُ } صالحاً { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ } [التوبة : 70] إبراهيم { وَقَوْمُ لُوطٍ } [الحج : 43] لوطاً { وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ } [التوبة : 70] شعيباً { وَكُذِّبَ مُوسَى } [الحج : 44] كذبه فرعون والقبط ولم يقل وقوم موسى لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه ، أو كأنه قيل بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وظهور معجزاته فما ظنك بغيره { فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ } [الحج : 44] أمهلتهم وأخرت عقوبتهم { ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } [الرعد : 32] عاقبتهم على كفرهم { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج : 44] إنكاري وتغييري حيث أبدلتهم بالنعم نقماً وبالحياة هلاكاً وبالعمارة خراباً.
نكيري بالياء في الوصل والوقف : يعقوب { فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا } [الحج : 45] أهلكتها بصري { وَهِيَ ظَالِمَةٌ } [هود : 102] حال أي وأهلها مشركون { فَهِيَ خَاوِيَةٌ } [الحج : 45] ساقطة من خوى النجم إذا سقط { عَلَى عُرُوشِهَا } [البقرة : 259] يتعلق بـ خاوية والمعنى أنها ساقطة على سقوفها أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، ولا محل لـ فهي خاوية من الإعراب لأنها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل ، وهذا إذا جعلنا منصوب المحل على تقدير كثيراً من القرى أهلكناها { عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ } [الحج : 45] أي متروكة لفقد دلوها ورشائها وفقد تفقدها ، أو هي عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء إلا أنها
158
عطلت أي تركت لا يستقي منها لهلاك أهلها { وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } [الحج : 45] مجصص من الشيد الجص أو مرفوع البنيان من شاد البناء رفعه ، والمعنى كم قرية أهلكناها وكم بئر عطلناها عن سقاتها وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه أي أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً فخلت القصور عن أربابها والآبار عن واردها والأظهر أن البئر والقصر على العموم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 158
{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الارْضِ } [الحج : 46] هذا حث على السفر ليروا مصارع من أهلهم بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا { فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } [الحج : 46] أي يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي { فَإِنَّهَا لا تَعْمَى

الابْصَارُ وَلَاكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ } [الحج : 46] الضمير في فإنها ضمير القصة أو ضمير مبهم يفسره الأبصار أي فما عميت أبصارهم عن الإبصار بل قلوبهم عن الاعتبار.
ولكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه وعينان في قلبه ، فإذا أبصر ما في القلب وعمي ما في الرأس لم يضره ، وإن أبصر ما في الرأس وعمي ما في القلب لم ينفعه ، وذكر الصدور لبيان أن محل العلم القلب ولئلا يقال : إن القلب يعني به غير هذا العضو كما يقال " القلب لب كل شيء " .
{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } [الحج : 47] الآجل استهزاء { وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ } [الحج : 47] كأنه قال : ولم يستعجلونك به كأنهم يجوزون الفوت وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ولن يخلف الله وعده وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين { وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } [الحج : 47] يعدون مكي وكوفي غير عاصم أي كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم لأن أيام الشدائد طوال.
{ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ } [الحج : 48] أي وكم من أهل قرية كانوا
159
مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً { ثُمَّ أَخَذْتُهَا } [الحج : 48] بالعذاب { وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ } [الحج : 48] أي المرجع إلي فلا يفوتني شيء.
وإنما كانت الأولى أي فكأين معطوفة بالفاء وهذه أي وكأين بالواو لأن الأولى وقعت بدلاً عن فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو وهما { وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ } [الحج : 47]
جزء : 3 رقم الصفحة : 159

(90/3)

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } وإنما لم يقل بشير ونذير لذكر الفريقين بعده لأن الحديث مسوق إلى المشركين ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا ووصفوا بالاستعجال.
وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا ، أو تقديره نذير مبين وبشير فبشر أولاً فقال { فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ } [الحج : 50] لذنوبهم { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الانفال : 4] أي حسن.
ثم أنذر فقال { وَالَّذِينَ سَعَوْا } [الحج : 51] سعى في أمر فلان إذا أفسده بسعيه { وَإِذَا رَأَيْتَ } [الأنعام : 68] أي القرآن { مُعَاجِزِينَ } حال معجزين حيث كان : مكي وأبو عمرو.
وعاجزه سابقه كأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه.

والمعنى سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لها { أولئك أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [المائدة : 10] أي النار الموقدة.

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ } [يوسف : 109] " من " لابتداء الغاية { مِن رَّسُولٍ } [إبراهيم : 4] " من " زائدة لتأكيد النفي { وَلا نَبِيٍّ } [الحج : 52] هذا دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي بخلاف ما يقول البعض إنهما واحد.

وسئل النبي صلى الله عليه وسلّم عن الأنبياء فقال " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً " فقيل : فكم الرسل منهم؟ فقال : " ثلثمائة وثلاثة عشر " والفرق بينهما أن الرسول

160

من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله.

وقيل : الرسول واضع شرع والنبي حافظ شرع غيره { إلا إِذَا تَمَنَّى } [الحج : 52] قرأ ، قال :

جزء : 3 رقم الصفحة : 160

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل { أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ } [الحج : 52] تلاوته.

قالوا : إنه عليه السلام كان في نادي قومه يقرأ " والنجم " فلما بلغ قوله { وَمَنَواةَ الثَّالِثَةَ الاخْرَى } جرى على لسانه " تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى " ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه.

وقيل : نبهه جبريل عليه السلام فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان.

وهذا القول غير مرضي لأنه لا يخلوا إما أن يتكلم النبي عليه السلام بها عمداً وإنه لا يجوز لأنه كفر ولأنه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها ، أو أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه السلام جبراً بحيث لا يقدر على الامتناع منه وهو ممتنع لأن الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره لقوله تعالى : { إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر : 42].

ففي حقه أولى ، أو جرى ذلك على لسانه سهواً وغفلة وهو مردود أيضاً لأنه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه في حال تبليغ الوحي ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله ، ولأنه تعالى قال في صفة المنزل عليه { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ } [فصلت : 42] وقال : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق إلا وجه واحدٍ وهو أنه عليه السلام سكت عند قوله " ومناة الثالثة الأخرى " فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي صلى الله عليه وسلّم فوقع عند بعضهم أنه عليه السلام هو الذي تكلم بها ، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي عليه السلام وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي عليه السلام ويسمع كلامه ، فقد روي أنه نادى يوم أحد ألا إن محمداً قد قتل وقال يوم بدر : { لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ

} [الانفال : 48]
{ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ } [الحج : 52] أي يذهب به ويبطله ويخبر أنه من الشيطان { ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ } [الحج : 52] أي يثبتها ويحفظها من
161
لحوق الزيادة من الشيطان { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } [البقرة : 95] بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان { حَكِيمٌ } لا يدعه حتى يكشفه ويزيله.
ثم ذكر أن ذلك ليفتن الله تعالى به قوماً بقوله

(91/3)

{ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً } [الحج : 53] محنة وابتلاء { لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } [الحج : 53] شك ونفاق { وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ } [الحج : 53] هم المشركون المكذبون فيزدادوا به شكاً وظلمة { وَإِنَّ الظَّالِمِينَ } [الجاثية : 19] أي المنافقين والمشركين وأصله و " إنهم " فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم { لَفِى شِقَاق } [البقرة : 176] خلاف { بَعِيدٍ } عن الحق.
{ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [الحج : 54] بالله وبدينه وبالآيات { أَنَّهُ } أي القرآن { الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ } [الحج : 54] بالقرآن { فَتُخْبِتَ } فتطمئن { لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [الحج : 54] فيتأولون ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة { وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ } [الحج : 55] شك { مِّنْهُ } من القرآن أو من الصراط المستقيم { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } [الحج : 55] فجأة { أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ } [الحج : 55] يعني يوم بدر فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرج أو راحة كالريح العقيم لا تأتي بخير.
أو شديد لا رحمة فيه أو لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه.
وعن الضحاك أنه يوم القيامة وأن المراد بالساعة مقدماته.
{ الْمُلْكُ يَوْمَاإِذٍ } [الفرقان : 26] أي يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة أي يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم { لِلَّهِ } فلا منازع له فيه { يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ } [الحج : 56] أي
162
يقضي.
ثم بين حكمه فيهم بقوله { مُّهِينٌ } ثم خص قوماً من الفريق الأول بفضيلة فقال

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ } [الحج : 58] خرجوا من أوطانهم مجاهدين { ثُمَّ قُتِلُوا } [الحج : 58] شامي { أَوْ مَاتُوا } [الحج : 58] حتف أنفهم { لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا } [الحج : 58] قيل : الرزق الحسن الذي لا ينقطع أبداً { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [الحج : 58] لأنه المخترع للخلق بلا مثال ، المتكفل للرزق بلا ملال { لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلا } [الحج : 59] بفتح الميم مدني والمراد الجنة { يَرْضَوْنَهُ } لأن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ } [الحج : 59] بأحوال من قضى نحبه مجاهداً ، وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً { حَلِيمٌ } بإمهال من قاتلهم معانداً.

روي أن طوائف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم قالوا : يا نبي الله : هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

{ ذَالِكَ } أي الأمر ذلك وما بعده مستأنف { وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ } [الحج : 60] سمى الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حيث إنه سبب وذلك مسبب عنه { ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ } [الحج : 60] أي من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله أن ينصره { إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ } [الحج : 60] يمحو آثار الذنوب { غَفُورٌ } يستر أنواع العيوب.

وتقرير الوصفين بسياق الآية أن المعاقب مبعوث من عند الله على العفو وترك العقوبة بقوله { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [الشورى : 40] { وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } [البقرة : 237].

فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر فهو تارك للأفضل وهو ضامن لنصره في الكرة الثانية إذا ترك العفو وانتقم من الباغي ، وعرف مع ذلك بما كان أولى به

من العفو بذكر هاتين الصفتين ، أو دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده كما قيل " العفو عند القدرة " .

جزء : 3 رقم الصفحة : 163

(92/3)

{ ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعُ بَصِيرٌ } [الحج : 61] أي ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء ، ومن آيات قدرته أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل أي يزيد من هذا في ذلك ومن ذلك في هذا ، أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف ، وأنه سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يفعلون ولا يستر عنه شيء بشيء في الليالي وإن توالت الظلمات.

{ ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ } [الحج : 62] عراقي غير أبي بكر { مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ } [الحج : 62] أي ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار وإحاطته بما يجري فيهما وإدراكه قولهم وفعلهم بسبب أن الله الحق الثابت إلاهيته وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة وأنه لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } [الحج : 63] مطراً { فَتُصْبِحُ الارْضُ مُخْضَرَّةً } [الحج : 63] بالنبات بعدما كانت مسودة يابسة وإنما صرف إلى لفظ المضارع ولم يقل فأصبحت ليفيد بقاء أثر المطر زمان بعد زمان كما تقول " أنعم عليّ فلان فأروح وأغدوا شاكراً له " ولو قلت " فرحت وغدوت " لم يقع ذلك الموقع.

وإنما رفع فتصبح ولم ينصب جواباً للاستفهام لأنه لو نصب لبطل الغرض ، وهذا لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار كما تقول لصاحبك " ألم تراني أنعمت عليك فتشكر " ، إن نصبته نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه ، وإن رفعته أثبت شكره

164

{ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ } [الحج : 63] واصل عمله أو فضله إلى كل شيء { خَبِيرٌ } بمصالح الخلق ومنافعهم أو اللطيف المختص بدقيق التدبير والخبير المحيط بكل قليل وكثير

جزء : 3 رقم الصفحة : 164

{ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الارْضِ } [البقرة : 255] ملكاً وملكاً { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِىُّ } [الحج : 64] المستغني بكمال قدرته بعد فناء ما في السماوات وما في الارض { الْحَمِيدِ } المحمود بنعمته قبل ثناء من في السماوات ومن في الأرض { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الارْضِ } من البهائم مذللة للركوب في البر { وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ } [الحج : 65] أي ومن المراكب جارية في البحر ، ونصب الفلك عطفاً على " ما " وتجري حال لها أي وسخر لكم الفلك في حال جريها { وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الارْضِ } [الحج : 65] أي يحفظها من أن تقع { إِلا بِإِذْنِهِ } [الحج : 65] بأمره أو بمشيئته { إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ } بتسخير ما في الأرض { رَّحِيمٌ } بإمساك السماء لئلا تقع على الأرض ، عدد آلائه مقرونة بأسمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه.

وعن أبي حنيفة رحمه الله أن اسم الله الأعظم في الآيات الثمانية يستجاب لقرائها البتة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 165

{ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ } [الحج : 66] في أرحام أمهاتكم { ثُمَّ يُمِيتُكُمْ } [الجاثية : 26] عند انقضاء آجالكم { ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } [الحج : 66] لإيصال جزائكم { إِنَّ الانسَانَ لَكَفُورٌ } [الحج : 66] لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ودفع عنه من صنوف النقم ، أو لا يعرف نعمة الإنشاء المبديء للوجود ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ولا الإحياء الموصل إلى المقصود { لِّكُلِّ أُمَّةٍ } [يونس : 49] أهل دين { جَعَلْنَا مَنسَكًا } [الحج : 34] مر بيانه وهو رد لقول من يقول إن الذبح ليس بشريعة الله إذ هو شريعة كل أمة { هُمْ نَاسِكُوهُ } [الحج : 67] عاملون به { فَلا يُنَازِعُنَّكَ } [الحج : 67] فلا

يجادلنك والمعنى فلا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك { فِى الامْرِ } [آل عمران : 159] أمر الذبائح أو الدين.
نزلت حين قال المشركون للمسلمين : ما
165

(93/3)

لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله يعني الميتة { وَادْعُ } الناس { إِلَى رَبّكَ } [الحج : 67] إلى عبادة ربك { إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } [الحج : 67] طريق قويم.
ولم يذكر الواو في { لِّكُلِّ أُمَّةٍ } [يونس : 49] بخلاف ما تقدم لأن تلك وقعت مع ما يناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها ، وهذه وقعت مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا
جزء : 3 رقم الصفحة : 165
{ وَإِن جَادَلُوكَ } [الحج : 68] مراء وتعنتاً كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال { فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحج : 68] أي فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول ، والمعنى أن الله أعلم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به ، وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين وتأديب يجاب به كل متعنت { اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الحج : 69] هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب ، ومسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم مما كان يلقى منهم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 166
{ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَآءِ وَالارْضِ } [الحج : 70] أي كيف يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السماوات والأرض { إِنَّ ذَالِكَ } [الحج : 70] الموجود فيهما { فِي كِتَابٍ } [الانفال : 75] في اللوح المحفوظ { إِنَّ ذَالِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحج : 70] أي علمه بجميع ذلك عليه يسير.
ثم أشار إلى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها قوله { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزّلْ بِهِ } [الحج : 71] ينزل مكي وبصري { سُلْطَانًا } حجة وبرهاناً { وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ } [الحج : 71] أي لم يتمسكوا في عبادتهم لها ببرهان سماوي من جهة الوحي ولا حملهم عليها دليل عقلي { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ } [الحج : 71] وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيّنَاتٍ } [يونس : 15] يعني القرآن
166

{ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ } [الحج : 72] الإنكار بالعبوس والكراهة والمنكر مصدر { يَكَادُونَ يَسْطُونَ } [الحج : 72] يبطشون والسطو الوثب والبطش { بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا } [الحج : 72] هم النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه { قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَالِكُمُ } [الحج : 72] من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم { النَّارُ } خبر مبتدأ محذوف كأن قائلاً قال : ما هو؟ فقيل : النار أي هو النار { وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الحج : 72] استئناف كلام { وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة : 126] النار.

ولما كانت دعواهم بأن لله تعالى شريكاً جارية في الغرابة والشهرة مجرى الأمثال المسيرة قال الله تعالى.

جزء : 3 رقم الصفحة : 166

(94/3)

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ } [الحج : 73] بين { مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُا } [الحج : 73] لضرب هذا المثل { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ } [الأعراف : 194] { يَدْعُونَ } سهل ويعقوب { مِن دُونِ اللَّهِ } [يس : 74] آلهة باطلة { لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا } [الحج : 73] " لن " تأكيد نفي المستقبل وتأكيده هنا للدلالة على أن خلق الذاباب منهم مستحيل كأنه قال : محال أن يخلقوا.

وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستقذاره ، وسمي ذباباً لأنه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره { وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ } [الحج : 73] لخلق الذباب ومحله النصب على الحال كأنه قيل : مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه ، وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله لو اجتمعوا لذلك { وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئا } [الحج : 73] { شيئا } ثاني مفعولي { يَسْلُبْهُمُ } { لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ } [الحج : 73] أي هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل فإذا سلبه الذباب عجز الأصنام عن أخذه { ضَعُفَ الطَّالِبُ } [الحج : 73] أي الصنم بطلب ما سلب منه { وَالْمَطْلُوبُ } الذباب بما سلب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فإن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } [الحج : 74] ما عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذا

الصنم الضعيف شريكاً له { إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ } أي إن الله قادر وغالب فكيف يتخذ العاجز

المغلوب شبيهاً به ، أو لقوي بنصر أوليائه عزيز ينتقم من أعدائه.
جزء : 3 رقم الصفحة : 167
{ اللَّهُ يَصْطَفِى } [الحج : 75] يختار { مِنَ الْمَلَائكَةِ رُسُلا } [الحج : 75] كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم { وَمِنَ النَّاسِ } [الحج : 75] رسلاً كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم عليهم السلام.
وهذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر ، وبيان أن رسل الله على ضربين ملك وبشر.
وقيل : نزلت حين قالوا { عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ } [ص : 8] (القمر : 52) { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُ } [الحج : 75] لقولهم { بَصِيرٌ } بمن يختاره لرسالته ، أو سميع لأقوال الرسل فيما تقبله العقول بصير بأحوال الأمم في الرد والقبول { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } [البقرة : 255] ما مضى { وَمَا خَلْفَهُمْ } [سبأ : 9] ما لم يأت أو ما عملوه وما سيعملوه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الامُورُ } [البقرة : 210] أي إليه مرجع الأمور كلها ، والذي هو بهذه الصفات لا يسئل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله ترجع شامي وحمزة وعلي.
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } [الحج : 77] في صلاتكم ، وكان أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود ، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة { وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ } [الحج : 77] واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم { وَافْعَلُوا الْخَيْرَ } [الحج : 77] قيل : لما كان للذكر مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص لقوله تعالى { إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ } [طه : 14] ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما ، ثم عم بالحث على سائر الخيرات.
وقيل : أريد به صلة الأرحام ومكارم الأخلاق { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [البقرة : 189] أي كي تفوزوا أو افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم
168
جزء : 3 رقم الصفحة : 168

(95/3)

{ وَجَاهِدُوا } أمر بالغزو أو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر أو هو كلمة حق عند أمير جائر { فِى اللَّهِ } [الحج : 8] أي في ذات الله ومن أجله { حَقَّ جِهَادِهِ } [الحج : 78] وهو أن لا يخاف في الله لومة لائم.
يقال : هوحق عالم وجد عالم أن عالم حقاً وجداً ومنه حق جهاده وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه لكن الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه.

ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله
ويوم شهدناه سليماً وعامرا
{ هُوَ اجْتَبَاكُمْ } [الحج : 78] اختاركم لدينه ونصرته { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج : 78] ضيق بل رخص لكم في جميع ما كلفكم من الطهارة والصلاة والصوم والحج بالتيمم وبالإيماء وبالقصر والإفطار لعذر السفر والمرض وعدم الزاد والراحلة.
{ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج : 78] أي اتبعوا ملة أبيكم ، أو نصب على الاختصاص أي أعني بالدين ملة أبيكم.
وسماه أباً وإن لم يكن أباً للأمة كلها ، لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلّم فكان أباً لأمته لأن أمة الرسول في حكم أولاده قال عليه السلام " إنما أنا لكم مثل الوالد " { هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ } [الحج : 78] أي الله بدليل قراءة أبيّ : الله سماكم المسلمين { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] في الكتب المتقدمة { وَفِى هَاذَا } [الحج : 78] أي في القرآن أي فضلكم على سائر الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم { لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ } [الحج : 78] أنه قد بلغكم رسالة ربكم { وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ } [الحج : 78] بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة { فَإِذَا قَضَيْتُمُ } [النساء : 103] بواجباتها { وَإِذْ أَخَذْنَا } [البقرة : 83] بشرائطها { وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ } [الحج : 78] وثقوا بالله وتوكلوا علي لا بالصلاة والزكاة { هُوَ مَوْلَاكُمْ } [الحج : 78] أي مالككم وناصركم ومتولي أموركم { فَنِعْمَ الْمَوْلَى } [الحج : 78] حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم { وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الانفال : 40] أي الناصر هو حيث أعانكم على طاعتكم وقد أفلح من هو مولاه وناصره
169

سورة المؤمنون

مكية وهي مائة وثمان عشرة آية
{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } [المؤمنون : 1] " قد " نقيضة لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ، وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه.
والفلاح الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب أي فازوا بما طلبوا ونجوا مما هربوا ، والإيمان في اللغة التصديق ، والمؤمن المصدق لغة.
وفي الشرع كل من نطق بالشهادتين مواطئاً قلبه لسانه فهو مؤمن.
قال عليه السلام " خلق الله الجنة فقال لها : تكلمي.
فقالت : قد أفلح المؤمنون ثلاثاً أنا حرام على كل بخيل مراء " لأنه بالرياء أبطل العبادات البدنية وليس له عبادة مالية { الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [المؤمنون : 2] خائفون بالقلب ساكنون بالجوارح.
وقيل : الخشوع في الصلاة جمع الهمة لها الإعراض عما سواها وأن لا يجاوز بصره مصلاه وأن لا

يلتفت ولا يعبث ولا يسدل ولا يفرقع أصابعه ولا يقلب الحصى ونحو ذلك.
وعن أبي الدرداء : هو إخلاص المقال وإعظام المقام واليقين التام
170
وجمع الاهتمام.
وأضيفت الصلاة إلى المصلين لا إلى المصلى له لانتفاع المصلي بها وحده وهي عدته وذخيرته ، وأما المصلى له فغني عنها.
جزء : 3 رقم الصفحة : 170

(96/3)

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ } [المؤمنون : 3] اللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل يعني أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل.
ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.
{ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَواةِ فَاعِلُونَ } [المؤمنون : 4] مؤدون ولفظ فاعلون يدل على المداومة بخلاف " مؤدون " .
وقيل : الزكاة اسم مشترك يطلق على العين وهو القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير ، وعلى المعنى وهو فعل المزكي الذي هو التزكية وهو المراد هنا ، فجعل المزكين فاعلين له لأن لفظ الفعل يعم جميع الأفعال كالضرب والقتل ونحوهما.
تقول للضارب والقاتل والمزكي فعل الضرب والقتل والتزكية ، ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء ، ودخل اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل في العمل فإنك تقول " هذا ضارب لزيد " ولا تقول " ضرب لزيد " { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ } [المؤمنون : 5] الفرج يشمل سوءة الرجل والمرأة { إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ } [المؤمنون : 6] في موضع الحال أي إلا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك " كان زياد على البصرة " أي والياً عليها.
والمعنى أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم ، أو تعلق " على " بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه.
وقال الفراء : إلا من أزواجهم أي زوجاتهم { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ } [المؤمنون : 6] أي إمائهم ولم يقل " من " لأن المملوك جرى مجرى غير العقلاء ولهذا يباع كما تباع البهائم { فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ } [المؤمنون : 6] أي لا لوم عليهم إن لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم وإمائهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 171
{ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَالِكَ } [المؤمنون : 7] طلب قضاء شهوة من غير هذين { فَأُوالَائكَ هُمُ الْعَادُونَ } [المؤمنون : 7] الكاملون في العدوان وفيه دليل تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة { وَالَّذِينَ هُمْ لامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ } [المؤمنون : 8] لأمانتهم مكي وسهل.
سمي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً ومنه قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الامَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا } [النساء : 58] وإنما تؤدى العيون لا المعاني والمراد به العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله عز وجل ومن جهة الخلق { رَاعُونَ } حافظون والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم.
{ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ } [المؤمنون : 9] { صَلاتِهِمْ } كوفي غير أبي بكر { يُحَافِظُونَ } يداومون في أوقاتها.
وإعادة ذكر الصلاة لأنها أهم ، ولأن الخشوع فيها غير المحافظة عليها ، أو لأنها وحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أية صلاة كانت ، وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل { أولئك } الجامعون لهذه الأوصاف { هُمُ الْوَارِثُونَ } [المؤمنون : 10] الأحقاء بأن يسموا ورّاثاً دون من عداهم.
ثم ترجم الوارثون بقوله { الَّذِينَ يَرِثُونَ } [المؤمنون : 11] من الكفار في الحديث " ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإن مات ودخل الجنة ورث أهل النار منزله ، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله " { الْفِرْدَوْسَ } هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر.
وقال قطرب : هو أعلى الجنان { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 39] أنث الفردوس بتأويل الجنة.
{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانسَانَ } [المؤمنون : 12] أي آدم { مِن سُلَالَةٍ } [المؤمنون : 12] " من " للابتداء والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر.
وقيل : إنما سمي التراب الذي خلق آدم منه سلالة

لأنه سل من كل تربة { مِّن طِينٍ } [الأعراف : 12] " من " للبيان كقوله { مِنَ الاوْثَانِ } [الحج : 30].
جزء : 3 رقم الصفحة : 172

{ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ } [المؤمنون : 13] أي نسله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه لأن آدم عليه السلام لم يصر نطفة وهو كقوله { مُّهِينٌ } وقيل : الإنسان بنو آدم والسلالة النطفة والعرب تسمي النطف سلالة أي ولقد خلقنا الإنسان من سلالة يعني من نطفة مسلولة من طين أي من مخلوق من طين وهو آدم عليه السلام { نُطْفَةً } ماء قليلاً { فِى قَرَارٍ } [المؤمنون : 13] مستقر يعني الرحم { مَّكِينٍ } حصين { ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ } [المؤمنون : 14] أي صيرناها بدلالة تعديه إلى مفعولين والخلق يتعدى إلى مفعول واحد { عَلَقَةً } قطعة دم والمعنى أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء { فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً } [المؤمنون : 14] لحماً قدر ما يمضغ { فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَـامًا } [المؤمنون : 14] فصيرناها عظاماً { فَكَسَوْنَا الْعِظَـامَ لَحْمًا } [المؤمنون : 14] فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس عظماً العظم شامي وأبو بكر عظماً العظام زيد عن يعقوب عظاما العظم عن أبي زيد ، وضع الواحد موضع الجمع لعدم اللبس إذ الإنسان ذو عظام كثيرة { ثُمَّ أَنشَأْنَـاهُ } [المؤمنون : 14] الضمير يعود إلى الإنسان أو إلى المذكور { خَلْقًا ءَاخَرَ } [المؤمنون : 14] أي خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث جعله حيواناً وكان جماداً وناطقاً وسميعاً وبصيراً وكان بضد هذه الصفات ، ولهذا قلنا إذا غصب بيضة فأفرخت عنده يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لأن خلق آخر سوى البيضة { فَتَبَارَكَ اللَّهُ } [المؤمنون : 14] فتعالى أمره في قدرته وعلمه { أَحْسَنُ } بدل أو خبر مبتدأ محذوف وليس بصفة لأنه نكرة وإن أضيف لأن المضاف إليه عوض من " من " { الْخَـالِقِينَ } المقدرين أي أحسن المقدرين تقديراً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه.

وقيل : إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي عليه السلام فنطق بذلك قبل إملائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم " اكتب هكذا نزلت " فقال عبد الله : إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي فارتد ولحق بمكة ثم أسلم يوم الفتح.

وقيل : هذه الحكاية غير صحيحة لأن ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة

173

مكية.

وقيل : القائل عمر أو معاذ رضي الله عنهما.

جزء : 3 رقم الصفحة : 173

{ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَالِكَ } [المؤمنون : 15] بعد ما ذكرنا من أمركم { لَمَيِّتُونَ } عند انقضاء آجالكم { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } [المؤمنون : 16] تحيون للجزاء { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآ ئِقَ } [المؤمنون : 17] جمع طريقة وهي السماوات لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم { وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ } [المؤمنون : 17] أراد بالخلق السماوات كأنه قال خلقناها فوقكم وما كنا غافلين عن حفظها ، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وما كان غافلاً عنهم وعما يصلحهم { وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءَ } [المؤمنون : 18] مطراً { بِقَدَرٍ } بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم { فَأَسْكَنَّاهُ فِى الارْضِ } [المؤمنون :

18] كقوله { فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الارْضِ } [الزمر : 21] وقيل : جعلناه ثابتاً في الأرض فماء الأرض كله من السماء.

ثم استأدى شكرهم بقوله { وَإِنَّا عَلَى ذَهَاب بِهِ لَقَادِرُونَ } [المؤمنون : 18] أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه فقيدوا هذه النعمة بالشكر { فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ } [المؤمنون : 19] بالماء { جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا } [المؤمنون : 19] في الجنات { فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ } [المؤمنون : 19] سوى النخيل والأعناب { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } [النحل : 5] أي من الجنات أي من ثمارها ، ويجوز أن هذا من قولهم " فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يغتلها " أي أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال : وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون.

جزء : 3 رقم الصفحة : 174

{ وَشَجَرَةً } عطف على جنات وهي شجرة الزيتون

174

(98/3)

{ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ } [المؤمنون : 20] { طُورِ سَيْنَآءَ } [المؤمنون : 20] و طور سينين لا يخلو إما أن يضاف الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون ، وإما أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه كامريء القيس وهو جبل فلسطين.

وسيناء غير منصرف بكل حال مكسور السين كقراءة الحجازي وأبي عمرو للتعريف والعجمة ، أو مفتوحها كقراءة غيرهم لأن الألف للتأنيث كصحراء { تَنابُتُ بِالدُّهْنِ } [المؤمنون : 20] قال الزجاج : الباء للحال أي تنبت ومعها الدهن تنبت مكي وأبو عمرو.

إما لأن أنبت بمعنى نبت كقوله " حتى إذا أنبت البقل " ، أو لأن مفعوله محذوف أي تنبت زيتونها وفيه الدهن { وَصِبْغٍ لِّلاكِلِينَ } [المؤمنون : 20] أي إدام لهم.

قال مقاتل : جعل الله تعالى في هذه إداماً ودهناً ، فالإدام الزيتون والدهن الزيت.

وقيل : هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان.

وخص هذه الأنواع الثلاثة لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع.

جزء : 3 رقم الصفحة : 174

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الانْعَامِ } [النحل : 66] جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم { لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم } [النحل : 66] وبفتح النون : شامي ونافع وأبو بكر وسقى وأسقى لغتان { مِّمَّا فِى بُطُونِهَا } [المؤمنون : 21] أي نخرج لكم من بطونها لبناً سائغاً { وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ } [المؤمنون : 21] سوى الألبان وهي منافع الأصواف والأوبار والأشعار { وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } [النحل : 5] أي لحومها { وَعَلَيْهَا } وعلى

الأنعام في البر { وَعَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون : 22] في البحر { تُحْمَلُونَ } في أسفاركم ، وهذا يشير إلى أن المراد بالأنعام الإبل لأنها هي المحمول عليها في العادة فلذا قرنها بالفلك التي هي السفائن لأنها سفائن البر قال ذوا الرمة.

سفينة بر تحت خدي زمامها

يريد ناقته.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا } وحِّدوه { مَا لَكُم مِّنْ إِلَاهٍ } [الأعراف : 59] معبود { غَيْرُهُا } بالرفع على المحل : وبالجر على اللفظ ، والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للأمر بالعبادة { أَفَلا تَتَّقُونَ } [الأعراف : 65] أفلا تخافون عقوبة الله الذي

175

هو ربكم وخالقكم إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شيء

جزء : 3 رقم الصفحة : 175

{ فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ } [هود : 27] أي أشرافهم لعوامهم { مَا هَاذَآ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } [المؤمنون : 24] يأكل ويشرب { يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } [المؤمنون : 24] أي يطلب الفضل عليكم ويترأس { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ } [البقرة : 220] إرسال رسول { لانزَلَ مَلَائكَةً } [فصلت : 14] لأرسل ملائكة { مَّا سَمِعْنَا بِهَاذَا } [المؤمنون : 24] أي بإرسال بشر رسولاً أو بما يأمرنا به من التوحيد وسب الهتنا والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر { فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَاذَآ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لانزَلَ مَلَائكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَاذَا فِى ءَابَآ ئِنَا الاوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلا رَجُلُ بِهِ جِنَّةٌ } جنون { فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ } [المؤمنون : 25] فانتظروا واصبروا عليه إلى زمان حتى ينجلي أمره فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه { قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون : 26] فلما أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم ، والمعنى أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي إذ في نصرته إهلاكهم ، أو انصرني بدل ما كذبون كقولك " هذا بذاك " أي بدل ذاك والمعنى أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم { فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ } [المؤمنون : 27] أي أجبنا دعاءه فأوحينا إليه { أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } [المؤمنون : 27] أي تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك ورؤيته إياك ، أو بحفظنا وكلاءتنا كأن معك من الله حفاظاً يكلئونك بعيونهم لئلا يتعرض لك ولا يفسد عليك مفسد عملك ومنه قولهم " عليه من الله عين كالئة " .

{ وَوَحْيِنَا } أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها.

روي أنه أوحي إليه أن يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر.

جزء : 3 رقم الصفحة : 176

{ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا } [المؤمنون : 27] أي عذابنا بأمرنا { وَفَارَ التَّنُّورُ } [المؤمنون : 27] أي فار الماء من تنور الخبز أي أخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار.
روي أنه قيل لنوح : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة ، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وكان تنور آدم فصار إلى نوح وكان من حجارة.
واختلف في مكانه فقيل : في مسجد الكوفة.
وقيل : بالشام.
وقيل : بالهند.
{ فَاسْلُكْ فِيهَا } [المؤمنون : 27] فأدخل في السفينة
176
{ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ } [هود : 40] من كلّ أمتي زوجين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك { اثْنَيْنِ } واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة.
روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض من كل حفص والمفضل أي من كل أمة زوجين اثنين و اثنين تأكيد وزيادة بيان { وَأَهْلَكَ } ونساءك وأولادك { إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ } [هود : 40] من الله بإهلاكه وهو ابنه وإحدى زوجتيه فجيء بـ " على " مع سبق الضار كما جيء باللام مع سبق النافع في قوله { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } [الصافات : 171] ونحوها { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة : 286] { مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } [المؤمنون : 27] ولا تسألني نجاة الذين كفروا فإني أغرقهم.
جزء : 3 رقم الصفحة : 176
{ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ } [المؤمنون : 28] فإذا تمكنتم عليها راكبين { فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [المؤمنون : 28] أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم.
ولم يقل فقولوا وإن كان فإذا استويت أنت ومن معك في معنى إذا استويتم لأنه نبيهم وإمامهم فكان قوله قولهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة { وَقُل } حين ركبت على السفينة أو حين خرجت منها { رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلا } [المؤمنون : 29] أي إنزالاً أو موضع إنزال منزلاً أبو بكر أي مكاناً { مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ } [المؤمنون : 29] والبركة في السفينة النجاة فيها وبعد الخروج منها كثرة النسل وتتابع الخيرات { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] فيم فعل بنوح وقومه { لايَاتٍ } لعبراً ومواعظ { وَإِنَّ } هي المخففة من المثقلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها والمعنى وإن الشأن والقصة { كُنَّا لَمُبْتَلِينَ } [المؤمنون : 30] لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد ، أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى { وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } [القمر : 15].
177
جزء : 3 رقم الصفحة : 177

{ ثُمَّ أَنشَأْنَا } [المؤمنون : 31] خلقنا { مِن بَعْدِهِمْ } [الأعراف : 173] من بعد نوح { قَرْنًا ءَاخَرِينَ } [الأنعام : 6] هم عاد قوم هود ويشهد له قول هود { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [الأعراف : 69] ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في " الأعراف " و " هود " و " الشعراء " { فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ } [المؤمنون : 32] الإرسال يعدى بـ " إلى " ولم يعد بـ " في " هنا وفي قوله { كَذَالِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ } [الرعد : 30] { وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ } [الأعراف : 94] ولكن الأمة والقرية جعلت موضعا للإرسال كقول رؤبة :

أرسلت فيها مصعباً ذا إقحام

(100/3)

{ رَسُولا } هو هود { مِّنْهُمْ } من قومهم { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـاهٍ غَيْرُهُا أَفَلا تَتَّقُونَ } [المؤمنون : 32] " أن " مفسرة لـ أرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله.

{ وَقَالَ الْمَلا مِن قَوْمِهِ } [المؤمنون : 33] ذكر مقالة قوم هود في جوابه في " الأعراف " وهود بغير واو لأنه على تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه؟ فقيل له : قالوا كيت وكيت ، وههنا مع الواو لأنه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول ، ومعناه أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل وليس بجواب للنبي صلى الله عليه وسلّم متصل بكلامه ولم يكن بالفاء ، وجيء بالفاء في قصة نوح لأنه جواب لقوله واقع عقيبه { الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] صفة للملأ أو لقومه { وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ الاخِرَةِ } [المؤمنون : 33] أي بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك { وَأَتْرَفْنَاهُمْ } ونعمناهم { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم } [العنكبوت : 25] بكثرة الأموال والأولاد { مَا هَاذَآ } [الأحقاف : 17] أي النبي { إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } [المؤمنون : 33] أي منه فحذف لدلالة ما قبله عليه أي من أين يدعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم { وَلَـاِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ } [المؤمنون : 34] فيما يأمركم به وينهاكم عنه { إِنَّكُمْ إِذًا } [الأعراف : 90] واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قاولوهم من قومهم { لَّخَاسِرُونَ } بالانقياد لمثلكم ،

178

ومن حمقهم أنهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 178

{ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ } [المؤمنون : 35] بالكسر : نافع وحمزة وعلي وحفص ، وغيرهم بالضم { وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ } [المؤمنون : 35] مبعوثون للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثني أنكم للتأكيد ، وحسن ذلك للفصل بين الأول والثاني بالظرف و مخرجون خبر عن الأول والتقدير : أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً.

{ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ } [المؤمنون : 36] وبكسر التاء : يزيد ، وروي عنه بالكسر والتنويم فيهما ، والكسائي يقف بالهاء وغيره بالتاء وهو اسم للفعل واقع موقع بعد فاعلها مضمر أي بعد التصديق أو الوقوع { لِمَا تُوعَدُونَ } [المؤمنون : 36] من العذاب ، أو فاعلها ما توعدون واللام زائدة أي بعد ما توعدون من البعث { إِنْ هِيَ } [النجم : 23] هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة { إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا } [المؤمنون : 37] ثم وضع هي موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ويبينها ، والمعنى لا حياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها ودنت منا ، وهذا لأن " إن " النافية دخلت على " هي " التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت " لا " التي لنفي الجنس { نَمُوتُ وَنَحْيَا } [المؤمنون : 37] أي يموت بعض ويولد بعض ، ينقرض قرن فيأتي قرن آخر ، أو فيه تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وهو قراءة أبي وابن مسعود رضي الله عنهما { وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } [الأنعام : 29] بعد الموت { إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [المؤمنون : 38] أي ما هو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه وفيما يعدنا من البعث { وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ } [المؤمنون : 38] بمصدقين.

{ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ } [المؤمنون : 26] فأجاب الله دعاء الرسول بقوله { قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ } [المؤمنون : 40] قليل صفة للزمان كقديم وحديث في قولك " ما رأيته قديماً ولا حديثاً " وفي معناه عن قريب و " ما " زائدة أو بمعنى شيء أو زمن وقليل بدل منها وجواب القسم المحذوف { لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ } [المؤمنون : 40] إذا عاينوا ما يحل بهم

(101/3)

{ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ } [المؤمنون : 41] أي صيحة جبريل صاح عليهم فدمرهم { بِالْحَقِّ } بالعدل من الله يقال فلان يقضي بالحق أي بالعدل { فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً } [المؤمنون : 41] شبههم في دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما يلي واسودّ من الورق والعيدان { فَبُعْدًا } فهلاكاً يقال بعد بعداً أو بعداً أي هلك وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها { لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [يونس : 85] بيان لمن دعي عليه بالبعد نحو { هَيْتَ لَكَ } [يوسف : 23] { ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ } [المؤمنون : 42] قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم { مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ } [الحجر : 5] " من " صلة أي ما تسبق أمة { أَجَلَهَا } المكتوب لها أو الوقت الذي حدد لهلاكها وكتب { وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ } لا يتأخرون عنه.

{ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا } فعلى والألف للتأنيث كسكرى لأن الرسل جماعة ولذا لا ينون لأنه غير منصرف

تترى بالتنوين : مكي وأبو عمرو ويزيد على أن الألف للإلحاق كأرطى ، وهو نصب على الحال في القراءتين أي متتابعين واحداً بعد واحد ، وتاؤها فيهما بدل من الواو والأصل و " ترى " من الوتر وهو الفرد فقلبت الواوتاء كتراث { كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ } الرسول يلابس المرسل والمرسل إليه والإضافة تكون بالملابسة فتصح إضافته إليهما { فَأَتْبَعْنَا } الأمم والقرون { بَعْضَهُم بَعْضًا } [فاطر : 40] في الهلاك { وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ } [المؤمنون : 44] أخباراً يسمع بها ويتعجب منها ، والأحاديث تكون اسم جمع للحديث ومنه أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وتكون جمعاً للأحدوثة وهي ما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً وهو المراد هنا { فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } [المؤمنون : 44] به { ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ } [المؤمنون : 45] بدل من أخاه بأياتنا التسع { وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ } [هود : 96] وحجة ظاهرة.

{ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلايْهِ فَاسْتَكْبَرُوا } امتنعوا عن قبول الإيمان ترفعاً وتكبراً { وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ } [المؤمنون : 46] متكبرين مترفعين { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } [المؤمنون : 47] البشر يكون واحداً وجمعاً ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث { وَقَوْمُهُمَا } أي بنو إسرائيل { لَنَا عَابِدُونَ } [المؤمنون : 47] خاضعون مطيعون وكل من دان لملك فهو عابد له عند العرب { فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ } [المؤمنون : 48] بالغرق.

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى } [الإسراء : 101] أي قوم موسى { الْكِتَابَ } التوراة { لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } [الأنبياء : 31] يعملون بشرائعها ومواعظها { وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً } [المؤمنون : 50] تدل على قدرتنا على ما نشاء لأنه خلق من غير نطفة وحد ، لأن الأعجوبة فيهما واحدة ، أو المراد وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها { وَءَاوَيْنَاهُمَآ } جعلنا مأواهما أي منزلهما { إِلَى رَبْوَةٍ } [المؤمنون : 50] شامي وعاصم.

ربوة غيرهما أي أرض مرتفعة وهي بيت المقدس أو دمشق أو الرملة أو مصر { ذَاتِ قَرَارٍ } [المؤمنون : 50] مستقر من أرض مستوية منبسطة أو ذات ثمار وماء يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها { وَمَعِينٍ } وماء ظاهر جارٍ على وجه الأرض وهو مفعول أي مدرك بالعين بظهوره من عانه إذا أدركه بعينه ، لأنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهي المنفعة { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ } [المؤمنون : 51] هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك ووصى به ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه ، أو هو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله وقيامه مقام الكل في زمانه وكان يأكل من الغنائم ، أو لعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره وكان يأكل من غزل أمه وهو أطيب الطيبات ، والمراد بالطيبات ما حل والأمر للتكليف أو ما يستطاب ويستلذ والأمر للترفيه والإباحة { وَاعْمَلُوا صَالِحًا } [المؤمنون : 51]

(102/3)

{ إِنّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } فأجازيكم على أعمالكم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 181

{ وَإِنَّ هَاذِهِ } [المؤمنون : 52] كوفي على الاستئناف.

وأن حجازي وبصري بمعنى ولأن أي فاتقون لأن هذه ، أو معطوف على ما قبله أي بما تعملون عليم وبأن هذه.

أو تقديره واعلموا أن هذه { أُمَّتُكُمْ } أي ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها.

{ أُمَّةً وَاحِدَةً } [يونس : 19] صلة واحدة وهي شريعة الاسلام.

وانتصاب أمة على الحال والمعنى وإن الدين دين واحد وهو الاسلام ومثله { إِنَّ الدّينَ عِندَ اللَّهِ الاسْلَامُ } [آل عمران : 19] { وَأَنَا رَبُّكُمْ } [المؤمنون : 52] وحدي { فَاتَّقُونِ } فخافوا عقابي في مخالفتكم أمري { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ } [المؤمنون : 53] تقطع بمعنى قطع أي قطعوا أمر دينهم { زُبُرًا } جمع زبور أي كتباً مختلفة يعني جعلوا دينهم أدياناً.

وقيل : تفرقوا في دينهم فرقاً كلٍ فرقة تنتحل كتاباً.

وعن الحسن : قطعوا كتاب الله قطعاً وحرفوه.

وقرىء زبرا جمع زبرة أي قطعاً { كُلُّ حِزْب } [المؤمنون : 53] كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم { بِمَا لَدَيْهِمْ } [المؤمنون : 53] من الكتاب والدين أو من الهوى والرأي { فَرِحُونَ } مسرورون معتقدون أنهم على الحق { فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ } [المؤمنون : 54] جهالتهم وغفلتهم { حَتَّى حِينٍ } [يوسف : 35] أي إلى أن يقتلون أو يموتوا.

{ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ } [المؤمنون : 55] " ما " بمعنى الذي وخبر " أن " .

{ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ } [المؤمنون : 56] والعائد من خبر " أن " إلى اسمها محذوف أي نسارع لهم به ، والمعنى أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ومعالجة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم.

وهذه الآية حجة على المعتزلة في مسألة الأصلح لأنهم يقولون إن الله لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له في الدين ، وقد أخبر أن ذلك ليس بخير لهم في الدين ولا أصلح { بَل لا يَشْعُرُونَ } [المؤمنون : 56] بل استدراك لقوله أيحسبون أي أنهم أشباه البهائم لا شعور لهم حتى

يتأملوا في ذلك أنه استدراج أو مسارعة في الخير.
ثم بين ذكر أوليائه فقال
جزء : 3 رقم الصفحة : 182
{ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ } [المؤمنون : 57] أي خائفون { وَالَّذِينَ هُم بِاَايَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } [المؤمنون : 58] أي بكتب الله كلها لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب { وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ } [المؤمنون : 59] كمشركي العرب { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا } [المؤمنون : 60] أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات.
وقريء يأتون ما أتوا بالقصر أي يفعلون ما فعلوا { وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } [المؤمنون : 60] خائفة أي لا تقبل منهم لتقصيرهم { أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } [المؤمنون : 60] الجمهور على أن التقدير لأنهم وخبر إن الذين { أُوْلئك يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ } [المؤمنون : 61] يرغبون في الطاعات فيبادرونها { وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون : 61] أي لأجل الخيرات سابقون إلى الجنات أو لأجلها سبقوا الناس.

{ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا } [المؤمنون : 62] أي طاقتها يعني أن الذي وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، وكذلك كل ما كلفه عباده وهو رد على من جوز تكليف ما لا يطاق { وَلَدَيْنَا كِتَابٌ } [المؤمنون : 62] أي اللوح أو صحيفة الأعمال { يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } [المؤمنون : 62] لا يقرؤون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ، ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب أو نقصان ثواب أو بتكليف ما لا وسع له به { بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَاذَا } [المؤمنون : 63] بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين { وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَالِكَ } [المؤمنون : 63] أي ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك أي لما وصف به المؤمنون { هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } [المؤمنون : 63] وعليها مقيمون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب { حَتَّى إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم } [المؤمنون : 64] متنعميهم { بِالْعَذَابِ } عذاب الدنيا وهو القحط
183
سبع سنين حين دعا عليهم النبي عليه الصلاة والسلام ، أو قتلهم يوم بدر.
و " حتى " هي التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية { حَتَّى إِذَآ أَخَذْنَا } [المؤمنون : 64] يصرخون استغاثة والجؤار الصراخ باستغاثة فيقال لهم
جزء : 3 رقم الصفحة : 183
{ لا تَجْاَرُوا الْيَوْمَ } [المؤمنون : 65] فإن الجؤار غير نافع لكم { إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ } [المؤمنون :

65] أي من جهتنا لا يلحقكم نصر أو معونة.
{ قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ } [المؤمنون : 66] أي القرآن { فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ } [المؤمنون : 66] ترجعون القهقرى والنكوص أن يرجع القهقرى وهو أقبح مشية لأنه لا يرى ما وراءه.
{ مُسْتَكْبِرِينَ } متكبرين على المسلمين حال من تنكصون { بِهِ } بالبيت أو بالحرم لأنهم يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم ، والذي سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت أو بـ آياتي لأنها في معنى كتابي ، ومعنى استكبارهم بالقرآن تكذيبهم به استكباراً.
ضمن مستكبرين معنى مكذبين فعدي تعديته أو يتعلق الباء بقوله { سَامِرًا } تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته شعراً وسحراً.
والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع وقرىء سمّارا.
أو بقوله { تَهْجُرُونَ } وهو من الهجر الهذيان تهجرون : نافع من أهجر في منطقه إذا أفحش { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } [المؤمنون : 68] أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به { أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ الاوَّلِينَ } [المؤمنون : 68] بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروه واستبدعوه { أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ } [المؤمنون : 69] محمداً بالصدق والأمانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الأخلاق أي عرفوه بهذه الصفات { فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } [المؤمنون : 69] بغياً وحسداً { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةُ } [المؤمنون : 70] جنون وليس كذلك لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهناً { بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ } [المؤمنون : 70] الأبلج والصراط المستقيم وبما خالف
184
شهواتهم وأهواءهم وهو التوحيد والإسلام ولم يجدوا له مرداً ولا مدفعاً فلذلك نسبوه إلى الجنون { وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [المؤمنون : 70] وفيه دليل على أن أقلهم ما كان كارهاً للحق بل كان تاركاً للإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه كأبي طالب.
جزء : 3 رقم الصفحة : 184

(104/3)

{ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ } [المؤمنون : 71] أي الله { أَهْوَآءَهُمْ } فيما يعتقدون من الآلهة { لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالارْضُ } [المؤمنون : 71] كما قال { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء : 22] { وَمَن فِيهِنَّ } [المؤمنون : 71] خص العقلاء بالذكر لأن غيرهم تبع { بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ } [المؤمنون : 71] بالكتاب الذي هو ذكرهم أي وعظهم أو شرفهم لأن الرسول منهم والقرآن بلغتهم ، أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه { وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الاوَّلِينَ } الآية.

{ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ } [المؤمنون : 71] بسوء اختيارهم { أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ } [المؤمنون : 72] حجازي وبصري وعاصم ، خرجا فخرج شامي ، خراجا فخراج علي وحمزة ، وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك وإلى كل عامل من أجرته وجعله ، والخرج أخص من الخراج تقول " خراج القرية وخرج الكوفة " فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذا حسنت لقراءة الأولى يعني أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من الخالق خير { وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [المؤمنون : 72] أفضل المعطين { وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [المؤمنون : 73] وهو الإسلام فحقيق أن يستجيبوا لك.

{ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالاخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ } [المؤمنون : 74] لعادلون عن هذا الصراط المذكور وهو الصراط المستقيم { وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ } [المؤمنون : 75] لما أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا

185

العلهز جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال له : أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال : " بلى " فقال : قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت الآية. والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو القحط الذي أصابهم برحمته لهم ووجدوا الخصب { لَّلَجُّوا } أي لتمادوا { فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة : 15] يترددون يعني لعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين ، ولذهب عنهم هذا التملق بين يديه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 185

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ } [المؤمنون : 76] استشهد على ذلك بأنا أخذناهم أولاً بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم ، فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة أي خضوع ولا تضرع.

وقوله وما يتضرعون عبارة عن دوام حالهم أي وهم على ذلك بعد ولذا لم يقل وما تضرعوا.

ووزن استكان استفعل من الكون أي انتقل من كون إلى كون كما قيل " استحال " إذا انتقل من حال إلى حال.

{ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا } [المؤمنون : 77] فتّحنا يزيد { عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ } [المؤمنون : 77] أي باب الجوع الذي هو أشد من الأسر والقتل { إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } [المؤمنون : 77] متحيرون آيسون من كل خير.

وجاء أعتاهم وأشدهم شكيمة في العناد ليستعطفك أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ } [الروم : 12] { وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالابْصَارَ وَالافْاِدَةَ } [المؤمنون : 78] خصها بالذكر لأنها يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها { قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ } [الأعراف : 10] أي تشكرون شكراً قليلاً.

و " ما " مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً ، والمعنى إنكم لم تعرفوا عظم هذه النعم
186
ووضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم في آيات الله وأفعاله ، ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشركوا به شيئا
جزء : 3 رقم الصفحة : 186

(105/3)

{ وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ } [المؤمنون : 79] خلقكم وبثكم بالتناسل { فِى الارْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [المؤمنون : 79] تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم { وَهُوَ الَّذِى يُحْىِ وَيُمِيتُ } [المؤمنون : 80] أي يحيى النسم بالإنشاء ويميتها بالإفناء { وَلَهُ اخْتِلَافُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ } [المؤمنون : 80] أي مجيء أحدهما عقيب الآخر واختلافهما في الظلمة والنور أو في الزيادة والنقصان وهو مختص به ولا يقدر على تصريفهما غيره { أَفَلا تَعْقِلُونَ } [البقرة : 44] فتعرفوا قدرتنا على البعث أو فتستدلوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا { بَلْ قَالُوا } [الأنبياء : 5] أي أهل مكة { مِثْلَ مَا قَالَ الاوَّلُونَ } [المؤمنون : 81] أي الكفار قبلهم.
ثم بين ما قالوا بقوله { قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } متنا نافع وحمزة وعلي وحفص.
{ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَاذَا } [المؤمنون : 83] أي البعث { مِن قَبْلُ } [يوسف : 6] مجيء محمد { إِنْ هَاذَآ إِلا أَسَاطِيرُ الاوَّلِينَ } [الأنعام : 25] جمع أسطار جمع سطر وهي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له وجمع أسطورة أوفق.
ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بإقامة الحجة على المشركين بقوله { قُل لِّمَنِ الارْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون : 84] فإنهم { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ } [المؤمنون : 87] لأنهم مقرون بأنه الخالق فإذا قالوا
جزء : 3 رقم الصفحة : 187
{ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [المؤمنون : 85]
187
فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها كان قادراً على إعادة الخلق ، وكان حقيقاً بأن لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية.
أفلا تذكرون بالتخفيف : حمزة وعلي وحفص ، وبالتشديد : غيرهم
جزء : 3 رقم الصفحة : 187

{ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } أفلا تخافونه فلا تشركوا به ، أو أفلا تتقون في جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الأشياء؟ { قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ } [المؤمنون : 88] الملكوت الملك والواو والتاء للمبالغة فتنبيء عن عظم الملك { وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون : 88] أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته منه ومنعته يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحداً { سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } [المؤمنون : 89] تخدعون عن الحق أو عن توحيده وطاعته ، والخادع هو الشيطان والهوى الأول لله بالإجماع إذ السؤال لمن ، وكذا الثاني والثالث عند غير أهل البصرة على المعنى لأنك إذا قلت : من رب هذا؟ فمعناه لمن هذا فيجاب لفلان كقول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف والقرى

ورب الجياد الجرد قيل لخالد

أي لمن المزالف.

ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر لأنك إذا قلت : من رب هذا؟ فجوابه فلان { بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ } [المؤمنون : 90] بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل { وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام : 28] في قولهم اتخذ الله ولداً ودعائهم الشريك.

ثم أكد كذبهم بقوله { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ } [المؤمنون : 91] لأنه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل 188

من جنسه { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـاهٍ } [المؤمنون : 91] وليس معه شريك في الألوهية { إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـاه بِمَا خَلَقَ } [المؤمنون : 91] لانفرد كل واحد من الآلهة بالذي خلقه فاستبدبه ولتمييز ملك كل واحد منهم عن الآخر { وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [المؤمنون : 91] ولغلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون ، وحين لم تروا أثراً لتمايز المماليك وللتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء ، ولا يقال إذاً لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب وههنا وقع لذهب جزاء وجواباً ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل لأن الشرط محذوف وتقديره : ولو كان معه آلهة لدلالة وما كان معه من إله عليه وهو جواب لمن حآجه من المشركين { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] من الأنداد والأولاد

{ عَالِمِ } بالجر صفة لله ، وبالرفع مدني وكوفي غير حفص خبر مبتدأ محذوف { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } [الزمر : 46] السر والعلانية { فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [المؤمنون : 92] من الأصنام وغيرها.

{ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ } [المؤمنون : 93] " ما " والنون مؤكدتان أي إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة { رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [المؤمنون : 94] أي فلا تجعلني قريناً لهم ولا تعذبني بعذابهم ، عن الحسن رضي الله عنه : أخبره الله أن له في أمته نقمة ولم يخبره متى وقتها ، فأمر أن يدعو هذا الدعاء.

ويجوز أن يسأل النبي المعصوم صلى الله عليه وسلّم ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه ، واستغفاره عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلسه سبعين مرة لذلك ، والفاء في فلا لجواب الشرط و رب اعتراض بينهما للتأكيد { وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ } [المؤمنون : 95] كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم : إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم فما وجه هذا الإنكار؟.

189

جزء : 3 رقم الصفحة : 189

{ ادْفَعْ بِالَّتِى } [المؤمنون : 96] بالخصلة التي { هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ } [المؤمنون : 96] هو أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة والمعنى أصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي شهادة أن لا إله إلا الله.

والسيئة : الشرك أو الفحش بالسلام أو المنكر بالموعظة.

وقيل : هي منسوخة بآية السيف.

وقيل : محكمة إذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى ثلم دين { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 96] من الشرك أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم فنجازيهم عليه { وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ } [المؤمنون : 97] من وساوسهم ونخساتهم ، والهمز : النخس ، والهمزات جمع الهمزة ومنه مهماز الرائض ، والمعنى أن الشياطين يحثون الناس على المعاصي كما تهمز الرآضة الدواب حثاً لها على المشي { وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ } [المؤمنون : 98] أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً أو عند تلاوة القرآن أو عند النزع { حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ } [المؤمنون : 99] " حتى " تتعلق بـ يصفون أي لا يزالون يشركون إلى وقت مجيء الموت ، أو لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت وما بينهما مذكور على وجه الاعتراض ، والتأكيد للإغضاء عنهم مستعيناً بالله على الشيطان أن يستنزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم { قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ } [المؤمنون : 99] أي ردوني إلى الدنيا خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم كخطاب الملوك { لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون : 100] في الموضع الذي تركت وهو الدنيا لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى ، قال قتادة : ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولكن ليتدارك ما فرط.

لعلي ساكنة الياء كوفي وسهل ويعقوب { كَلا } ردع

عن طلب الرجعة وإنكار واستبعاد { إِنَّهَا كَلِمَةٌ } [المؤمنون : 100] المراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهو قوله : رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت { هُوَ قَآ ئِلُهَا } [المؤمنون : 100] لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه { وَمِن وَرَآ ئِهِم } [المؤمنون : 100] أي أمامهم والضمير للجماعة { بَرْزَخٌ } حائل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا { إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الأعراف : 14] لم يرد أنهم يرجعون يوم البعث وإنما هو إقناط كلي لما علم أن لا رجوع بعد البعث إلا إلى الآخرة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 190

(107/3)

{ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ } [المؤمنون : 101] قيل : إنها النفخة الثانية { فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَاإِذٍ } [المؤمنون : 101] وبالإدغام : أبو عمرو لاجتماع المثلين وإن كانا من كلمتين يعني يقع التقاطع بينهم حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين ولا يكون التواصل بينهم بالأنساب إذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، وإنما يكون بالأعمال.

{ وَلا يَتَسَآءَلُونَ } [المؤمنون : 101] سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون في الدنيا لأن كلاً مشغول عن سؤال صاحبه بحاله.

ولا تناقض بين هذا وبين قوله { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ } [الصافات : 27] فللقيامة مواطن.

ففي موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون ، وفي موطن يفيقون فيتساءلون.

{ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } [الأعراف : 8] جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال الصالحة التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله : { فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } [الكهف : 105] { فَأُولَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَائِكَ } بالسيئات والمراد الكفار { فَأُولَائِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ } [الأعراف : 9] غبنوها { فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } [المؤمنون : 103] بدل من خسروا أنفسهم ولا محل للبدل والمبدل منه لأن الصلة لا محل لها أو خبر بعد خبر لـ أولئك أو خبر مبتدأ محذوف { تَلْفَحُ } أي تحرق { وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ } [المؤمنون : 104] عابسون فيقال لهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 191

{ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِى } [المؤمنون : 105] أي القرآن { تُتْلَى عَلَيْكُمْ } [آل عمران : 101] في الدنيا { فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ } [المؤمنون : 105] وتزعمون أنها ليست من الله تعالى.

{ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا } [المؤمنون : 106] ملكتنا { شِقْوَتُنَا } شقاوتنا حمزة وعلي وكلاهما مصدر أي شقينا بأعمالنا السيئة التي عملناها.

وقول أهل التأويل غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح ، لأنه إنما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم أنه يختاره ولا يكتب غير الذي علم أنه يختاره فلا يكون مغلوباً ومضطراً في الفعل ، وهذا لأنهم إنما يقولون ذلك القول اعتذاراً لما كان منهم من التفريط في أمره فلا يجمل أن يطلبوا لأنفسهم عذراً فيما كان منهم { وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلّينَ } [المؤمنون : 106] عن الحق والصواب { رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا } [المؤمنون : 107] أي من النار { فَإِنْ عُدْنَا } [المؤمنون : 107] إلى الكفر والتكذيب { فَإِنَّا ظَالِمُونَ } [المؤمنون : 107] لأنفسنا.

{ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ } اسكتوا سكوت ذلة وهوان { وَلا تُكَلّمُونِ } [المؤمنون : 108] في رفع العذاب عنكم فإنه لا يرفع ولا يخفف.

قيل : هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير أن يحضروني.

ارجعوني ولا تكلموني بالياء في الوصل والوقف : يعقوب وغيره بلا ياء { إِنَّهُ } إن الأمر والشأن { كَانَ فَرِيقٌ مّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا } مفعول ثان وبالضم : مدني وحمزة وعلي ، وكلاهما مصدر سخر كالسخر إلا أن في ياء النسبة مبالغة.

قيل : هم الصحابة رضي الله عنهم.

وقيل : أهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين { حَتَّى أَنسَوْكُمْ } [المؤمنون : 110] بتشاغلكم بهم على تلك الصفة { ذِكْرِى } فتركتموه أي كان التشاغل بهم سبباً لنسيانكم ذكري { وَكُنتُم مّنْهُمْ تَضْحَكُونَ } [المؤمنون : 110] استهزاء بهم.

(108/3)

{ إِنّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا } [المؤمنون : 111] بصبرهم { أَنَّهُمْ } أي لأنهم { هُمُ الْفَآ ئِزُونَ } [التوبة : 20] ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً أن جزيتهم اليوم فوزهم لأن جزى يتعدى إلى اثنين { وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً } [الإنسان : 12] إنهم حمزة وعلي على الاستئناف أي إنهم هم الفائزون لا أنتم.

{ قَالَ } أي الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة.

قل مكي وحمزة وعلي أمر لمالك أن يسألهم { كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الارْضِ } [المؤمنون : 112] في الدنيا {

عَدَدَ سِنِينَ } [المؤمنون : 112] أي كم عدد سنين لبثتم فكم نصب بـ لبثتم وعدد تمييز { قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } [الكهف : 19] استقصروا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها ، لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة { قَالُوا لَبِثْنَا } [المؤمنون : 113] أي الحساب أو الملائكة الذين يعدون أعمار العباد وأعمالهم فسل بلا همز : مكي وعلي { قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا } [المؤمنون : 114] أي ما لبثتم إلا زمناً قليلاً أو لبثاً قليلاً { لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون : 114] صدقهم الله تعالى في تقالهم لسني لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها قل إن حمزة وعلي { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } [المؤمنون : 115] حال أي عابثين أو مفعول له أي للعبث { وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ } [المؤمنون : 115] وبفتح التاء وكسر الجيم : حمزة وعلي ويعقوب وهو معطوف على { أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ } [المؤمنون : 115] أو على عبثاً أي للعبث ولنترككم غير مرجوعين بل خلقناكم للتكليف ، ثم للرجوع من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء { فَتَعَالَى اللَّهُ } [الأعراف : 190] عن أن يخلق عبثاً { الْمَلِكُ الْحَقُّ } [المؤمنون : 116] الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه ، أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه

193

{ لا إِلَاهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } [المؤمنون : 116] وصف العرش بالكرم لأن الرحمة تنزل منه أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

وقرىء شاذا برفع الكريم صفة للرب تعالى.

جزء : 3 رقم الصفحة : 193

{ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَاهًا ءَاخَرَ لا بُرْهَانَ } [المؤمنون : 117] أي لا حجة { لَهُ بِهِ } [المؤمنون : 117] اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك " من أحسن إلى زيد أحق بالإحسان منه فإن الله مثيبه " أو صفة لازمة جيء بها للتوكيد كقولك " يطير بجناحيه لا أن يكون في الالهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان " { فَإِنَّمَا حِسَابُهُ } [المؤمنون : 117] أي جزاؤه وهذا جزاء الشرط { عِندَ رَبِّهِ } [المؤمنون : 117] أي فهو يجازيه لا محالة { إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } [المؤمنون : 117] جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها إنه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله { وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ } [المؤمنون : 118] ثم قال { وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } [المؤمنون : 109] لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته.

194

سورة النور

مدنية وهي ستون وأربع آيات

{ سُورَةٌ } خبر مبتدأ محذوف أي هذه سورة { أَنزَلْنَاهَا } صفة لها.

وقرأ طلحة سورةً على " زيدا ضربته " أو على " اتل سورة " .

والسورة الجامعة لجمل آيات بفاتحة لها وخاتمة واشتقاقها من سور المدينة { وَفَرَضْنَاهَا } أي فرضنا أحكامها التي فيها.

وأصل الفرض القطع أي جعلناها مقطوعاً بها.

وبالتشديد : مكي وأبو عمرو للمبالغة في الإيجاب وتوكيده ، أو لأن فيها فرائض شتى ، أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم { سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا } [النور : 1] أي دلائل واضحات { لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [الأنعام : 152] لكي تتعظوا.

وبتخفيف الذال : حمزة وعلي وخلف وحفص.

ثم فصل أحكامها فقال { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى } [النور : 2] رفعهما على الابتداء والخبر محذوف أي فيما فرض عليكم الزانية والزاني أي جلدهما ، أو الخبر فاجلدوا ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي وتضمينه معنى الشرط وتقديره : التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه.

وكقوله : { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ } [النور : 4] .

وقرأ عيسى ابن عمر بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر

195

وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر.

جزء : 3 رقم الصفحة : 195

{ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِا ئَةَ جَلْدَةٍ } [النور : 2] الجلد ضرب الجلد وفيه إشارة إلى أنه لا يبالغ ليصل الألم إلى اللحم.

والخطاب للأئمة لأن إقامة الحد من الدين وهي على الكل إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم ، وهذا حكم حر ليس بمحصن إذ حكم المحصن الرجم وشرائط إحصان الرجم : الحرية والعقل والبلوغ والإسلام والتزوج بنكاح صحيح والدخول.

وهذا دليل على أن التغريب غير مشروع لأن الفاء إنما يدخل على الجزاء وهو اسم للكافي ، والتغريب المروي منسوخ بالآية كما نسخ الحبس والأذى في قوله { فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ } [النساء : 15] وقوله { فَاَاذُوهُمَا } بهذه الآية { وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ } [النور : 2] أي رحمة والفتح لغة وهي قراءة مكي.

وقيل : الرأفة في دفع المكروه والرحمة في إيصال المحبوب.

والمعنى أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله ولا يأخذهم اللين في استيفاء حدوده فيعطلوا الحدود أو يخففوا الضرب { فِى دِينِ اللَّهِ } [النصر : 2] أي في طاعة الله أو حكمه { إِن

كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ } [النساء : 59] من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه ، وجواب الشرط مضمر أي فاجلدوا ولا تعطلوا الحد { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا } [النور : 2] وليحضر موضع حدهما وتسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة { طَآ ئِفَةٌ } فرقة يمكن أن تكون حلقة ليعتبروا وانزجر هو وأقلها ثلاثة أو أربعة وهي صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول شيء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أربعة إلى أربعين رجلاً { مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنعام : 27] من المصدقين بالله.

جزء : 3 رقم الصفحة : 195

{ الزَّانِى لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَآ إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ } [النور : 3] أي الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء وإنما يرغب في خبيثة من شكله ، أو في مشركة والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة ، أو المشركين فالآية تزهيد في نكاح البغايا إذ الزنا عديل الشرك في القبح ، والإيمان قرين العفاف والتحصن وهو نظير قوله الخبيثات للخبيثين وقيل : كان نكاح الزانية محرماً 196

(110/3)

في أول الإسلام ثم نسخ بقوله : { وَأَنكِحُوا الايَامَى مِنكُمْ } [النور : 32] وقيل : المراد بالنكاح الوطء ، لأن غير الزاني يستقذر الزانية ولا يشتهيها وهو صحيح لكنه يؤدي إلى قولك " الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا يزنى بها إلا زان " .

وسئل صلى الله عليه وسلّم عمن زنى بامرأة ثم تزوجها فقال " أوله سفاح وآخره نكاح " ومعنى الجملة الأولى صفة الزاني بكونه غير راغب في العفائف ولكن في الفواجر ، ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان.

وقدمت الزانية على الزاني أولاً ثم قدم عليها ثانياً لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هي المادة التي منها نشأت تلك الجناية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلاً في ذلك بديء بذكرها.

وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه الخاطب ومنه بدء الطلب.

وقريء لا ينكح بالجزم على النهي ، وفي المرفوع أيضاً معنى النهي ولكن أبلغ واكد ، ويجوز أن يكون خبراً محضاً على معنى أن عادتهما جارية على ذلك وعلى المؤمن أن لا يدخل نفسه تحت هذه العادة وينتصون عنها { وَحُرِّمَ ذَالِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } [النور : 3] أي الزنا أو نكاح البغايا لقصد التكسب بالزنا أو لما فيه من التشبيه بالفساق وحضور مواقع التهمة والتسبب لسوء القالة فيه والغيبة

ومجالسة الخطائين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب.
جزء : 3 رقم الصفحة : 196
{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } [النور : 4] وبكسر الصاد : علي أي يقذفون بالزنا الحرائر والعفائف المسلمات المكلفات.
والقذف يكون بالزنا وبغيره والمراد هنا قذفهن بالزنا بأن يقول يا زانية لذكر المحصنات عقيب الزواني ولاشتراط أربعة شهداء بقوله { ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ } [النور : 4] أي ثم لم يأتوا بأربعة شهود يشهدون على الزنا لأن القذف بغير الزنا بأن يقول يا فاسق يا اكل الربا يكفي فيه شاهدان وعليه التعزير.
وشروط إحصان القذف : الحرية والعقل والبلوغ والإسلام والعفة عن الزنا.
والمحصن
197
كالمحصنة في وجوب حد القذف { فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً } [النور : 4] إن كان القاذف حراً ، ونصب ثمانين نصب المصادر كما نصب مائة جلدة و جلدة نصب على التمييز { وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا } [النور : 4] نكر شهادة في موضع النفي فتعم كل شهادة.
ورد الشهادة من الحد عندنا ويتعلق باستيفاء الحد أو بعضه على ما عرف ، وعند الشافعي رحمه الله تعالى يتعلق رد شهادته بنفس القذف.
فعندنا جزاء الشرط الذي هو الرمي الجلد ورد الشهادة على التأبيد وهو مدة حياتهم { وَأُوالَـائكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور : 4] كلام مستأنف غير داخل في حيز جزاء الشرط كأنه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطية.
جزء : 3 رقم الصفحة : 197

وقوله : { إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَالِكَ } [آل عمران : 89] أي القذف { وَأَصْلَحُوا } أحوالهم استثناء من الفاسقون ويدل عليه { فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [البقرة : 192] أي يغفر ذنوبهم ويرحمهم.
وحق الاستثناء أن يكون منصوباً عندنا لأنه عن موجب ، وعند من جعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية أن يكون مجروراً بدلاً من " هم " في " لهم " .
ولما ذكر حكم قذف الأجنبيات بين حكم قذف الزوجات فقال { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ } [النور : 6] أي يقذفون زوجاتهم بالزنا { وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ } [النور : 6] أي لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به { إِلا أَنفُسُهُمْ } [النور : 6] يرتفع على البدل من شهداء { فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ }

[النور : 6] بالرفع كوفي غير أبي بكر على أنه خبر والمبتدأ فشهادة أحدهم وغيرهم بالنصب لأنه في حكم المصدر بالإضافة إلى المصدر ، والعامل فيه المصدر الذي هو فشهادة أحدهم وعلى هذا خبره محذوف تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع { شَهَادَات بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } فيما رماها به الزنا { وَالْخَامِسَةَ } لا خلاف في رفع الخامسة هنا في المشهور والتقدير والشهادة الخامسة { وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ } [النور : 7] فهي مبتدأ وخبر { إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [النور : 7] فيما رماها به من الزنا { وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ } ويدفع عنها الحبس وفاعل يدرأ

198

{ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَات بِاللَّهِ إِنَّهُ } [النور : 8] إن الزوج { لَمِنَ الْكَاذِبِينَ } [النور : 8] فيما رماني به من الزنا

جزء : 3 رقم الصفحة : 198

{ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ } [النور : 9] أي الزوج { مِنَ الصَّادِقِينَ } [الأعراف : 70] فيما رماني به من الزنا.

ونصب حفص الخامسة عطفاً على أربع شهادات وغيره رفعها بالابتداء و أن غضب الله خبره.

وخفف نافع أن لعنة الله و أن غضب الله بكسر الضاد وهما في حكم المثقلة و أن غضب الله سهل ويعقوب وحفص وجعل في جانبها لأن النساء يستعملن اللعن كثيراً كما ورد به الحديث.

فربما يجترئن على الإقدام لكثرة جري اللعن على ألنستهن وسقوط وقوعه عن قلوبهن ، فذكر الغضب في جانبهن ليكون رادعاً لهن.

والأصل أن اللعان عندنا شهادات مؤكدات بالإيمان مقرونة باللعن قائمة مقام حد القذف في حقه ومقام حد الزنا في حقها ، لأن الله تعالى سماه شهادة.

فإذا قذف الزوج زوجته بالزنا وهما من أهل الشهادة صح اللعان بينهما ، وإذا التعنا كما بين في النهر لا تقع الفرقة حتى يفرق القاضي بينهما.

وعند زفر رحمه الله تعالى تقع بتلاعنهما والفرقة تطليقة بائنة ، وعند أبي يوسف وزفر والشافعي تحريم مؤبد.

ونزلت آية اللعان في هلال بن أمية أو عويمر حيث قال : وجدت على بطن امرأتي خولة شريك بن سحماء فكذبته فلاعن النبي صلى الله عليه وسلّم بينهما { وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ } [النساء : 113] تفضله { عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } [النور : 14] نعمته { وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ } [النور : 10] جواب " لولا " محذوف أي لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة.

199

جزء : 3 رقم الصفحة : 199

{ إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِالافْكِ } هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وأصله الأفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله عنها ، قالت عائشة : فقدت عقداً في غزوة بني المصطلق فتخلفت ولم يعرف خلو الهودج لخفتي ، فلما ارتحلوا أناخ لي صفوان بن المعطل بعيره وساقه حتى أتاهم بعد ما نزلوا فهلك فيّ من هلك ، فاعتللت شهراً وكان عليه الصلاة والسلام يسأل " كيف أنت " ؟ ولا أرى منه لطفاً كنت أراه حتى عثرت خالة أبي أم مسطح فقالت : تعس مسطح فأنكرت عليها فأخبرتني بالإفك ، فلما سمعت ازددت مرضاً وبت عند أبوي لا يرقأ لي دمع وما أكتحل بنوم وهما يظنان أن الدمع فالق كبدي حتى قال عليه الصلاة والسلام " ابشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك " فقلت : بحمد الله لا بحمدك { عُصْبَةٌ } جماعة من العشرة إلى الأربعين واعصوصبوا اجتمعوا وهم : عبد الله بن أبي رأس النفاق ، وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم { مِنكُمُ } من جماعة المسلمين وهم ظنوا أن الإفك وقع من الكفار دون من كان من المؤمنين

200

{ لا تَحْسَبُوهُ } [النور : 11] أي الإفك { شَرًّا لَّكُمْ } [النور : 11] عند الله { بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } [النور : 11] لأن الله أثابكم عليه وأنزل في البراءة منه ثماني عشرة آية ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلّم وأبي بكر وعائشة وصفوان ومن ساءه ذلك من المؤمنين { لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الاثْمِ } [النور : 11] أي على كل امريء من العصبة جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه ، وكان بعضهم ضحك وبعضهم تكلم فيه وبعضهم سكت.

{ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ } [النور : 11] أي عظمه عبد الله بن أبيّ { مِّنْهُم } أي من العصبة { لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النور : 11] أي جهنم.

يحكى أن صفوان مر بهودجها عليه وهو في ملأ من قومه فقال : من هذه؟ فقالوا : عائشة.

فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها.

ثم وبخ الخائضين فقال :

ق>

جزء : 3 رقم الصفحة : 200

{ لَّوْلا } هلا { إِذْ سَمِعْتُمُوهُ } [النور : 12] أي الإفك { ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ } [النور : 12] بالذين منهم فالمؤمنون كنفس واحدة وهو كقوله { وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ } [الحجرات : 11] { خَيْرًا } عفافاً وصلاحاً وذلك نحو ما يروى أن عمر رضي الله عنه قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : أنا قاطع بكذب المنافقين لأن الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك لأنه يقع على النجاسات فيتلطخ بها ، فلما عصمك الله من ذلك القدر من القذر فكيف لا يعصمك عن صحبة من تكون

متلطخة بمثل هذه الفاحشة؟ وقال عثمان : إن الله ما أوقع ظلك على الأرض لئلا يضع إنسان قدمه على ذلك الظل ، فلما لم يمكن أحداً من وضع القدم على ظلك كيف يمكن أحداً من تلويث عرض زوجتك؟ وكذا قال علي رضي الله عنه : إن جبريل أخبرك أن على نعليك قذراً وأمرك بإخراج النعل عن رجلك بسبب ما التصق به من القذر فكيف لا يأمرك بإخراجها بتقدير أن تكون متلطخة بشيء من الفواحش.

وروي أن أبا أيوب الأنصاري قال لامرأته : ألا ترين ما يقال؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءً؟ فقال : لا.

قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله فعائشة خير مني وصفوان خير منك.

وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر ولم يقل " ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم " ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات ، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن

201

الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن ، وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بإخوانه { وَقَالُوا هَاذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ } [النور : 12] كذب ظاهر لا يليق بهما.

جزء : 3 رقم الصفحة : 201

(113/3)

{ لَّوْلا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ } هلا جاؤوا على القذف لو كانوا صادقين بأربعة شهداء { فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ } [النور : 13] الأربعة { فَأُولَـائِكَ عِندَ اللَّهِ } [النور : 13] أي في حكمه وشريعته { هُمُ الْكَـاذِبُونَ } [النحل : 105] أي القاذفون لأن الله تعالى جعل التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوت الشهادة الشهود الأربعة وانتفاؤها ، والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم يكن لهم بينة على قولهم فكانوا كاذبين { وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النور : 14] " لولا " هذه لامتناع الشيء لوجود غيره بخلاف ما تقدم أي : ولولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ، وأن أترحم عليكم في الآخرة في العفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك ، يقال أفاض في الحديث وخاض واندفع { إِذْ } ظرف لـ مسكم أو لـ أفضتم { تَلَقَّوْنَهُ } يأخذه بعضكم من بعض. يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه { بِأَلْسِنَتِكُمْ } أي أن بعضكم كان يقول لبعض : هل بلغك حديث عائشة؟ حتى شاع فيما بينهم وانتشر فلم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه { وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ } [النور : 15] إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم لأن الشيء المعلوم يكون

علمه في القلب ثم يترجم عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب كقوله { يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ } [آل عمران : 167] { وَتَحْسَبُونَهُ } أي خوضكم في عائشة رضي الله عنها { هَيِّنًا } صغيرة { وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ } [النور : 15] كبيرة.

وجزع بعضهم عند الموت فقيل له في ذلك فقال : أخاف ذنباً لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم.

202

جزء : 3 رقم الصفحة : 202

{ وَلَوْلا } وهلا { إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَاذَا } [النور : 16] فصل بين لولا و { قُلْتُم } بالظرف لأن للظروف شأناً وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذا يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها.

وفائدة تقديم الظرف أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهم قدم ، والمعنى هلا قلتم إذ سمعتم الإفك ما يصح لنا أن نتكلم بهذا { سُبْحَانَكَ } للتعجب من عظم الأمر ومعنى التعجب في كلمة التسبيح أن الأصل أن يسبح الله عن رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه ، أو لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة.

وإنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة لأن النبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه والكفر غير منفر عندهم ، وأما الكشخنة فمن أعظم المنفرات { هَاذَا بُهْتَانٌ } [النور : 16] زور تبهت من يسمع { عَظِيمٌ } وذكر فيما تقدم هذا إفك مبين ، ويجوز أن يكونوا أمروا بهما مبالغة في التبري { يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا } [النور : 17] في أن تعودوا { لِمِثْلِهِ } لمثل هذا الحديث من القذف أو استماع حديثه { أَبَدًا } ما دمتم أحياء مكلفين { إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [البقرة : 91] فيه تهييج لهم ليتعظوا وتذكير بما يوجب ترك العود وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح.

{ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الايَاتِ } [النور : 18] الدلالات الواضحات وأحكام الشرائع والاداب الجميلة { وَاللَّهُ عَلِيمُ } [البقرة : 95] بكم وبأعمالكم { حَكِيمٌ } يجزي على وفق أعمالكم أو علم صدق نزاهتها وحكم ببراءتها.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ ءَامَنُوا } [النور : 19] أي ما قبح جداً ، والمعنى يشيعون الفاحشة عن قصد الإشاعة ومحبة لها

203

{ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا } [النور : 19] بالحد.
ولقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلّم ابن أبي وحساناً ومسطحاً الحد { وَالاخِرَةِ } بالنار وعدها إن لم يتوبوا { وَاللَّهُ يَعْلَمُ } [محمد : 26] بواطن الأمور وسرائر الصدور { وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [البقرة : 216] أي أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة وهو معاقبه عليها
جزء : 3 رقم الصفحة : 203
{ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ } [النساء : 83] لعجل لكم العذاب وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنة عليهم والتوبيخ لهم { وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ } حيث أظهر براءة المقذوف وأثاب { رَّحِيمٌ } بغفرانه جناية القاذف إذا تاب.
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } [النور : 21] أي آثاره ووساوسه بالإصغاء إلى الإفك والقول فيه { وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ } [النور : 21] فإن الشيطان { يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ } [الأعراف : 28] ما أفرط قبحه { وَالْمُنكَرِ } ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه { وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا } [النور : 21] ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك { وَلَاكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ } [النور : 21] يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها { وَاللَّهُ سَمِيعٌ } [البقرة : 224] لقولهم { عَلِيمٌ } بضمائرهم وإخلاصهم { وَلا يَأْتَلِ } [النور : 22] ولا يحلف من ائتلى إذا حلف افتعال من الألية أولا يقصر من الألو
جزء : 3 رقم الصفحة : 204
{ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ } [النور : 22] في الدين { وَالسَّعَةِ } في الدنيا { أَن يُؤْتُوا } [النور : 22] أي لا يؤتوا إن كان من الألية { أُوْلِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ } أي لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان ، أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا } [النور : 22] العفو الستر والصفح الإعراض أي ليتجاوزوا عن الجفاء وليعرضوا عن العقوبة
204
{ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ } [النور : 22] فليفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [البقرة : 218] فتأدبوا بأدب الله واغفروا وارحموا ، نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه في عائشة رضي الله عنها وكان مسكيناً بدرياً مهاجراً ، ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلّم على أبي بكر قال : بلى أحب أن يغفر الله لي ورد إلى مسطح نفقته.
جزء : 3 رقم الصفحة : 204

{ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ } [النور : 23] العفائف { الْغَافِلَاتِ } السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لأنهن لم يجر بن الأمور { الْمُؤْمِنَاتِ } بما يجب الايمان به.

عن ابن عباس رضي الله عنهما : هن أزواجه عليه الصلاة والسلام.

وقيل : هن جميع المؤمنات إذ العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

وقيل : أريدت عائشة رضي الله عنها وحدها.

وإنما جمع لأن من قذف واحدة من نساء النبي عليه الصلاة والسلام فكأنه قذفهن { لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النور : 23] جعل القذفة ملعونين في الدارين وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة إن لم يتوبوا ، والعامل في { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ } [النور : 24] يعذبون وبالياء حمزة وعلي { أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور : 24] أي بما أفكوا أو بهتوا والعامل في { يَوْمَاِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ } [النور : 25] بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ، ومعنى الحق الثابت الذي هم أهله.

وقرأ مجاهد بالرفع صفة لله كقراءة أبيّ يوفيهم الله الحق دينهم وعلى قراءة النصب يجوز أن يكون الحق وصفاً لله بأن ينتصب على المدح { وَيَعْلَمُونَ } عند ذلك { أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ } [النور : 25] لارتفاع الشكوك وحصول العلم الضروري.

ولم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك عائشة رضي الله عنها ، فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر ، وما ذاك إلا لأمر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة.

وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الإفك.

ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة : برأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها ، وموسى عليه السلام
205
من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم رضي الله عنها بإنطاق ولدها ، وعائشة رضي الله عنها بهذه الآي العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات ، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله والتنبيه على إنافة محله صلى الله عليه وسلّم وعلى آله.

جزء : 3 رقم الصفحة : 205

{ الْخَبِيثَاتُ } من القول تقال { لِلْخَبِيثِينَ } من الرجال والسناء { وَالْخَبِيثُونَ } منهم يتعرضون {

لِلْخَبِيثَاتِ } من القول وكذلك { يَقُولُونَ } أي فيهم و أولئك إشارة إلى الطيبين وأنهم مبرؤون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم ، وهو كلام جارٍ مجرى المثل لعائشة رضي الله عنها وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب ، ويجوز أن يكون إشارة إلى أهل البيت وأنهم مبرؤون مما يقول أهل الإفك ، وأن يراد بالخبيثات والطيبات النساء الخبائث يتزوجن الخباث والخباث تتزوج الخبائث وكذا أهل الطيب { لَهُم مَّغْفِرَةٌ } [المائدة : 9] مستأنف أو خبر بعد خبر { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الانفال : 4] في الجنة.

ودخل ابن عباس رضي الله عنهما على عائشة رضي الله عنها في مرضها وهي خائفة من القدوم على الله تعالى فقال : لا تخافي لأنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم وتلا الآية فغشي عليها فرحاً بما تلا.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتهن امرأة ، نزل جبريل بصورتي في راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام إن يتزوجني ، وتزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري ، وتوفي عليه الصلاة والسلام ورأسه في حجري ، وقبر في بيتي(1) ، وينزل عليه الوحي وأنا في لحافه وأنا ابنة خليفته وصديقه ، ونزل عذري من السماء ، وخلقت طيبة عند طيب ، ووعدت مغفرة ورزقاً كريماً.

وقال حسان معتذراً في حقها :

حصانٌ رزانٌ ما تزن بريبة وتسبح غرثى من لحوم الغوافل حليلة خير الناس ديناً ومنصباً نبي الهدى والمكرمات الفواضل عقيلة حيّ من لؤي بن غالب

كرام المساعي مجدها غير زائل

206

مهذبة قد طيب الله خيرها

وطهرها من كل شين وباطل

جزء : 3 رقم الصفحة : 206

(116/3)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ } [النور : 27] أي بيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنونها { حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا } [النور : 27] أي تستأذنوا ، عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد قرأ به ، والاستئناس في الأصل الاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً أي حتى تستعلموا أيطلق لكم الدخول أم لا ، وذلك بتسبيحة أو بتكبيرة أو بتحميدة أو بتنحنح { وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا } [النور : 27] والتسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات ، فإن أذن له

وإلا رجع ، وقيل : إن تلاقيا يقدم التسليم وإلا فالاستئذان { ذَالِكُمْ } أي الاستئذان والتسليم { خَيْرٌ لَّكُمْ } [البقرة : 184] من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير إذن فكأن الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول حييتم صباحاً وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد { لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [الأنعام : 152] أي قيل لكم هذا لكي تذكروا وتتعظوا وتعملوا ما أمرتم به في باب الاستئذان { فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ } [النور : 28] في البيوت { أَحَدًا } من الاذنين { فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ } [النور : 28] حتى تجدوا من يأذن لكم ، أو فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخولها إلا بإذن أهلها لأن التصرف في ملك الغير لا بد من أن يكون برضاه { وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا } [النور : 28] أي إذا كان فيها قوم فقالوا ارجعوا { فَارْجِعُوا } ولا تلحوا في إطلاق الإذن ولا تلجوا في تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الأبواب ، لأن هذا مما يجلب الكراهة فإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك ، وعن أبي عبيد : ما قرعت باباً على عالم قط.

{ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ } [النور : 28] أي الرجوع أطيب وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة أو أنفع وأنمى خيراً { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [البقرة : 283] وعيد للمخاطبين بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فموف جزاءه عليه.

207

جزء : 3 رقم الصفحة : 207

{ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا } [النور : 29] في أن تدخلوا { بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ } [النور : 29] استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها ما ليس بمسكون منها كالخانات والربط وحوانيت التجار { فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ } [النور : 29] أي منفعة كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع.

وقيل : الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ } [المائدة : 99] وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة { قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } [النور : 30] " من " للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل { وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ } [النور : 30] عن الزنا ولم يدخل " من " هنا لأن الزنا لا رخصة فيه بوجه ، ويجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفها وقدميها في رواية ، وإلى رأس المحارم والصدر والساقين والعضدين

جزء : 3 رقم الصفحة : 208

{ ذَالِكَ } أي غض البصر وحفظ الفرج { أَزْكَى لَهُمْ } [النور : 30] أي أطهر من دنس الاثم { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُ بِمَا يَصْنَعُونَ } [النور : 30] فيه ترغيب وترهيب يعني أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون.

{ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } [النور : 31] أمرن بغض الأبصار فلا

يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبتيه ، وإن اشتهت غضت بصرها رأساً ولا تنظر إلى المرأة إلا إلى مثل ذلك وغض بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها.
وإنما قدم غض الأبصار على حفظ الفروج لأن النظر بريد
208

(117/3)

الزنا ورائد الفجور فبذر الهوى طموح العين { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } [النور : 31] الزينة ما تزينت به المرأة من حلي أو كحل أو خضاب ، والمعنى ولا يظهرن مواضع الزينة إذ إظهار عين الزينة وهي الحلي ونحوها مباح فالمراد بها مواضعها أو إظهارها وهي في مواضعها لإظهار مواضعها لا لإظهار أعيانها ، ومواضعها الرأس والأذن والعنق والصدر والعضدان والذراع والساق فهي للإكليل والقرط والقلادة والوشاح والدملج والسوار والخلخال { إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا } [النور : 31] إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ، ففي سترها حرج بين فإن المرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن { وَلْيَضْرِبْنَ } وليضعن من قولك " ضربت بيدي على الحائط " إذا وضعتها عليه { بِخُمُرِهِنَّ } جمع خمار { عَلَى جُيُوبِهِنَّ } [النور : 31] بضم الجيم : مدني وبصري وعاصم.
كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من أقدامهن حتى تغطيها.
جزء : 3 رقم الصفحة : 208
{ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ } [النور : 31] أي مواضع الزينة الباطنة كالصدر والساق والرأس ونحوها { إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ } [النور : 31] لأزواجهن جمع بعل { أَوْ ءَابَآ ئِهِنَّ } [النور : 31] ويدخل فيهم الأجداد { أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ } [النور : 31] فقد صاروا محارم { أَوْ أَبْنَآ ئِهِنَّ } [النور : 31] ويدخل فيهم النوافل { أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ } [النور : 31] فقد صاروا محارم أيضاً { أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ } [النور : 31] ويدخل فيهم النوافل وسائر المحارم كالأعمام والأخوال وغيرهم دلالة { أَوْ نِسَآ ئِهِنَّ } [النور : 31] أي الحرائر لأن مطلق هذا اللفظ يتناول الحرائر { أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ } [النور : 31] أي إمائهن ولا يحل لبعدها أن ينظر إلى هذه المواضع منها خصياً كان أو عنيناً أو فحلاً.
وقال سعيد بن المسيب : لا تغرنكم سورة النور فإنها في الإماء دون الذكور.
وعن عائشة رضي الله عنها أنها أباحت النظر إليها لعبدها { أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ } [النور : 31]

بالنصب : شامي ويزيد وأبو بكر على الاستثناء أو الحال ، وغيرهم بالجر على البدل أو على الوصفية { أُوْلِى الاربَةِ } [النور : 31] الحاجة إلى النساء.

قيل : هم

209

الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء لأنهم بله لا يعرفون شيئاً من أمرهن ، أو شيوخ صلحاء ، أو العنين أو الخصي والمخنث.

وفي الأثر أنه المجبوب والأول الوجه { مِنَ الرِّجَالِ } [النور : 31] حال { أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ } [النور : 31] هو جنس فصلح أن يراد به الجمع { لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ } [النور : 31] أي لم يطلعوا لعدم الشهوة من ظهر على الشيء إذا أطلع عليه ، أو لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان إذا قوي عليه { وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ } [النور : 31] كانت المرأة تضرب الأرض برجليها إذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال فنهين عن ذلك إذ سماع صوت الزينة كإظهارها ومنه سمي صوت الحلي وسواساً { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ } [النور : 31] { أَيُّهَ } شامي إتباعاً للضمة قبلها بعد حذف الألف لالتقاء الساكنين ، وغيره على فتح الهاء لأن بعدها ألفاً في التقدير { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [البقرة : 189] العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه وإن اجتهد.

فلذا وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة وبتأميل الفلاح إذا تابوا وقيل : أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس له حاجة إلى التوبة ، وظاهر الآية يدل على أن العصيان لا ينافي الإيمان.

جزء : 3 رقم الصفحة : 208

(118/3)

{ وَأَنكِحُوا الايَامَى مِنكُمْ } [النور : 32] الأيامى جمع أيم وهو من لا زوج له رجلاً أو امرأة ، بكراً كان أو ثيباً ، وأصله أيائم فقلبت { وَالصَّالِحِينَ } أي الخيرين أو المؤمنين ، والمعنى زوجوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح { مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآ ائِكُمْ } [النور : 32] أي من غلمانكم وجواريكم والأمر للندب إذ النكاح مندوب إليه { إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ } [النور : 32] من المال { يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } [النور : 33] بالكفاية والقناعة أو باجتماع الرزقين ، وفي الحديث " التمسوا الرزق بالنكاح " وعن عمر رضي الله عنه روي مثله { وَاللَّهُ وَاسِعٌ } [البقرة : 247] غني ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق { عَلِيمٌ } يبسط الرزق لمن

210

يشاء ويقدر.

وقيل : في الآية دليل على أن تزويج النساء والأيامى إلى الأولياء كما أن تزوج العبيد والإماء إلى الموالي.

قلنا : الرجل لا يلي على الرجل الأيم إلا بإذنه فكذا لا يلي على المرأة إلا بإذنها لأن الأيم ينتظمها

جزء : 3 رقم الصفحة : 210

{ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ } [النور : 33] وليجتهدوا في العفة كأن المستعف طالب من نفسه العفاف { لا يَجِدُونَ نِكَاحًا } [النور : 33] استطاعة تزوج من المهر والنفقة { حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ } [النور : 33] حتى يقدرهم على المهر والنفقة.

قال عليه الصلاة والسلام " يا معشر الشباب من استطع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحسن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " (1) فانظر كيف رتب هذه الأوامر ، فأمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعه المعصية وهو غض البصرد ثم بالنكاح المحصن للدين المغني عن الحرام ، ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه.

{ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } [النور : 33] أي المماليك الذين يطلبون الكتابة فـ الذين مرفوع بالابتداء أو منصوب بفعل يفسره { فَكَاتِبُوهُمْ } وهو للندب ودخلت الفاء لتضمنة معنى الشرط.

والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة وهو أن يقول لمملوكه : كاتبتك على ألف درهم.

فإن أداها عتق ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال ، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك.

أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت عليّ العتق ، ويجوز حالاً ومؤجلاً ومنجماً وغير منجم لإطلاق الأمر { إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا } [النور : 33] قدرة على الكسب أو أمانة وديانة والندبية معلقة بهذا الشرط { وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى } [النور : 33] أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالى { وَفِي الرِّقَابِ } [البقرة : 177] وعند الشافعي رحمه الله : معناه حطوا من بدل الكتابة ربعاً.

وهذا عندنا على وجه الندب والأول الوجه لأن الإيتاء هو التمليك فلا يقع على

211

الحط.

سأل صبيح مولاه حويطباً أن يكاتبه فأبى فنزلت.

واعلم أن العبيد أربعة : قن مقتنى للخدمة ، ومأذون في التجارة ، ومكاتب ، وآبق.

فمثال الأول ولي العزلة الذي حصل العزلة بإيثار الخلوة وترك العشرة ، والثاني ولي العشرة فهو نجي الحضرة يخالط الناس للخبرة وينظر إليهم بالعبرة ويأمرهم بالعبرة فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم يحكم بحكم الله ويأخذ لله ويعطي في الله ويفهم عن الله ويتكلم مع الله ، فالدنيا سوق

تجارته ، والعقل رأس بضاعته ، والعدل في الغضب والرضا ميزانه ، والقصد في الفقر والغنى عنوانه ، والعز مفزعه ومنحاه ، والقرآن كتاب الإذن من مولاه ، هو كائن في الناس بظواهره ، بائن منهم بسرائره ، فقد هجرهم فيما له عليهم في الله باطناً ، ثم وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهراً :

جزء : 3 رقم الصفحة : 211

وما هو منهمو بالعيش فيهم

ولكن معدن الذهب الرغام

يأكل ما يأكلون ويشرب ما يشربون ، وما يدريهم أنه ضعيف الله يرى السماوات والأرض قائمات بأمره وكأنه قيل فيه :

فإن تفق الأنام وأنت منهم

فإن المسك بعض دم الغزال

(119/3)

فحال ولي العزلة أصفى وأحلى ، وحال ولي العشرة أوفى وأعلى ، ونزل الأول من الثاني في حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان.

أما النبي عليه الصلاة والسلام فهو كريم الطرفين ومعدن الشذرين ومجمع الحالين ومنبع الزلالين ، فباطن أحواله مهتدى ولي العزلة ، وظاهر أعماله مقتدى ولي العشرة ، والثالث المجاهد المحاسب العامل المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب عليه في اليوم والليلة خمس ، وفي المائتي درهم خمسة ، وفي السنة شهر ، وفي العمر زورة ، فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة فيسعى في فكاك رقبته خوفاً من البقاء في ربقة العبودية ، وطمعاً في فتح باب الحرية ليسرح في رياض الجنة فيتمتع

212

بمناه ويفعل ما يشاؤه ويهواه.

والرابع الإباق فما أكثرهم فمنهم القاضي الجائر والعالم الغير العامل والعامل المرائي والواعظ الذي لا يفعل ما يقول ويكون أكثر أقواله فضول وعلى كل ما لا ينفعه نصول فضلا عن السارق والزاني والغاصب فعنهم أخبر النبي عليه الصلاة والسلام : " إن الله لينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم في الآخرة " .

{ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ } [النور : 33] كان لابن أبيّ ست جوار : معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة ، يكرههن على البغاء وضرب عليهن الضرائب ، فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فنزلت.

ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة والبغاء الزنا للنساء خاصة وهو مصدر لبغت { إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا } [النور : 33] تعففاً عن الزنا.
وإنما قيده بهذا الشرط لأن الإكراه لا يكون إلا مع إرادة التحصن ، فآمر المطيعة للبغاء لا يسمى مكرهاً ولا أمره إكراهاً ، ولأنها نزلت على سبب فوقع النهي على تلك الصفة ، وفيه توبيخ للموالي أي إذا رغبن في التحصن فأنتم أحق بذلك { لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَواةِ الدُّنْيَا } [النور : 33] أي لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن { وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور : 33] أي لهن ، وفي مصحف ابن مسعود كذلك وكان الحسن يقول : لهن والله لهن والله.
ولعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة وهو الذي يخاف منه التلف فكانت آثمة أو لهم إذا تابوا
جزء : 3 رقم الصفحة : 211
{ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ } [النور : 34] بفتح الياء : حجازي وبصري وأبو بكر وحماد.
والمراد الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت في معاني الأحكام والحدود ، وجاز أن يكون الأصل مبيناً فيها فاتسع في الظرف أي أجري مجرى المفعول به كقوله " ويوم شهدناه " وبكسرها غيرهم أي بينت هي الأحكام والحدود جعل الفعل لها مجازاً أو من بين بمعنى تبين ومنه
213
المثل.
" قد بين الصبح لذي عينين "
{ وَمَثَلا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ } [النور : 34] ومثلاً من أمثال من قبلكم أي قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعني قصة عائشة رضي الله عنها { وَمَوْعِظَةً } ما وعظ به من الآيات والمثل من نحو قوله تعالى : { وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ } [النور : 2].
{ لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ } [النور : 12].
{ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ } [النور : 16] { يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا } [النور : 17] { لِّلْمُتَّقِينَ } أي هم المنتفعون بها وإن كانت موعظة للكل.
نظير قوله
جزء : 3 رقم الصفحة : 213

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [النور : 35] مع قوله { مَثَلُ نُورِهِ } [النور : 35] و { يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ } [النور : 35] قولك زيد كرم وجود ثم تقول : ينعش الناس بكرمه وجوده ، والمعنى ذو نور السماوات و { نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [النور : 35] الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله : {

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [البقرة : 257] أي من الباطل إلى الحق.
وأضاف النور إليهما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض ، وجاز أن المراد أهل السماوات والأرض وأنهم يستضيئون به { مَثَلُ نُورِهِ } [النور : 35] أي صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة { كَمِشْكَاوةٍ } كصفة مشكاة وهي الكوّة في الجدار غير النافذة { فِيهَا مِصْبَاحٌ } [النور : 35] أي سراج ضخم ثاقب { الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ } [النور : 35] في قنديل من زجاج شامي بكسر الزاي { الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ } [النور : 35] مضيء بضم الدال وتشديد الياء منسوب إلى الدر لفرط ضيائه وصفائه ، وبالكسر والهمزة عمرو وعلي كأنه يدرأ الظلام بضوئه ، وبالضم والهمزة أبو بكر وحمزة شبه في زهوته بأحد الكواكب الدراري كالمشتري والزهرة ونحوهما { يُوقَدُ } توقد بالتخفيف : حمزة وعلي وأبو بكر الزجاجة و { يُوقَدُ } بالتخفيف : شامي ونافع وحفص وتوقد بالتشديد : مكي وبصري أي هذا المصباح { مِن شَجَرَةٍ } [لقمان : 27] أي ابتدأ ثقوبه من زيت شجرة الزيتون يعني

214

رويت ذبالته بزيتها { مُّبَارَكَةٍ } كثيرة المنافع أو لأنها نبتت في الأرض التي بورك فيها للعالمين.
وقيل : بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم عليه السلام { زَيْتُونَةٍ } بدل من شجرة نعتها { لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ } [النور : 35] أي منبتها الشام يعني ليست من المشرق ولا من المغرب بل في الوسط منهما وهو الشام وأجود الزيتون زيتون الشام.
وقيل : ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط بل يصيبها بالغداة والعشي جميعها فهي شرقية وغربية.
جزء : 3 رقم الصفحة : 214
{ يَكَادُ زَيْتُهَا } [النور : 35] دهنها { يُضِىء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ } [النور : 35] وصف الزيت بالصفاء والوميض وأنه لتلألئه يكاد يضيء من غير نار { نُّورٌ عَلَى نُورٍ } [النور : 35] أي هذا النور الذي شبه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوي النور ، وهذا لأن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينتشر فيه.
والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة وكذلك الزيت وصفاؤه ، وضرب المثل يكون بدنيء محسوس معهود لا يعلي غير معاين ولا مشهود فأبو تمام لما قال في المأمون :

إقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء إياس

قيل له : إن الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلاً :

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلاً من المشكاة والنبراس
{ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ } [النور : 35] أي لهذا النور الثاقب { مَن يَشَآءُ } [آل عمران : 13] من عباده أي يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده بإلهام من الله أو بنظره في الدليل { وَيَضْرِبُ اللَّهُ الامْثَالَ لِلنَّاسِ } [إبراهيم : 25] تقريباً إلى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة : 282] فيبين كل شيء بما يمكن أن يعلم به.
وقال ابن عباس رضي الله عنه : مثل نوره أي نور الله الذي هدى به المؤمن.
وقرأ ابن مسعود رحمه الله مثل نوره في قلب المؤمن
215
كمشكاة وقرأ أبيّ مثل نور المؤمن.
جزء : 3 رقم الصفحة : 214

(121/3)

{ فِى بُيُوتٍ } [النور : 36] يتعلق بمشكاة أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل : مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت ، أو بـ توقد أي توقد في بيوت ، أو يسبح أي يسبح له رجال في بيوت.
و فيها تكرير فيه توكيد نحو " زيد في الدار جالس فيها " أو بمحذوف أي سبحوا في بيوت { أَذِنَ اللَّهُ } [النور : 36] أي أمر { أَن تُرْفَعَ } [النور : 36] تبنى كقوله { بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا } [النازعات : 27 ، 28] { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِ مُ الْقَوَاعِدَ } [البقرة : 127] أن تعظم من الرفعة.
وعن الحسن : ما أمر الله أن ترفع بالبناء ولكن بالتعظيم { وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ } [النور : 36] يتلى فيها كتابه أو هو عام في كل ذكر { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالاصَالِ } [النور : 36] أي يصلى له فيها بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين.
وإنما وحد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة ، وفي الآصال صلوات والاصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشي { رِجَالٌ } فاعل يسبح يسبح شامي وأبو بكر ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو و { رِجَالٌ } مرفوع بما دل عليه يسبح أي يسبح له { لا تُلْهِيهِمْ } [النور : 37] لا تشغلهم { تِجَارَةٌ } في السفر { وَلا بَيْعٌ } [النور : 37] في الحضر.
وقيل : التجارة الشراء إطلاقاً لاسم الجنس على النوع أو خص البيع بعد ماعم لأنه أوغل في الإلهاء من الشراء لأن الربح في البيعة الرابحة متيقن وفي الشراء مظنون { عَن ذِكْرِ اللَّهِ } [النور : 37] باللسان والقلب { إِلَى الصَّلَواةِ } [المائدة : 58] أي وعن إقامة الصلاة.

التاء في إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال واوصل إقوام فلما قلبت الواو ألفا اجتمع ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف ، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام التاء فأسقطت { وَجَعَلْنَاهُمْ أَاِمَّةً } [الأنبياء : 73] أي وعن إيتاء الزكاة والمعنى لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة ، أو يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك
216
وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متثاقلين كأولياء العشرة.
جزء : 3 رقم الصفحة : 216
{ يَخَافُونَ يَوْمًا } [النور : 37] أي يوم القيامة ويخافون حال من الضمير في تلهيهم أو صفة أخرى لـ رجال { تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ } [النور : 37] ببلوغها إلى الحناجر { وَالابْصَارُ } بالشخوص والزرقة أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان كقوله { فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } [ق : 22]
جزء : 3 رقم الصفحة : 216
{ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ } [النور : 38] أي يسبحون ويخافون لنيجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم أي ليجزيهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلاً { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [البقرة : 212] أي يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب الخلق.
هذه صفات المهتدين بنور الله فأما الذين ضلوا عنه فالمذكورون في قوله { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَاب } [النور : 39] هو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري { بِقِيعَةٍ } بقاع أو جمع قاع وهو المنبسط المستوي من الأرض كجيرة في جار { يَحْسَبُهُ الظَّمْاَانُ } [النور : 39] يظنه العطشان { مَآءً حَتَّى إِذَا جَآءَهُ } [النور : 39] أي جاء إلى ما توهم أنه ماء { لَمْ يَجِدْهُ شيئا } [النور : 39] كما ظنه { وَوَجَدَ اللَّهَ } [النور : 39] أي جزاء الله كقوله يجد الله غفوراً رحيماً أي يجد مغفرته ورحمته { عِندَهُ } عند الكافر { فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } [النور : 39] أي أعطاه جزاء عمله وافياً كاملاً.
وحد بعد تقدم الجمع حملاً على كل واحد من الكفار { وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [البقرة : 202] لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد ولا يشغله حساب عن حساب ، أو قريب حسابه لأن ما هو آتٍ قريب شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة
217

التي يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ، ثم يخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله فيهم : { عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ } [الغاشية : 3].

{ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف : 104].

قيل : نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان يترهب ملتمساً للدين في الجاهلية فلما جاء الإسلام كفر.

جزء : 3 رقم الصفحة : 217

{ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ } [النور : 40] " أو " هنا كـ " أو " في { أَوْ كَصَيِّبٍ } [البقرة : 19] { لُّجِّيٍّ } عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر { يَغْشَاهُ } يغشى البحر أو من فيه يعلوه ويغطيه { مَوْجٌ } هو ما ارتفع من الماء { مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ } [النور : 40] أي من فوق الموج موج آخر { مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ } [النور : 40] من فوق الموج الأعلى سحاب { ظُلُمَاتُ } أي هذه ظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر { بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ } [النور : 40] ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة الموج على الموج وظلمة السحاب على الموج { إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ } [النور : 40] أي الواقع فيه { لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا } [النور : 40] مبالغة في لم يرها أي لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها ، شبه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجد من خدعه من بعيد شيئاً ولم يكفه خيبة وكمداً أن لم يجد شيئاً كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ، وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ } [النور : 40] من لم يهده الله لم يهتد عن الزجاج في الحديث " خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل " .

218

{ أَلَمْ تَرَ } [الحج : 63] ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام العيان في الإيقان { أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَالطَّيْرُ } [النور : 41] عطف على من { صَافَّاتٍ } حال من الطير أي يصففن أجنحتهن في الهواء { كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } [النور : 41] الضمير في علم لـ كل أو لله ، وكذا في صلاته وتسبيحه.

والصلاة الدعاء ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لايكاد العقلاء يتهتدون إليها { وَاللَّهُ عَلِيمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } [النور : 41] لا يعزب عن علمه شيء

جزء : 3 رقم الصفحة : 218

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [آل عمران : 189] لأنه خالقهما ومن ملك شيئاً فبتمليكه إياه { وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [آل عمران : 28] مرجع الكل { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى } [النور : 43] يسوق إلى حيث يريد { سَحَابًا } جمع سحابة دليله { ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ } [النور : 43] وتذكيره للفظ أي يضم بعضه إلى بعض { ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا } [النور : 43] متراكماً بعضه فوق بعض { فَتَرَى الْوَدْقَ } [النور : 43] المطر { يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ } [الروم : 48] من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال في جبل { وَيُنَزِّلُ } وينزل مكي ومدني وبصري { مِنَ السَّمَآءِ } [الشعراء : 4] لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء { مِن جِبَالٍ } [النور : 43] " من " للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي { فِيهَآ } في السماء { مِن بَرَدٍ } [النور : 43] للبيان أو الأوليان للابتداء والآخرة للتبعيض ، ومعناه أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها.

وعلى الأول مفعول ينزل من جبال أي بعض جبال فيها ومعنى من جبال فيها من برد أن يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الأرض جبال حجر أو يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال " فلان يملك جبالاً من ذهب " { فَيُصِيبُ بِهِ } [النور : 43] بالبرد { مَن يَشَآءُ } [آل عمران : 13] أي يصيب الإنسان وزرعه { وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ } [النور : 43-40] فلا يصيبه أو يعذب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه { يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ } [النور : 43] ضوؤه { يَذْهَبُ بِالابْصَارِ } [النور : 43]

219

يخطفها به { يَذْهَبُ } يزيد على زيادة الباء

جزء : 3 رقم الصفحة : 219

{ يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ } [النور : 44] يصرفهما في الاختلاف طولاً وقصراً أو التعاقب { إِنَّ فِى ذَالِكَ } [السجدة : 26] في إزجاء السحاب وإنزال الودق والبرد وتقليب الليل والنهار { لَعِبْرَةً لاوْلِى الابْصَارِ } [آل عمران : 13] لذوي العقول.

وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته حيث ذكر تسبيح من في السماوات والأرض وما يطير بينهما ودعاءهم له وتسخير السحاب إلى آخر ما ذكر ، فهي براهين لائحة على وجوده ودلائل على صفاته لمن نظر وتدبر.

ثم بين دليلاً آخر فقال تعالى.

{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ } [النور : 45] خالق كل حمزة وعلي { دَآبَّةٍ } كل حيوان يدب على وجه الأرض { مِّن مَّآءٍ } [الطارق : 6] أي من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أو من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها أناسي وهو كقوله { يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الاكُلِ } [الرعد : 4] وهذا دليل على أن لها خالقاً

ومدبراً وإلا لم تختلف لإتفاق الأصل.
وإنما عرف الماء في قوله : { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ } [الأنبياء : 30] لأن المقصود ثم أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء وأنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط.
قالوا : أن أول ما خلق الله الماء فخلق منه النار والريح والطين ، فخلق من النار الجن ، ومن الريح الملائكة ، ومن الطين آدم ودواب الأرض ، ولما كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمن ثم قيل { فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ } [النور : 45] كالحية والحوت.
وسمي الزحف على البطن مشياً استعارة كما يقال في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ، أو على طرائق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين { وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ } [النور : 45] كالإنسان والطير { وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ } [النور : 45] كالبهائم وقدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي
220
بغير آلة مشي من أرجل أو غيرها ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع { يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ } [النور : 45] كيف يشاء { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة : 20] لا يتعذر عليه شيء.
جزء : 3 رقم الصفحة : 220

(124/3)

{ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ } [النور : 46] بلطفه ومشيئته { إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [البقرة : 142] إلى دين الإسلام الذي يوصل إلى جنته والآيات لإلزام حجته لما ذكر إنزال الآيات ، ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق : فرقة صدقت ظاهراً وكذبت باطناً وهم المنافقون ، وفرقة صدقت ظاهراً وباطناً وهم المخلصون ، وفرقة كذبت ظاهراً وباطناً وهم الكافرون على هذا الترتيب.
وبدأ بالمنافقين فقال : { وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ } [النور : 47] بألسنتهم { وَأَطَعْنَا } الله والرسول { ثُمَّ يَتَوَلَّى } [النور : 47] يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله { فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَالِكَ } [النور : 47] أي من بعد قولهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا { وَمَآ أُوْلَئك بِالْمُؤْمِنِينَ } [المائدة : 43] أي المخلصين وهو إشارة إلى القائلين امنا ، وأطعنا ، لا إلى الفريق المتولي وحده.
وفيه إعلام من الله بأن جميعهم منتفٍ عنهم الإيمان لاعتقادهم ما يعتقد هؤلاء والإعراض وإن كان من بعضهم فالرضا بالإعراض من كلهم.
{ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النور : 48] أي إلى رسول الله كقولك " أعجبني زيد وكرمه " تريد كرم زيد { لِيَحْكُمَ } الرسول { بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ } [النور : 48] أي فاجأ من فريق منهم

الإعراض نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم والمنافق إلى كعب بن الأشرف ويقول : إن محمداً يحيف علينا { وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ } [النور : 49] أي إذا كان الحق لهم على غيرهم { يَأْتُوا إِلَيْهِ } [النور : 49] إلى الرسول { مُذْعِنِينَ } حال أي مسرعين في الطاعة طلباً لحقهم لا رضا بحكم رسولهم.

قال الزجاج : الإذعان الإسراع مع الطاعة.

والمعنى أنهم لمعرفتهم أنه ليس

221

معك إلا الحق المر والعدل البحث يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم في ذمة الخصم

جزء : 3 رقم الصفحة : 221

{ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ } [النور : 50] قسم الأمر في صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين أو مرتابين في أمر نبوته أو خائفين الحيف في قضائه.

ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله { بَلْ أُوْلئك هُمُ الظَّالِمُونَ } [النور : 50] أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام فمن ثم يأبون المحاكمة إليه.

{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ } [النور : 51] وعن الحسن قول بالرفع ، والنصب أقوى لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لكان أوغلهما في التعريف وأن يقولوا أوغل بخلاف قول المؤمنين { إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ } [النور : 51] النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم أي ليفعل الحكم { بَيْنَهُمْ } بحكم الله الذي أنزل عليه { أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا } [النور : 51] قوله { وَأَطَعْنَا } أمره { وَأُوالَئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة : 5] الفائزون { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ } [النساء : 69] في فرائضه { وَرَسُولُهُ } في سننه { وَيَخْشَ اللَّهَ } [النور : 52] على ما مضى من نوبه { وَيَتَّقْهِ } فيما يستقبل { فَأُوالَئكَ هُمُ الْفَآ ئِزُونَ } [النور : 52] وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية.

وهي جامعة لأسباب الفوز ويتقه بسكون الهاء : أبو عمرو وأبو بكر بنية الوقف ، وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة : حفص ، وبكسر القاف والهاء ، غيرهم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 222

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [الأنعام : 109] أي حلف المنافقون بالله جهد اليمين لأنهم

222

بذلوا فيها مجهودهم.
وجهد يمينه مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وذلك إذا بالغٍ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من قال بالله فقد جهد يمينه.
وأصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهداً فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول كقوله فضرب الرقاب وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال جاهدين أيمانهم { لَـاإِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ } [النور : 53] أي لئن أمرنا محمد بالخروج إلى الغزو لغزونا أو بالخروج من ديارنا لخرجنا { قُل لا تُقْسِمُوا } [النور : 53] لا تحلفوا كاذبين لأنه معصية { طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ } [النور : 53] أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة ، مبتدأ محذوف الخبر أو خبر مبتدأ محذوف أي الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها { إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة : 8] يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم وإنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم
جزء : 3 رقم الصفحة : 222
{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } [النور : 54] صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم { فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ } [النور : 54] يريد فإن تتولوا فما ضررتموه وإنما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى وكلفه من أداء الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه ، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه { وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } [النور : 54] أي وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى ، فالضرر في توليكم والنفع عائدان إليكم { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلَـاغُ الْمُبِينُ } [النور : 54] وما على الرسول إلا أن يبلغ ما له نفع في قلوبكم ولا عليه ضرر في توليكم.
والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية ، والمبين الظاهر لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات.
ثم ذكر المخلصين فقال
223
جزء : 3 رقم الصفحة : 223
{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ } [النور : 55] الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولمن معه و منكم للبيان.
وقيل : المراد به المهاجرون و " من " للتبعيض { لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الارْضِ } [النور : 55] أي أرض الكفار.

وقيل : أرض المدينة.
والصحيح أنه عام لقوله عليه الصلاة والسلام " ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل " { كَمَا اسْتَخْلَفَ } [النور : 55] استخلف أبو بكر { الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم } [النور : 55] وليبدلنهم بالتخفيف : مكي وأبو بكر { مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا } [النور : 55] وعدهم الله أن ينصر الاسلام على الكفر ويورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة ، وأن يمكن الدين المرتضى وهو دين الاسلام ، وتمكينه تثبيته وتعضيده وأن يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه.
وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ، ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام " لا تغبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس معه حديدة " فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا.
والقسم المتلقى باللام والنون في ليستخلفنهم محذوف تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم ، أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فيتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل : أقسم الله ليستخلفنهم { يَعْبُدُونَنِى } إن جعلته استئنافاً فلا محل له كأنه قيل : ما لهم يستخلفون ويؤمنون؟ فقال : يعبدونني موحدين ، ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى.
وإن جعلته حالاً عن

(126/3)

وعدهم أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم فمحله النصب { لا يُشْرِكُونَ بِى شيئا } [النور : 55] حال من فاعل يعبدون أي يعبدونني موحدين ، ويجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى.
{ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَالِكَ } [النور : 55] أي بعد الوعد والمراد كفران النعمة كقوله تعالى : { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ } [النحل : 112] { فَأُولَائِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [آل عمران : 82] هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة وجسروا على غمطها.
قالوا : أول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان رضي الله عنه فاقتتلوا بعدما كانوا إخواناً وزال عنهم الخوف ، والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

{ وَإِذْ أَخَذْنَا } [البقرة : 83] معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا يضر الفصل وإن طال { وَءَاتُوا الزكاة وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } [النور : 56] فيما يدعوكم إليه وكررت طاعة الرسول تأكيداً لوجوبها { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [آل عمران : 132] أي لكي ترحموا فإنها من مستجلبات الرحمة ثم ذكر الكافرين فقال { لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الارْضِ } [النور : 57] أي فائتين الله بأن لا يقدر عليهم فيها ، فالتاء خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وهو الفاعل والمفعولان الذين كفروا و معجزين وبالياء شامي وحمزة والفاعل النبي صلى الله عليه وسلّم لتقدم ذكره والمفعولان { الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] و معجزين { وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ } [آل عمران : 151] معطوف على { لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الارْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ } أي المرجع النار.

جزء : 3 رقم الصفحة : 225

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } [النور : 58] أمر بأن يستأذن العبيد

225

(127/3)

والإماء { وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ } [النور : 58] أي الأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ، وقريء بسكون اللام تخفيفاً { ثَلَاثَ مَرَّاتٍ } [النور : 58] في اليوم والليلة وهي { مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ } [النور : 58] لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة { وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ } [النور : 58] وهي نصف النهار في القيظ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة { وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَآءِ } [النور : 58] لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم { ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ } [النور : 58] أي هي أوقات ثلاثة عورات فحذف المبتدأ والمضاف.

وبالنصب : كوفي غير حفص بدلاً من ثلاث مرات أي أوقات ثلاث عورات.

وسمي كل واحد من هذه الأحوال عورة لأن الإنسان يختل تستره فيها ، والعورة : الخلل ومنها الأعور المختل العين.

دخل غلام من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر رضي الله عنه وقت الظهيرة وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله عنه : وددت أن الله نهى عن الدخول في هذه الساعات إلا بالإذن ، فانطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وقد نزلت عليه الآية.

ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات بقوله { لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحُ بَعْدَهُنَّ } [النور : 58] أي لا إثم عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهن.

ثم بين العلة في ترك الاستئذان في هذه الأوقات بقوله { طَوَّافُونَ عَلَيْكُم } [النور : 58] أي هم

طوافون بحوائج البيت { بَعْضِكُم } مبتدأ خبره { عَلَى بَعْضٍ } [الشعراء : 198] تقديره بعضكم طائف على بعض فحذف طائف لدلالة { طَوَّافُونَ } عليه ، ويجوز أن تكون الجملة بدلاً من التي قبلها وأن تكون مبينة مؤكدة يعني أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأفضى إلى الحرج وهو مدفوع في الشرح بالنص { كَذَالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الايَاتِ } [البقرة : 219] أي كما بين حكم الاستئذان يبين لكم غيره من الآيات التي احتجتم إلى بيانها { وَاللَّهُ عَلِيمُ } [البقرة : 95] بمصالح عباده { حَكِيمٌ } في بيان مراده.

جزء : 3 رقم الصفحة : 225

{ وَإِذَا بَلَغَ الاطْفَالُ مِنكُمُ } [النور : 59] أي الأحرار دون المماليك { الْحُلُمَ }

226

أي الاحتلام أي إذا بلغوا وأرادوا الدخول عليكم { فَلْيَسْتَأْذِنُوا } في جميع الأوقات { كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } [النور : 59] أي الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال ، أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله : { كَرِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا } الآية.

والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن ، والناس عن هذا غافلون ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله وقوله : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحجرات : 13] .

{ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ } [النساء : 8].

وعن سعيد بن جبير : يقولون هي منسوخة والله ما هي بمنسوخة وقوله { كَذَالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [البقرة : 242] بمصالح الأنام { حَكِيمٌ } فيما يبين من الأحكام.

جزء : 3 رقم الصفحة : 226

(128/3)

{ وَالْقَوَاعِدُ } جمع قاعد لأنها من الصفات المختصة بالنساء كالطالق والحائض أي اللاتي قعدن عن الحيض والولد لكبرهن { مِنَ النِّسَآءِ } [النساء : 22] حال { لا يَرْجُونَ نِكَاحًا } لا يطمعن فيه وهي في كل الرفع صفة للمبتدأ وهي القواعد والخبر { فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ } [النور : 60] إثم ودخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط بسبب الألف واللام { أَن يَضَعْنَ } [النور : 60] في أن يضعن { ثِيَابَهُنَّ } أي الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار { غَيْرِ } حال { مُتَبَرِّجَات بِزِينَةٍ } [النور : 60] أي غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق ونحو ذلك أي لا يقصدن

بوضعها التبرج ولكن التخفيف ، وحقيقة التبرج يكلف إظهاراً ما يجب إخفاؤه { وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ } [النور : 60] أي يطلبن العفة عن وضع الثياب فيسترون وهو مبتدأ خبره { خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ } [النور : 60] لما يعلن { عَلِيمٌ } بما يقصدن.

227

جزء : 3 رقم الصفحة : 227

{ لَّيْسَ عَلَى الاعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الاعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ } [النور : 61] قال سعيد بن المسيب : كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلّم وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم ، وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت الآية رخصة لهم { وَلا عَلَى أَنفُسِكُمْ } [النور : 61] أي حرج { أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ } [النور : 61] أي بيوت أولادكم لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ولذا لم يذكر الأولاد في الآية ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " أنت ومالك لأبيك " أو بيوت أزواجكم لأن الزوجين صار كنفس واحدة فصار بيت المرأة كبيت الزوج { لَّيْسَ عَلَى الاعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الاعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآ ئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ } [النور : 61] لأن الإذن من هؤلاء ثابت دلالة { أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ } جمع مفتح وهو ما يفتح به الغلق ، قال ابن عباس رضي الله عنه : هو وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته ، له أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته.

وأريد بملك المفاتح كونها في يده وحفظه.

وقيل : أريد به بيت عبده لأن العبد وما في يده لمولاه { مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُا أَوْ صَدِيقِكُمْ } [النور : 61] يعني أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحداً وجمعاً وهو من يصدقك في مودته وتصدقه في مودتك ، وكان الرجل من السلف يدخل دارٍ صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء ، فإذا حضر

228

مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك ، فأما الان فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن.

جزء : 3 رقم الصفحة : 228

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا } [النور : 61] مجتمعين { أَوْ أَشْتَاتًا } [النور : 61] متفرقين جمع شت.

نزلت في بني ليث بن عمرو وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة ، أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم ، أو تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس في الأكل وزيادة بعضهم على بعض { فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا } [النور : 61] من هذه البيوت لتأكلوا { فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ } [النور : 61] أي فابدؤوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة أو بيوتاً فارغة أو مسجداً فقولوا :

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين { تَحِيَّةً } نصب بـ سلموا لأنها في معنى تسليماً نحو " قعدت جلوساً " { مِّنْ عِندِ اللَّهِ } [آل عمران : 37] أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه ، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله { مُبَارَكَةً طَيِّبَةً } [النور : 61] وصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق { كَذَالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الايَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [النور : 61] لكي تعقلوا وتفهموا.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ } [النور : 62] أي الذي يجمع له الناس نحو الجهاد والتدبير في الحرب وكل اجتماع في الله حتى الجمعة والعيدين { لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ } [النور : 62] أي ويأذن لهم.

ولما أراد الله عز وجل أن يريهم عظم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم بغير إذنه إذا كانوا معه على أمر جامع ، جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله ، وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره.

وذلك مع تصدير الجملة بـ إنما وإيقاعِ المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين ، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله

229

{ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئك الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [النور : 62] وضمنه شيئاً آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً { فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ } [النور : 62] في الانصراف { لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ } [النور : 62] أمرهم { فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ } [النور : 62] فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام { وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور : 62] وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل أن لا يستأذن.

قالوا : وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن ، قيل : نزلت يوم الخندق كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان { لا تَجْعَلُوا دُعَآءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا } [النور : 63] أي إذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضاً وينادي باسمه الذي سماه به أبواه ، فلا تقولوا يا محمد ولكن يا نبي الله يا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض.

جزء : 3 رقم الصفحة : 229
{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ } [النور : 63] يخرجون قليلاً قليلاً { مِنكُمْ لِوَاذًا } [النور : 63] حال أي ملاوذين اللواذ.
والملاوذة هو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا أي ينسلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ } [النور : 63] أي الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون.
يقال : خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه : { عَنْهُ } وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه.
والضمير في أمره لله سبحانه أو للرسول عليه الصلاة والسلام والمعنى عن طاعته ودينه ومفعول يحذر { أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ } [النور : 63] محنة في الدنيا أو قتل أو زلازل وأهوال أو تسليط سلطان جائر أو قسوة القلب عن معرفة الرب أو إسباغ النعم استدراجاً { أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النور : 63] في
230
الآخرة.
والآية تدل على أن الأمر للإيجاب.
جزء : 3 رقم الصفحة : 229

(130/3)

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [يونس : 55] " ألا " تنبيه على أن لا يخالفوا أمر من له ما في السماوات والأرض { قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ } [النور : 64] أدخل " قد " ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، والمعنى أن جميع ما في السماوات والأرض مختص به خلقاً وملكاً وعلماً فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن كانوا يجهدون في سترها؟ { وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ } [النور : 64] وبفتح الياء وكسر الجيم : يعقوب أي ويعلم يوم يردون إلى جزائه وهو يوم القيامة.
والخطاب والغيبة في قوله قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه يجوز أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات ، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاماً و يرجعون للمنافقين { فَيُنَبِّئُهُم } يوم القيامة { بِمَا عَمِلُوا } [المجادلة : 6] بما أبطنوا من سوء أعمالهم ويجازيهم حق جزائهم { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة : 282] فلا يخفي عليه خافية.
وروي أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ سورة النور على المنبر في الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت والله

231

سورة الفرقان

مكية وهي سبع وسبعون آية

{ تَبَارَكَ } تفاعل من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ، ومعنى تبارك الله تزايد خيره وتكاثر أو تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، وهي كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده والمستعمل منه الماضي فحسب { الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ } [الفرقان : 1] هو مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما ، وسمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل والحلال والحرام ، أو لأنه لم ينزل جملة ولكن مفرقاً مفصولاً بين بعضه وبعض في الإنزال ألا ترى إلى قوله : { وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلا } [الإسراء : 106] { عَلَى عَبْدِهِ } [الحديد : 9] محمد عليه الصلاة والسلام { لِيَكُونَ } العبد أو الفرقان { لِلْعَالَمِينَ } للجن والإنس وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام { نَذِيرًا } منذراً أي مخوفاً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار ومنه قوله تعالى { فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ } [القمر : 16] { الَّذِى } رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على الإبدال من الذي نزل وجوز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ليكون لأن المبدل منه صلته نزل وليكون تعليل له فكأن المبدل منه لم يتم إلا به أو نصب على المدح

232

{ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الزمر : 44] على الخلوص { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا } [الفرقان : 2] كما زعم اليهود والنصارى في عزير والمسيح عليهما السلام { وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ } [الإسراء : 111] كما زعمت الثنوية { وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ } [الفرقان : 2] أي أحدث كل شيء وحده لا كما يقوله المجوس والثنوية من النور والظلمة ويزدان وآهرمن.

ولا شبهة فيه لمن يقول إن الله شيء ويقول بخلق القرآن ، لأن الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعولاً له على أن لفظ شيء اختلص بما يصح أن يخلق بقرينة وخلق ، وهذا أوضح دليل لنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد { فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان : 2] فهيأه لما يصلح له بلا خلل فيه كما أنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في الدين والدنيا أو قدره للبقاء إلى أمد معلوم.

جزء : 3 رقم الصفحة : 232

(131/3)

{ وَاتَّخَذُوا } الضمير للكافرين لاندراجهم تحت العالمين أو لدلالة نذيراً عليهم لأنهم المنذرون { مِن دُونِهِ ءَالِهَةً } [يس : 23] أي الأصنام { لا يَخْلُقُونَ شيئا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [النحل : 20] أي أنهم آثروا

على عبادة من هو منفرد بالألوهية والملك والخلق والتقدير عبادة عجزة لا يقدرون على خلق شيء وهم يخلقون { وَلا يَمْلِكُونَ لانفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا } [الفرقان : 3] ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها ولا جلب نفع إليها { وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا } [الفرقان : 3] إماتة { وَلا يَمْلِكُونَ } [الفرقان : 3] أي إحياء { وَلا نُشُورًا } [الفرقان : 3] إحياء بعد الموت وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَاذَآ } [الفرقان : 4] ما هذا القرآن { إِلا إِفْكٌ } [الفرقان : 4] كذب { افْتَرَاهُ } اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه { وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ } [الفرقان : 4] أي اليهود وعداس ويسار وأبو فكيهة الرومي قاله النضر بن الحارث { فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا } [النساء : 54–4] هذا إخبار من الله رد للكفرة فيرجع الضمير إلى الكفار وجاء يستعمل في

معنى فعل فيعدى تعديتها ، أو حذف الجار وأوصل الفعل أي بظلم وزور.

وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب ، والزور أن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

جزء : 3 رقم الصفحة : 233

{ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الاوَّلِينَ } [الفرقان : 5] أي هو أحاديث المتقدمين وما سطروه كرستم وغيره جمع أسطار وأسطورة كأحدوثة { اكْتَتَبَهَا } كتبها لنفسه { فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ } [الفرقان : 5] أي تلقى عليه من كتابه { بُكْرَةً } أول النهار { وَأَصِيلا } آخره فيحفظ ما يملى عليه ثم يتلوه علينا.

{ قُلْ } يا محمد { أَنزَلَهُ } أي القرآن { الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ } [الفرقان : 6] أي يعلم كل سر خفي في السماوات والأرض ، يعني أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم ، دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب { إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا } [الفرقان : 6] فيمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة وإن استوجبوها بمكابرتهم { وَقَالُوا مَالِ هَاذَا الرَّسُولِ } وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء وخط المصحف سنة لا تغير ، وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا : أي شيء لهذا الزاعم إنه رسول { يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الاسْوَاقِ } [الفرقان : 7] حال والعامل فيها " هذا " { لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا } أي إن صح أنه رسول الله فما باله يأكل الطعام كما نأكل ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما تردد يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنساناً معه ملك حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر

به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستان يأكل هو منه كالمياسير أو نأكل نحن كقراءة علي وحمزة.

وحسن عطف المضارع وهو { يُلْقَى } و { تَكُونُ } على { أُنزِلَ } وهو ماض لدخول المضارع وهو {

فَيَكُونَ } بينهما وانتصب { فَيَكُونَ } على القراءة المشهورة لأنه جواب { لَوْلا } بمعنى " هلا " وحكمه حكم الاستفهام.

وأراد بالظالمين في قوله { وَقَالَ الظَّالِمُونَ } [الفرقان : 8] إياهم بأعيانهم غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوا وهم كفار قريش { إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَّسْحُورًا } [الإسراء : 47] سحر فجن أو ذا سحر وهو الرئية عنوا أنه بشر لا ملك

جزء : 3 رقم الصفحة : 234

{ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا } [الإسراء : 48] بينوا { لَكَ الامْثَالَ } [الإسراء : 48] الأشباه أي قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال من المفتري والمملى عليه والمسحور { فَضَلُّوا } عن الحق { فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا } [الإسراء : 48] فلا يجدون طريقاً إليه.

(132/3)

{ تَبَارَكَ الَّذِى إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَالِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورَا } [الفرقان : 10] أي تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً مما قالوا ، وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور.

و جنات بدل من خيرا ، ويجعل بالرفع : مكي وشامي وأبو بكر لأن الشرط إذا وقع ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع { بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ } [الفرقان : 11] عطف على ما حكى عنهم يقول : بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة ، أو متصل بما يليه كأنه قال : بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها؟ { وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا } [الفرقان : 11] وهيأنا للمكذبين بها ناراً شديدة في الاستعار.

{ إِذَا رَأَتْهُم } [الفرقان : 12] أي النار أي قابلتهم { مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ } [سبأ : 52] أي إذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد { سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا } [الفرقان : 12] أي سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر ، أو إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضباً على الكفار.

235

جزء : 3 رقم الصفحة : 235

{ وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا } [الفرقان : 13] من النار { مَكَانًا ضَيِّقًا } [الفرقان : 13] ضيقاً مكي فإن الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذا وصفت الجنة بأن عرضها السماوات والأرض.

وعن ابن عباس رضي الله عنها أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح { مُّقَرَّنِينَ } أي وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرّنون في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ، أو يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الأصفاد { دَعَوْا هُنَالِكَ } [الفرقان : 13] حينئذ { ثُبُورًا } هلاكاً

أي قالوا واثبوراه أي تعال يا ثبور فهذا حينك فيقال لهم { لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا } [الفرقان : 14] أي إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً إنما هو ثبور كثير { قُلْ أَذَالِكَ خَيْرٌ } [الفرقان : 15] أي المذكور من صفة النار خير { أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ } [الفرقان : 15] أي وعدها فالراجع إلى الموصول محذوف ، وإنما قال : أذلك خير ، ولا خير في النار توبيخاً للكفار { كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً } [الفرقان : 15] ثواباً { وَمَصِيرًا } مرجعاً.

وإنما قيل كانت لأن ما وعد الله كأنه كان لتحققه أو كان ذلك مكتوباً في اللوح قبل أن خلقهم { لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ } [النحل : 31] أي ما يشاؤونه { خَالِدِينَ } حال من الضمير في يشاؤون والضمير في كان لـ ما يشاؤون { عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا } [الفرقان : 16] أي موعوداً { مَّسْـُٔولا } مطلوباً أو حقيقاً أن يسأل أو قد سأله المؤمنون والملائكة في دعواتهم { رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ } [آل عمران : 194] { رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاخِرَةِ حَسَنَةً } [البقرة : 201] { رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَّهُمْ } [غافر : 8]

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ } [سبأ : 40] { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ } [الأنعام : 22] للبعث عند الجمهور وبالياء : مكي ويزيد ويعقوب وحفص.

(133/3)

{ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } [مريم : 49] يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير.

وعن الكلبي يعني الأصنام ينطقها.

وقيل : عام وما يتناول العقلاء وغيرهم لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم { فَيَقُولُ } وبالنون شامي { ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هؤلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } [البقرة : 140-17] والقياس ضلوا عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه في هداه الطريق والأصل إلى الطريق أو للطريق.

وضل مطاوع أضله والمعنى أأنتم أوقعتموهم في الضلال عن طريق الحق بإدخال الشبه أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟ وإنما لم يقل " أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل " وزيد " أنتم " و " هم " لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنه المسؤول عنه.

وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فتزيد حسرتهم { قَالُوا سُبْحَانَكَ } [سبأ : 41] تعجب منهم مما قيل لهم وقصدوا به تنزيهه عن الأنداد وأن يكون له نبي أو ملك أو غيرهما نداً.

ثم قالوا { مَا كَانَ يَنابَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ } [الفرقان : 18] أي ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتولى أحداً دونك فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك؟ نتخذ يزيد.
و " اتخذ " يتعدى إلى مفعول واحد نحو " اتخذ ولياً " وإلى مفعولين نحو " اتخذ فلاناً ولياً " قال الله تعالى : { أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الارْضِ } [الأنبياء : 21].
وقال : { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا } [النساء : 125] فالقراءة الأولى من المتعدي لواحد وهو من أولياء والأصل أن تتخذ أولياء وزيدت من التأكيد معنى النفي والقراءة الثانية في المتعدي إلى المفعولين فالمفعول الأول ما بنى له الفعل والثاني من أولياء و " من " للتبعيض أي لا نتخذ بعض أولياء لأن من لا تزاد في المفعول
237
الثاني بل في الأول تقول " ما اتخذت من أحد ولياً " ولا تقول " ما اتخذت أحداً من ولي " { وَلَاكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ } [الفرقان : 18] بالأموال والأولاد وطول العمر والسلامة من العذاب { حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ } [الفرقان : 18] أي ذكر الله والإيمان به والقرآن والشرائع { وَكَانُوا } عند الله { قَوْمَا بُورًا } [الفرقان : 18] أي هلكى جمع بائر كعائذ وعوذ ثم يقال للكفار بطريق الخطاب عدولاً عن الغيبة.
جزء : 3 رقم الصفحة : 237
{ فَقَدْ كَذَّبُوكُم } [الفرقان : 19] وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونظيرها : { الْمَصِيرُ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ } إلى قوله { فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ } [المائدة : 19] وقول القائل :
قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثم القفول فقد جئنا خراساناً
{ بِمَا تَقُولُونَ } [الفرقان : 19] بقولكم فيهم إنهم آلهة ، والباء على هذا كقوله : { بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ } [ق : 5] والجار والمجرور بدل من الضمير كأنه قيل : فقد كذبوا بما تقولون.
وعن قنبل بالياء ومعناه فقد كذبوكم بقولهم : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء والباء على هذا كقولك " كتبت بالقلم " { فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا } فما يستطيعون أي فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو ينصرونكم.
وبالتاء حفص أي فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم ولا نصر أنفسكم.
ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله { وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ } [الفرقان : 19] أي يشرك لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم يؤيده قوله تعالى : { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] { نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا } [الفرقان : 19] فسر بالخلود في النار وهو يليق بالشرك دون الفاسق إلا على قول المعتزلة والخوارج.
238
جزء : 3 رقم الصفحة : 238

{ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الاسْوَاقِ } [الفرقان : 20] كسرت " إن " لأجل اللام في الخبر والجملة بعد " إلا " صفة لموصوف محذوف ، والمعنى وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أي من المرسلين ونحوه { فِتْنَةً } أي محنة وابتلاء ، وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلّم عما عيروه به من الفقر ومشيه في الأسواق يعني أنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء فيغني من يشاء ويفقر من يشاء { أَتَصْبِرُونَ } على هذه الفتنة فتؤجروا أم لا تصبروا فيزداد غمكم.

وحكي أن بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه فخرج ضجراً فرأى خصياً في مواكب ومراكب فخطر بباله شيء فإذا بمن يقرأ هذه الآية فقال : بلى فصبراً ربنا.

أو جعلتك فتنة لهم لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكانت طاعتهم لك للدنيا أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا { وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } [الفرقان : 20] عالماً بالصواب فيما يبتلي به أو بمن يصبر ويجزع.

{ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ } [الفرقان : 21] لا يأملون { لِقَآءَنَا } بالخير لأنهم كفرة لا يؤمنون بالبعث أو لا يخافون عقابنا إما لأن الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف ، أو لأن الرجاء في لغة تهامة الخوف { لَوْلا } هلا { أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائكَةُ } [الفرقان : 21] رسلاً دون البشر أو شهوداً على نبوته ودعوى رسالته { أَوْ نَرَى رَبَّنَا } [الفرقان : 21] جهرة فيخبرنا برسالته واتباعه { لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى أَنفُسِهِمْ } [الفرقان : 21] أي أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم { وَعَتَوْ } وتجاوزوا الحد في الظلم { عُتُوًّا كَبِيرًا } [الفرقان : 21] وصف العتو بالكبر فبالغ في

239

إفراطه أي أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو.

واللام في لقد جواب قسم محذوف

جزء : 3 رقم الصفحة : 239

{ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائكَةَ } [الفرقان : 22] أي يوم الموت أو يوم البعث و { يَوْمَ } منصوب بما دل عليه { لا بُشْرَى } [الفرقان : 22] أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى.

وقوله { يَوْمَئاِذٍ } مؤكد لـ يوم يرون أو بإضمار اذكر أي اذكر يوم يرون الملائكة ، ثم أخبر فقال : لا بشرى بالجنة يومئذ ولا ينتصب بـ يرون لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف ، ولا بـ بشرى لأنها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله ولأن المنفي بلا لا يعمل فيما قبل " لا " { لِّلْمُجْرِمِينَ } ظاهر في موضع ضمير أو عام يتناولهم بعمومه وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد الكافرون لأن مطلق الأسماء يتناول أكمل المسميات { وَيَقُولُونَ } أي الملائكة { حِجْرًا مَّحْجُورًا } [الفرقان : 22]

حراماً محرماً عليكم البشرى أي جعل الله ذلك حراماً عليكم إنما البشرى للمؤمنين.
والحجر مصدر والكسر والفتح لغتان وقريء بهما وهو من حجره إذا منعه ، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها ، و { مَّحْجُورًا } لتأكيد معنى الحجر كما قالوا " موت مائت " .
{ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا } [الفرقان : 23] هو صفة ولا قدوم هنا ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقري ضيف ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه وعصاه فقدم إلى أشيائه وقصد إلى ما تحت يديه فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثراً.
والهباء ما يخرج به من الكوة مع ضوء الشمس شبيهاً بالغبار ، والمنثور المفرق وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع.
ثم بين فضل أهل الجنة على أهل النار فقال :
{ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَاإِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا } [الفرقان : 24] تمييز والمستقر المكان الذي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون { وَأَحْسَنُ مَقِيلا } [الفرقان : 24] مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم ، ولا نوم في الجنة ولكنه سمي مكان استراحتهم
240
إلى الحور مقيلاً على طريق التشبيه.
وروي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وفي لفظ الأحسن تهكم بهم
جزء : 3 رقم الصفحة : 240

(135/3)

{ وَيَوْمَ } واذكر يوم { تَشَقَّقُ السَّمَآءُ } [الفرقان : 25] والأصل تتشقق فحذف التاء كوفي وأبو عمرو وغيرهم أدغمها في الشين { بِالْغَمَامِ } لما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء كما تقول " شققت السنام بالشفرة فانشق بها " { وَنُزِّلَ الْمَلَائكَةُ تَنزِيلا } [الفرقان : 25] وننزل الملائكة مكي ، وتنزيلاً على هذا مصدر من غير لفظ الفعل.
والمعنى أن السماء تنفتح بغمام أبيض يخرج منها وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد { الْمُلْكِ } مبتدأ { يَوْمَاإِذٍ } ظرفه { الْحَقُّ } نعته ومعناه الثابت لأن كل ملك يزول يومئذ فلا يبقى إلا ملكه { لِلرَّحْمَانِ } خبره { وَكَانَ } ذلك اليوم { يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا } [الفرقان : 26] شديداً.
يقال عسر عليه فهو عسير وعسر ويفهم منه يسره على المؤمنين ففي الحديث " يهون يوم القيامة

على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها في الدنيا " .
{ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ } [الفرقان : 27] عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة لأنه من روادفها فتذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجده عند لفظ المكنّى عنه ، واللام في { الظَّالِمُ } للعهد وأريد به عقبة لما تبين أو للجنس فيتناول عقبة وغيره من الكفار { يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا } في الدنيا { مَعَ الرَّسُولِ } [الفرقان : 27] محمد عليه الصلاة والسلام { سَبِيلا } طريقاً إلى النجاة والجنة وهو الإيمان { يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا } وقرىء يا ويلتي بالياء وهو الأصل لأن الرجل ينادي ويلته
241
وهي هلكته يقول لها تعالي فهذا أوانك.
وإنما قلبت الياء ألفاً كما في " صحارى " و " مدارى " { سَبِيلا * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا } [الفرقان : 28] فلان كناية عن الأعلام فإن أريد بالظالم عقبة لما روي أنه اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل فقال له أبيّ بن خلف وهو خليله : وجهي من وجهك حرام إلا أن ترجع فارتد.
فالمعنى يا ليتني لم أتخذ أبياً خليلاً ، فكنى عن اسمه.
وإن أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة فجعل كناية عنه.
وقيل : هو كناية عن الشيطان
جزء : 3 رقم الصفحة : 241
{ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ } [الفرقان : 29] أي عن ذكر الله أو القرآن أو الإيمان { بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى } [الفرقان : 29] من الله { وَكَانَ الشَّيْطَانُ } [الإسراء : 27] أي خليله سماه شيطاناً لأنه أضله كما يضله الشيطان ، أو إبليس لأنه الذي حمله على مخالفة المضل ومخالفة الرسول { لِلانسَانِ } المطيع له { خَذُولا } هو مبالغة من الخذلان أي من عادة الشيطان ترك من يواليه وهذا حكاية كلام الله أو كلام الظالم.
{ وَقَالَ الرَّسُولُ } [الفرقان : 30] أي محمد عليه الصلاة والسلام في الدنيا { يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِى } [الفرقان : 30] قريشاً { اتَّخَذُوا هَاذَا الْقُرْءانَ مَهْجُورًا } [الفرقان : 30] متروكاً أي تركوه ولم يؤمنوا به من الهجران وهو مفعول ثان لـ اتخذوا في هذا تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لأن الأنبياء إذا شكوا إليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا.
ثم أقبل عليه مسلياً ووعده النصرة عليهم فقال { وَكَذَالِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا } [الفرقان : 31] أي كذلك كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بي هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم ، وناصراً لك عليهم.

والعدو يجوز أن يكون واحداً وجمعاً والباء زائدة أي وكفى ربك هادياً وهو تمييز
242
جزء : 3 رقم الصفحة : 242

(136/3)

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [النمل : 67] أي قريش أو اليهود { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً } [الفرقان : 32] حال من القرآن أي مجتمعاً { وَاحِدَةً } يعني هلا أنزل عليه دفعة واحد في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة ، وماله أنزل على التفاريق؟ وهو فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته ، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو متفرقاً.

ونزّل هنا بمعنى أنزل وإلا لكان متدافعاً بدليل جملة واحدة وهذا اعتراض فاسد لأنهم تحدوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم حتى لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة وبذلوا المهج وما مالوا إلى الحجج { كَذَالِكَ } جواب لهم أي كذلك أنزل مفرقاً في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين و " ذلك " في كذلك إشارة إلى مدلول قوله لولا نزل عليه القرآن جملة لأن معناه لم أنزل عليك القرآن مفرقاً فأعلم أن ذلك { لِنُثَبِّتَ بِهِ } [الفرقان : 32] بتفريقه { فُؤَادَكَ } حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزأ عقيب جزء ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه ، أو لنثبت به فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب { وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا } [الفرقان : 32] معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كأنه قال : كذلك فرقناه ورتلناه أي قدرناه آية بعد آية ووقفة بعد وقفة ، أو أمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى : { وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلا } [المزمل : 4] أي اقرأه بترسل وتثبت أو بيناه تبييناً ، والترتيل التبيين في ترسل وتثبت.

{ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ } [الفرقان : 33] بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل في البطلان { إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ } [الفرقان : 33] إلا أتيناك بالجواب الحق الذي لا محيد عنه { وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } [الفرقان : 33] وبما هو أحسن معنى ومؤدى من مثله أي من سؤالهم.

وإنما حذف من مثلهم لأن في الكلام دليلاً عليه كما لو قلت " رأيت زيداً وعمراً وإن عمرو أحسن
243
وجهاً " كان فيه دليل على أنك تريد من زيد.

ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل : معناه كذا وكذل.

أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا أنزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما

يحق لك في حكمتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفاً لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني أن تنزيله مفرقاً وتحديثهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها ، أدخل في الإعجاز من أن ينزل كله جملة.

جزء : 3 رقم الصفحة : 243

{ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولئك شَرٌّ } [الفرقان : 34] الذين مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان وشر خبر أولئك وأولئك مع شر خبر الذين أو التقدير : هم الذين أو أعني الذين و { أُولئك } مستأنف { مَكَانًا } أي مكانة ومنزلة أو مسكناً ومنزلاً { وَأَضَلُّ سَبِيلا } [الإسراء : 72] أي وأخطأ طريقاً ، وهو من الإسناد المجازي.

والمعنى إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضلون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته ، ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه وسبيلكم أضل من سبيله ، وفي طريقته قوله { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَالِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ } [المائدة : 60] الآية.

وعن النبي صلى الله عليه وسلّم " يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم " قيل : يا رسول الله ، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال عليه الصلاة والسلام " الذي أمشاكم على أقداكم يمشيهم على وجوههم " .

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [هود : 110] التوراة كما آتيناك القرآن { وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ } [الفرقان : 35] بدل أو عطف بيان { وَزِيرًا } هو في اللغة من يرجع إليه من الوزر وهو الملجأ ، والوزارة لا تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضاً { فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَايَاتِنَا } [الفرقان : 36] إلى فرعون وقومه وتقديره فذهبا إليهم وأنذرا فكذبوهما { فَدَمَّرْنَـاهُمْ تَدْمِيرًا } [الفرقان : 36] التدمير الإهلاك بأمر

244

عجيب أراد اختصار القصة فذكر أولها وآخرها لأنهما المقصود من القصة أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 244

{ وَقَوْمَ نُوحٍ } [الفرقان : 37] أي ودمرنا قوم نوح { لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ } [الفرقان : 37] يعني نوحاً وإدريس وشيثاً أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيباً للجميع { أَغْرَقْنَاهُمْ } بالطوفان { وَجَعَلْنَاهُمْ } وجعلنا إغراقهم أو قصتهم { لِلنَّاسِ ءَايَةً } [الفرقان : 37] عبرة يعتبرون بها { وَأَعْتَدْنَا } وهيأنا { لِلظَّالِمِينَ }

لقوم نوح وأصله وأعتدنا لهم إلا أنه أراد تظليمهم فأظهر ، أو هو عام لكل من ظلم ظلم شرك ويتناولهم بعمومه { عَذَابًا أَلِيمًا } [النساء : 18] أي النار { وَعَادًا } دمرنا عاداً { وَثَمُودُ } حمزة وحفص على تأويل القبيلة وغيرهما ، وثموداً على تأويل الحي أو لأنه اسم الأب الأكبر { وَأَصْحَابَ الرَّسِّ } [ق : 12] هم قوم شعيب كانوا يعبدون الأصنام فكذبوا شعيباً فبيناهم حول الرس وهي البئر غير مطوية انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم ، وقيل : الرس قرية قتلوا نبيهم فهلكوا ، أو هم أصحاب الأخدود والرس الأخدود { وَقُرُونَا } وأهلكنا أمماً { بَيْنَ ذَالِكَ } [النساء : 150] المذكور { كَثِيرًا } لا يعلمها إلا الله أرسل إليهم فكذبوهم فأهلكوا { وَكُلا ضَرَبْنَا لَهُ الامْثَالَ } [الفرقان : 39] بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين { وَكُلا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا } [الفرقان : 39] أي أهلكنا إهلاكاً ، { وَكُلا } الأول منصوب بما دل عليه { ضَرَبْنَا لَهُ الامْثَالَ } [الفرقان : 39] وهو أنذرنا أو حذرنا والثاني بـ تبرنا لأنه فارغ له.

جزء : 3 رقم الصفحة : 245

{ وَلَقَدْ أَتَوْا } [الفرقان : 40] يعني أهل مكة { عَلَى الْقَرْيَةِ } [الفرقان : 40] سدوم وهي أعظم قرى قوم لوط وكانت خمساً أهلك الله أربعاً مع أهلها وبقيت واحدة { الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ } [الفرقان : 40] أي أمطر الله عليها الحجارة يعني أن قريشاً مروا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ، ومطر السوء مفعول ثانٍ والأصل أمطرت القرية مطراً ، أو مصدر محذوف الزوائد أي إمطار السوء

245

{ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا } [الفرقان : 40] أما شاهدوا ذلك بأبصارهم عند سفرهم الشام فيتفكروا فيؤمنوا { بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا } [الفرقان : 40] بل كانوا قوماً كفرة بالبعث لا يخافون بعثاً فلا يؤمنون ، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم

جزء : 3 رقم الصفحة : 245

{ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ } [الفرقان : 41] إن نافية { إِلا هُزُوًا } [الفرقان : 41] اتخذه هزواً في معنى استهزاء أي قائلين أي أهذا الذي { بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا } [الفرقان : 41] والمحذوف حال والعائد إلى الذين محذوف أي بعثه.

(138/3)

{ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا } [الفرقان : 42] " أن " مخففة من الثقيلة واللام فارقة وهو دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلّم في دعوتهم وعرض المعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة

آلهتهم { وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ } [الفرقان : 42] هو وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال { مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا } [الفرقان : 42] هو كالجواب عن قولهم إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى الضلال إذ لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه.

{ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ } [الفرقان : 43] أي من أطاع هواه فيما يأتي ويذر فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول الله تعالى لرسوله : هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى.

يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر فإذا مر بحجر أحسن منه ترك الأوّل وعبد الثاني.

وعن الحسن : هو في كل متبعٍ هواه { أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا } [الفرقان : 43] أي حفيظاً تحفظه من متابعة هواه وعبادة ما يهواه ، أفأنت تكون عليه موكلاً فتصرفه عن الهوى إلى الهدى ، عرفه أن إليه التبليغ فقط

246

جزء : 3 رقم الصفحة : 246

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالانْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا } [الفرقان : 44] " أم " منقطعة معناه بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونها مسلوبي الأسماع والعقول ، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذناً ولا إلى تدبره عقلاً ، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة فقد ركبهم الشيطان بالاستذلال لتركهم الاستدلال ، ثم هم أرجح ضلالة منها لأن الأنعام تسبح ربها وتسجد له وتطيع من يعلفها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي ، وقالوا : للملائكة.

روح وعقل ، وللبهائم نفس وهوى ، والآدمي مجمع الكل ابتلاء.

فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام ، وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام.

وإنما ذكر الأكثر لأن فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا حب الرياسة وكفى به داء عضالاً ولأن فيهم من آمن.

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ } [الفرقان : 45] ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته { كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ } [الفرقان : 45] أي بسطه فعم الأرض وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس في قول الجمهور لأنه ظل ممدود لا شمس معه ولا ظلمة ، وهو كما قال في ظل الجنة { وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ } [الواقعة : 30] (الواقعة : 03) إذ لا شمس معه ولا ظلمة { وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا } [الفرقان : 45] أي دائماً لا يزول ولا تذهبه الشمس { ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ } [الفرقان : 45] على الظل { دَلِيلا } لأنه

بالشمس يعرف الظل ولولا الشمس لما عرف الظل فالأشياء تعرف بأضدادها { ثُمَّ قَبَضْنَاهُ } [الفرقان : 46] أي أخذنا ذلك الظل الممدود { إِلَيْنَا } إلى حيث أردنا { قَبْضًا يَسِيرًا } [الفرقان : 46] سهلاً غير عسير أو قليلاً قليلاً أي جزءًا فجزءا بالشمس التي تأتي عليه.

وجاء بـ " ثم " لتفاضل ما بين الأمور فكأن الثاني أعظم من الأول ، والثالث أعظم

من الثاني ، شبه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت

(139/3)

{ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا } [الفرقان : 47] جعل الظلام الساتر كاللباس { وَالنَّوْمَ سُبَاتًا } [الفرقان : 47] راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم ، والسبت القطع والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته.

وقيل : السبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة وهو كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ } [الأنعام : 60] (الأنعام : 06) ويعضده ذكر النشور في مقابلته { وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا } [الفرقان : 47] إذ النشور انبعاث من النوم كنشور الميت أن ينشر فيه الخلق للمعاش.

وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه لأن في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر.

وقال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنتشر.

{ وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ } [الفرقان : 48] الريح مكي والمراد به الجنس { بَشَرًا } تخفيف بشر جمع بشور { بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ } [النمل : 63] أي قدام المطر لأنه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة { وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً } [المؤمنون : 18] مطراً { طَهُورًا } بليغاً في طهارته.

والطهور صفة كقولك " ماء طهور " أي طاهر ، واسم كقولك لما يتطهر به طهور كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار ، ومصدر بمعنى التطهر كقولك تطهرت طهوراً حسناً ومنه قوله عليه الصلاة والسلام " لا صلاة إلا بطهور " أي بطهارة.

وما حكي عن ثعلب هو ما كان طاهراً في نفسه مطهراً لغيره وهو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إن كان هذا بيان زيادة الطهارة فحسن ويعضده قوله تعالى { وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ } [الانفال : 11] وإلا فليس فعول من التفعيل في شيء ، وقياسه على ما هو مشتق من الأفعال المتعدية كقطوع ومنوع غير سديد

لأن بناء الفعول للمبالغة ، فإن كان الفعل متعدياً فالفعول متعد وإن كان لازماً فلازم
جزء : 3 رقم الصفحة : 248
{ لِّنُحْيِۦَ بِهِ } [الفرقان : 49] بالمطر { بَلْدَةً مَّيْتًا } [ق : 11] ذكّر ميتاً على إرادة البلد أو المكان { وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا } [الفرقان : 49] أي ونسقي الماء البهائم والناس.
ومما خلقنا حال من أنعاماً وأناسي أي أنعاماً وأناسي.
مما خلقنا.
وسقى أو أسقى لغتان.
وقرأ المفضل والبرجمي ونسقيه والأناسي جمع إنسي على القياس ككرسي وكراسي ، أو إنسان وأصله أناسين كسرحان وسراحين فأبدلت النون ياء وأدغمت.
وقدم إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي لأن حياتها سبب لحياتهما ، وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناسي متعلقة بها فكأن الإنعام عليها بسقي الإنعام كالأنعام بسقيهم ، وتنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة لأن أكثر الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار فيهم غنية عن سقي السماء وأعقابهم وبقاياهم كثير يعيشون بما ينزل الله من رحمته ، وتنكير البلدة لأنه يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء.
ولما سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراماً لهم ، وبيان أن من حقهم أن يؤثروا الطهارة في بواطنهم وظواهرهم لأن الطهورية شرط الإحياء.
{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا } [الفرقان : 50] ليذكروا حمزة وعلي يريد ولقد صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل ، وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيه فيشكروا { فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا } [الإسراء : 89] فأبى أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها.
أو صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة ، فأبوا إلا الكفور وأن يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما من عام أقل مطراً من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء وقرأ الآية.
وروي أن الملائكة
249